مجلة تراثية فصلية محكمة

المورد

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق
المجلد الخامس والعشرون ـ العدد الثاني ـ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

من المحرر

إعتباراً من هذا العدد يضاف باب (قراءة في نص قديم) الى أبواب المجلة الثابتة ، ويتناول بالتحليل نصاً قديماً ، شعرياً أو نثرياً ، على وفق للدرس النقدي المعاصر . كما استحدثت المجلة باباً جديداً باسم (من أعلام الفكر والفن) .إعتباراً من العدد القابل يتم فيه دراسة أحد أعلام الفكر والفن دراسة موضوعية جادة تتناول منجزه الابداعي بما يضعه في موقعه من سياق بنائنا الثقافي الشامخ .

وسوف نقدم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ في هذا الباب اعلامنا الكبار : الاب انستاس الكرملي ، وأبا الثناء الالوسي ، ومحمود شكري الالوسي ، وجميل صدقي الزهاوي ، وطه باقر ، وجواد علي ، وروفائيل بطي ، ومحمد رضا الشبيبي ، وداود الجلبي ، وعلي الوردي ، وابراهيم الوائلي ، وطه الراوي ، وأحمد صالح العلي ، ومصطفى جواد ، وعبد الحميد العلوجي ، وعبد الجليل الطاهر ، وصفاء خلوصي ، ومعروف الرصافي ، وهاشم الخطاط ، وغيرهم ممن وضع لبنة في صرح الفكر والفن . وفي ذلك إعتراف بالفضل الجليل الذي طوقوا به عنق تاريخنا المعاصر ، وإعتباراً للأمانة التي اضطلعوا بها في أخطر ميادين النشاط الانساني من جانب ، بالاضافة الى ما يحمله الباب من مغزى إطلاع الاجيال الجديدة على إبداع السلف في مضمار بناء حضارة الوطن والامة .

وتهيب المجلة بكتابها وقرائها الافاضل بالكتابة اليها في البابين المذكورين خدمة لتراثنا الثقافي وإغناء لمجلتهم .

الولادتان

يحتفل شعبنا في العراق وفي الوطن العربي الكبير بمناسبتين تاريخيتين في شهر نيسان من كل عام تلكما هما ميلاد حزب البعث العربي الاشتراكي في السابع منه ، وميلاد الرفيق القائد المنصور بالله صدام حسين في الثامن والعشرين منه بالاضافه الى تحرير الفاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم . وليس صدفة ان تتزامن المناسبتان في شهر واحد هو عطاء الحياة ، وربيع الزمن ، فلقد قدر الله جلت قدرته ان تكون ولادة البعث ايذانا بولادة القائد ، وكانت ثورة السابع عشر – الثلاثين من تموز صلة الوصل بين الحدثين المباركين .

ولقد كان المشروع النهضوي القومي الذي استلهمته الثورة من مبادىء الحزب ، وتعهده الرفيق القائد بالتطوير والإنماء والتطبيق حافزا لتعبئة طاقات المجاهدين والمبدعين في مختلف الميادين والحقول ،وتفجيرها على طريق البناء ، والنهوض العلمي الرصين لإقامة النموذج الوطني القادر على الإستقطاب والإشعاع والتوسع باتجاه افقه القومي المنشود .

وقد بلغ من شموخ البناء ، وعظمة الإنجاز ما هدد المصالح الإمبريالية والصهيونية بالزوال ، فكان العدوان الثلاثيني الغاشم ، بصفحتيه العسكرية الآثمة ، وحصاره الظالم ، واللذين واجههما شعبنا الابي ، بقيادة القائد الرمز ، بصبر قلَّ مثيله ، ومطاولة عز نظيرها .

ان ذكرى البعث ، وميلاد القائد الرمز حافز لجماهير شعبنا وامتنا على مواصلة التصدي للمشاريع الإستعمارية ، لإنتزاع الحقوق الوطنية والقومية . كما ان ذكرى تحرير الفاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم كانت وستظل نبراسا يهدي جماهير امتنا على طريق تحرير الأراضي المغتصبة ، وأملاً كبيراً يحدوها نحو تذليل الصعاب ، واسترخاص التضحيات من اجل مجد الامة ، وشرفها ، مستلهمة تاريخها الرسالي الحافل بالبطولات والمآثر .

الف تهنئة لقائدنا الحبيب في ذكرى ميلاده الميمون

والف تهنئة لحزبنا العظيم في يوم تاسيسه الخالد

وطوبى للفاو العزيزة بيوم التحرير الاغر .

رئيس التحرير

الرمزية في موضوعات القصيدة العربية قبل الاسلام

د. بهجت عبد الغفور الحديثي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

المقدمة :

لم يتفق النقاد القدامى ولا المحدثون على قضية كإتفاقهم على جودة الشعر الجاهلي وحسن نظمه وقوة سبكه وجمال صوره ولطافة معانيه وصدقها وقوة مبناه وعمق مدلولاته ، فهو بحق نسيج وحده ، ظل قبلة الشعراء العرب في عصورهم المتقدمة والمتاخرة ، به ياخذون واليه يصبون ، ومثلهم الذي يحتذون ونموجهم الامثل الذي به يقتدون ومنه ينهلون .

على ان النقاد المعاصرين قد اختلفوا في النظر الى بنية القصيدة كما اختلفوا حول صياغتها الادائية ودلالاتها الفنية والموضوعية وهم على هذا ثلاثة أصناف : صنف قال : بواقعية الشعر الجاهلي وتشبثه بالحقيقة واتصافه بالبساطة والوضوح وصنف قال بعمق القصيدة الجاهلية وقدرتها الايحائية وخصوبة معطياتها الفكرية والفنية والنفسية ، بل ذهب هذا الصنف الى ابعد من ذلك ، فقال برمزية دلالتها الموضوعية والفنية وعلوها على التعبير ، واعتمادها على التعبير الرمزي الذي يخترق الجدار السطحي ليصل الى اعماق النفس فيثري المعاني المتعددة ويخصب طاقاتها الفنية والجمالية .

وفريق ثالث وقف موقفاً وسطاً ، ودعا الى الاعتدال ، قال : بجودة القصيدة الجاهلية ونضجها واكتمالها وعدم بساطتها ، ولكنه رفض الغلو في التفسير الرمزي وانكر الاغراب والتعقيد في معانيها وفي دلالاتها الفنية ، مع رفضه القول : بواقعية الشعر الجاهلي ، وعدم تصويره للطبيعة تصويراً جامداً .

أقول قبل الميل أذهب الى مذهب من هذه المذاهب الثلاثة إن خلود القصيدة الجاهلية وامتداد تاثيرها الى شعر أربعة عشر قرناً بهذا الوجه أو ذاك يدعونا الى رفض المذهب الذي يقول ببساطة الشعر الجاهلي وواقعيته الحرفية ، فالشعر الخالد ليس نقلاً للواقع ولا مشاكلة له والا ما استحق ان يخلد ، إنه الفن الذي يعكس رؤية متميزة للواقع الذي يكتنفه ، وهو بلا شك يحرص على ان يخلق صورته خلقاً جديداً يعكس هذا الموقف او ذاك .(١)

وحين نميل الى القول برمزية موضوعات القصيدة الجاهلية فاننا لا نعني بالرمزية الغموض والاغراب والتعقيد ، كما لا نعني بها تلك الاشارات او الالغاز والطلاسم التي يصعب على المتلقي فك رموزها ومعرفة دلالاتها الموضوعية والفنية والنفسية .

اننا نعني بالرمزية التي نلمحها في الشعر عامة وفي الشعر الجاهلي خاصة ، تلك القدرة التي تمتلكها القصيدة على اثارة تصورات ذهنية دلالية ، فضلاً عن قابليتها على اثارة المعاني المتعددة في نفس المتلقي الجاهلي ليس بالضرورة هو المعنى نفسه الذي تثيره في نفس المتلقي العباسي او المعاصر ...

ان بين ايدينا مئات من الادلة التي تقود الى القناعة التامة باعتماد الشعر الجاهلي على الاسلوب التصويري والاقتصاد في استخدام اللغة الفاظاً واساليب ، مما يشجعنا على القول بغلبة التعبير الرمزي على التعبير المباشر ، وعلو الشعر الجاهلي على الواقع الحقيقي وبنائه بناءً لغوياً مجازياً حافلاً بالرموز والمعاني التي تكشف عن التوترات المختلفة التي كانت تحكم العالم الشعري وما يتصل به من المواقف آنذاك ، وهل الشعر إلا نسيج من الكلمات وصورها ورموزها وايحاءاتها .(٢)

اقول : إن رمزية الشعر العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة هي غير الرمزية التي تعارف الغربيون عليها ، فالرمز في القصيدة الجاهلية لمحة ادائية او مضمونية يحتويها اطار إدائي يمتلك قاسمه المشترك بين الشاعر والمتلقي بينما يجنح الرمز الحديث الى بناء الاداء كله على الرمز الذي يفقد جسره المشترك بين الشاعر والمتلقي .

وعلى هذا فالرمزية التي نراها في الشعر الجاهلي ، هي التي تجسد الهواجس والنوازع النفسية وتعرضها كما تتولد في نفس الشاعر بصور طبيعية من ترتيب المنطق دونما تعقيد او إغراب . يقول الدكتور علي الجندي : « واما الرمزية بالمفهوم العربي فقد نبعت اول ما نبعت من الادب الجاهلي واستعارت الوانها من طبيعة العقلية العربية الاصيلة ، ومن مظاهر الحياة

الجاهلية الخالصة . ونحن نعلم ان الرمزية العربية تعتمد على هذين الركنين : الايجاز وغير المباشرة »[١]

إن رمزية الشعر الجاهلي ـ اذن ـ رمزية من نوع خاص تختلف عن الرمزية الغربية ، التي تغوص فيما وراء الحس وتحاول التعبير عما لا يمكن التعبير عنه تحت ستار من الاداء الغامض الذي يتيح فرص الشطط في التعامل والفهم والتفسير .

اننا لا ننكر ولا يستطيع غيرنا ان ينكر رمزية الشعر الجاهلي ، ذلك ان اللغة العربية في حقيقتها مجازية وان الشعر الجاهلي زاخر بالاستعارات والكنايات والتشبيهات والوان البديع الاخرى .

ان هذا الاسلوب الادائي العربي الفني الزاخر بالمجازية هو الذي اعطى الشاعر الجاهلي القدرة على نقل هواجسه واحاسيسه وحالاته النفسية والتوترات الحادة التي يعاني منها امام الحياة والموت والرحيل والاستقرار عبر كيانات موضوعية التقطها من واقعه اذ وجدها اكثر استشرافاً واكثر استيعاباً لمعاناته ، فاسقط عليها ما في نفسه ومنحها بعداً رمزياً لتصبح اكثر تاثيراً او اكثر ايحاء واكثر جمالية وفناً .

وليس الرمز في القصيدة الجاهلية محصوراً في المجرى الادائي التفصيلي ، بل هو ممتد الى مقاطع كاملة حتى اننا نستطيع القول ، برمزية الطلل والمرأة والناقة وثور الوحش والفرس وما الى ذلك من موضوعات وظفها الشاعر الجاهلي توظيفاً رمزياً للتعبير عما كان يجول في خاطره وما يشغله من قضايا كانت تواجهه وقد يعجز عن حلها .

ونحن نذهب هذا المذهب في تفسير موضوعات القصيدة الجاهلية لإيماننا بان الشاعر الجاهلي لم يقصد ذوات الاشياء التي كان يتحدث عنها ويصفها وانما كان يريد ما يخفي وراءها من معانٍ ورؤى وأفكار .

وسنحاول من خلال استعراضنا لتلك الموضوعات التي تؤلف جسد القصيدة ، الكشف عن معانيها ودلالاتها وايحاءاتها التي تقودنا الى القناعة التامة برمزيتها ، ذلك من خلال اضاءتها للتجربة او الوحدة الفكرية والفنية في النص ، على إننا لا نستطيع تعميم الظاهرة كما اننا لا ننكر المدلولات الواقعية والموضوعية الخالصة لتلك الموضوعات في كثير من النماذج .

رمزية الطلل

أما الاطلال : فهي حجارة صماء ونؤي وأثافي سفع وأوتاد لا تعني شيئاً بذاتها ولكنها تعني كل شيء بالنسبة للشاعر الجاهلي ، تعني وجوده وتعني ذاته وتعني ماضيه وملاعب صباه وتعني وطنه .[٣]

ان اللحظة الطللية هي النقطة التي تلتقي فيها ثلاث من علائق الانسان : علاقة الانسان بالمجتمع في لحظته السكونية وعلاقة الانسان بالمجتمع في لحظته التاريخية (بالماضي) وعلاقة الانسان بالطبيعة التي تشترط وجوده كله .[٤]

ان وقوف الشاعر الجاهلي على الاطلال لم يكن محض تعلق بتلك النؤي والاوتاد والاثافي قدر ما هو تعبير عن توترات كانت تقوم في نفسه بين الماضي والحاضر بين التآلف الجمعي والتفرق بين الاستقرار او الرحيل بين المكان واللامكان بين الوجود الانساني واللاوجود .[٥]

وعلى هذا فالاطلال ليست وحدة اعتباطية ، وهي ليست محض تقليد فني فرضته التقاليد التراثية ، فهي وان كانت ـ قبل امرىء القيس ـ استجابة موضوعية لمعاناة بيئية خاضها الشعراء وافردوا لها قصائد ذات موضوع واحد لم يصل الينا اكثرها ، الا أنها اصبحت ـ فيما بعد ـ صيغة مفرغة من مدلولها الموضوعي على الرغم من قدرتها على استقبال الزخم النفسي الذي تتطلبه التجربة الآنية التي ... ضمنها المحور الموضوعي من القصيدة نفسها .[٦]

انها اكثر من رمز شعري ، انها الرموز المتجددة في ذهن الشاعر والتي تعبر عن ارتباطات شتى ومكونات عديدة وتصورات مختلفة ذهنية وعقلية ونفسية واجتماعية ترتد جميعها الى عالم الذكريات ، وهي باختصار رمز اضمر كل ما تنطوي عليه الاغراض وتتجه اليه المقاصد .[٧]

اما نقادنا القدامى فلم ينظروا الى الاطلال هذه النظرة ، ولم يقدموا لنا تعليلاً كافياً ومقنعاً عن مدلول الاطلال في مقدمة القصيدة الجاهلية سوى ذلك التفسير الموضوعي المفرغ من محتواه ودلالته النفسية والفنية .

ونحن هنا لا نريد استعراض آراء النقاد القدامى والمحدثين ، فهم مجمعون على أن الاطلال صيغة من صيغ التعبير التي اعتمدها الشعراء الجاهليون ليعبروا من خلالها عما تكنه نفوسهم وتجيش به عواطفهم ومشاعرهم ازاء الاحداث التي كانت تواجههم ، وهي لم تكن باي حال من الاحوال مقصودة لذاتها ·· سيما في المرحلة المتاخرة او في الاقل عند الشعراء الفحول الذين اكتملت عندهم القصيدة ونضجت .

إن الذي يبعث الشاعر الجاهلي على القول هو المحور المركزي للقصيدة الذي اصطلحنا على تسميته بالغرض الرئيس او التجربة الموضوعية ، على ان الشاعر الجاهلي قد يقع تحت سطوة التقليد الشعري الذي تقتضيه ان يفتتح قصيدته بموضوعات لا تنتمي في ظاهرها الى غرض القصيدة كالطلل والظعن ... فهو في هذا النمط من القصيدة المتعددة الموضوعات ينطلق الى الموضوعات التقليدية من مناخ التجربة الرئيسة (الغرض) لانه لا يستطيع ان ينتزع نفسه من أجوائها وهو يتحدث عن الطلل او الحبيبة الراحلة او الناقة ... ولكن ذلك

لا يعني ان الامر اقتصر على هذا وانما نشات حالة فنية جديدة ، وهي ان الفحول من الشعراء عمدوا الى هذه المقاطع التقليدية فشكلوا تفاصيلها تشكيلاً يهيء منها منافذ ينسحب المتلقي من خلالها الى الموضوع الشعري الذي سيواجهه في القصيدة ، وهنا تكمن دلالتها (الاطلال) الرمزية حيث تكون العلاقة بين الطلل وموضوع القصيدة علاقة الدال بالمدلول .

يقول الدكتور محمود الجادر (لقد آن لنا ان نتحرر من ابلة النظرية الموضوعية ونمط فهمها لنرسوم التقليدية فليس من المعقول ان يكون كل شاعر صاحب طلل لا يمل من الوقوف عليه وبكائه في كل قصيدة من قصائده أو اكثرها)[٨]

ان استقراءنا لعشرات القصائد المكتملة التي يفتتحها اصحابها بالطلل يقرر حقيقة كونه منفذاً رمزياً مهيئاً لتوفير المناخ النفسي الملائم للتجربة الشعرية من خلال انفتاح تفاصيله على المحور الموضوعي (الفرق الرئيس) ، وذلك من خلال رموزه من وشم واثافي ورماد ونؤي ومطر ونبات .

وانطلاقاً من هذا الفهم للوحدة الطللية نستطيع القول إن الاطلال وغيرها من الكيانات الموضوعية التي يبثها الشاعر في افتتاحياته اشبه بالارضية الخام التي لا تشكل باعث تأثير بذاتها قدر ما تستمد قوتها التاثيرية من مدلولاتها الرمزية التي تهيء للغرض الرئيس وترتبط معه .

ومن اكثر النماذج وضوحاً وتاكيداً لما ذهبنا اليه طللية امرىء القيس في معلقته المشهورة حيث لم يكن بكاؤه على طلل حبيبة راحلة وانما كان بكاء على طلل مملكة كندة المنهارة وذكرى الحبيب انما هي ذكرى ملك ابيه وعزته وسيادته ، وهو الحبيب المستقر في وجدانه ، انه لم يبك منزلاً واحداً وانما بكى منازل كثيرة . انه يبكي على مملكته ويدعو قبيلتي كندة وحمير لتبكيا معه كي يكون الدمع حافز الثأر وذلك ما تحقق على الصعيد التاريخي)[٩]

إن هذا التفسير ـ كما نرى ـ لم يكن بعيداً عن الصواب ولم يكن ضرباً من الخيال ، فامرؤ القيس أنشأ معلقته بعد مقتل أبيه وتفرق كندة وذهاب سلطانها ، فهو يتذكر اباً واهلاً مزقتهم سيوف الاعداء كما يتذكر منازل كانت وملكاً ونعيماً ، فلم يجد افضل من الطلل منفذاً رمزياً يطل من خلاله على ماضيه وأمسه وجسراً يعبر عليه ليصل الى موضوعه الرئيس الذي يدور حول قضية مأساته وهمومه ومحاولته الاخذ بالثار واعادة مجد كندة .

واما طلل زهير بن أبي سلمى ، فيبدو اكثر التصاقاً بالتجربة الموضوعية ، فالحرب التي دامت اربعين عاماً هي التي احدثت هذا التغيير الذي طرأ على الديار ، فالدمن لم تتكلم والاثافي سود ، ووجه الارض مغبر يخيم عليها سكون كان ذلك نتيجة للحرب وما تلحقه من دمار ياتي على الحرث والنسل ...

يقف زهير على تلك الديار وهو الخبير بها فلم يكد يتبين معالم وجهها إلا بعد لاي ، ولما عرفها حياها تحية السلام وماذا بعد السلام غير انبعاث الحياة من جديد .

بها العين والارام يمشين خلفةً واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

صور رائعة لانبعاث الحياة وتجددها ، صورة حركة الحياة وديمومتها ، يقيم زهير ـ من خلال الوحدة الطللية ـ علاقة تضاد بين سكون الحياة وخرابها وبين انبعاث الحياة وتجددها ، وهو بهذا يرمز الى الحرب والسلام ، الى حياة القبائل في ظل الحرب وحالتها في أفياء السلام ، يقيم هذه الموازنة لينفذ من خلالها الى معالجة المحور الموضوعي الرئيس الذي قامت عليه القصيدة كلها .

يقول الدكتور محمود الجادر : لقد ذهب زهير مذهباً مختلفاً تماماً في تشكيل تفاصيل لوحته فها هي ام أوفى ترحل ، وها هي ديارها تحتضن رموز الحياة الثرة فتنبعث بها العين والارام مطمئنة ، واطلاؤها ينهضن من المجاثم ليرمز الى تجدد الحياة وانبعاثها في أفياء السلام التي حققها جهد السيدين العظيمين)[١٠]

ونرحل بجهدنا الى لبيد بن ربيعة والى معلقته التي اعجب بها النقاد قدامى ومحدثون ، اعجبوا بها من حيث بناؤها وترابط اجزائها ووحدتها الفنية او المعنوية كمايسميها الدكتور طه حسين ، فانك تحس منذ مطلعها الطللي ان الشاعر يريد ان يعبر عن هذا الصراع الحاد بين الذات والمجموع بين الفردية والانتماء القبلي ، بين الماضي والحاضر ، فآثار الخطوب وأحداث الجو تاتي على البلاد فتغيرها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تابد غولها فـرجامهـا
فمدافع الريان عـري رسمها خلقا كما ضمن الوحيَ سلامها
بمن تجرم بعد عهد انيسها حجج خلون حلالها وحرامها

ولكن هذه الاحداث وتلك الخطوب قد تغير الوجه الخارجي للارض بيد أنها لا تقتلع الجذور ولن تاتي على الاصـول ، فسرعان ما تعود الحياة فتحتضن العين اطلاءها وتجلو السيول وجه الطلول فتصبح وكانها زبر تجدد متونها أقلامها .

والعين ساكنة على اطـلائها عوذاً تاجل بالفضاء بهامها
وجلا السيول عن الطلول كانها زبـر تجد متـونها أقـلامهـا

ويبقى السؤال قائماً عن مدى علاقة الوحدة الطللية بالموضوع الرئيس الذي تدور حوله القصيدة كلها ، والجواب سهل ، فابو عقيل يريد أن يحدثنا عن انتمائه القبلي من غير أن ينسى ذاته ، فهو الشجاع وهو الذائد عن حمى العشيرة وعشيرته هي القوية المتماسكة التي لا تخضع ولا تلين امام

ضربات الاعداء وامام الاحداث والخطوب ، فها هي تظل شامخة تتحدى الاحداث وتتحدى الاعداء . وكذلك حال طلله تتحداه عوامل الفناء البيئية ويكر عليه الزمان ولكن العوامل كلها لا تستطيع أن تطمس معالمه او تمحوه ، فيظل شامخاً يحمل في طياته رموز الخلود .

فطلل لبيد أذن هو رمز لعشيرته ، رمز لماضيها وحاضرها ، رمز تآلفها ووحدتها ومواقفها اما الاعداء حيث يقول في البيت الأخير :

وهم العشيرة إن يبطّي حاسد أو أن يلوم مع العدى لوامها[11]

وثمة نموذج آخر لعبيد بن الابرص ، حيث يبدو انشداد اللوحة الطللية الى الغرض الرئيس اكثر وضوحاً ، فعبيد يحدثنا عن انتمائه القبلي وتعلقه بقومه من بني اسد بعد ان تشتتوا لما واجهوا نقمة كندة وحمير ، فيعمد الى الطلل ليضمر فيه كل ما تنطوي عليه تجربته الموضوعية ، فالديار بعد أن كانت عامرة بقومه وهم فيها جمع اصبحت بسابس قفراء خالية الا من الوحوش ، فالمنزل عاف والاطلال رسوم توشك على الاندثار والفناء يقول :[12]

أمن منزل عاف ومن رسم اطلال بكيت وهل يبكي من الشوق أمثالي
ديارهم اذ هم جميع فاصبحت بسابس الا الوحش في البلد الخالي

فمنزل عبيد ـ اذن ـ عاف ولم يبق من الاطلال الا رسومها كما لم يبق من قومه الا اثارهم .

اليس من حقنا بعد ذلك ان نمنح الطلل فرصة تهيئة الأجواء الرئيسة لموضوع اية قصيدة قبل ان يتجاوز لوحة افتتاحها الطللي إنه بلا شك ـ عندنا ـ أن وظيفة الطلل هذه وظيفة ادائية رمزية أفرغت اللوحة الطللية من مدلولها الموضوعي وذلك ما يطرد في عشرات القصائد المكتملة التي افتتحت بالطلل .

المدلول الرمزي للمرأة

إختلفت وجهات النظر الى المرأة في القصيدة الجاهليه ، فمنهم من نظر اليها نظرة موضوعية ، فتحدث عنها باعتبارها أماً أو اختاً أو زوجة ، وعد الاسماء التي تاتي في افتتاحيات القصائد او اثنائها اسماء لنساء حقيقيات زوجات او معشوقات وقالوا انها اسماء باعيانها ، ومنهم من قال بأنها اسماء وهمية وهي رموز ، وليست حقيقية ، عمد اليها الشعراء ليعبروا من خلالها عما في نفوسهم من احداث وقضايا .

يقول الدكتور محمود الجادر « ولكننا قد نستطيع ان نميز منهجين رئيسين في النظر ، يتمثل اولهما في محاولة رصد الظاهرة ومنحها مدلولاتها الواقعية والموضوعية الخالصة ، ويتمثل الثاني في الجنوح الى تشخيص مدلولات رمزية او ميثولوجية في تعامل الشاعر الجاهلي مع صورة المرأة في مراحل تنامي الحدث الفني المختلفة »[13]

ونحن هنا لا نريد ان ننفي هذا ولا ذاك ولا نريد ان ننكر ما قد توحي به وظيفة صورة المرأة في مقدمة القصيدة الجاهلية من اثر الارث الحضاري او الاجتماعي او اثر الواقع الذي كانت المرأة تحتل فيه مكانتها المعروفة ، لا نريد ان ننكر ذلك كله ، ولكننا نحاول ان نقرر ان حضورها الدائم في المستلزمات التقليدية للنموذج الشعري قد لا يتجاوز المنفذ الرمزي الذي حدده النمط المتداول ولا يهمنا بعد ذلك ان تكون المرأة حقيقة امر رمزاً ، على ان هذا الفهم لا يمنع من القول بان بعض الحالات قد تنبثق من معاناة حقيقية .

فمن بعيد قال ابن قتيبة بان مقصد القصيد إنما أتى بالنسيب في مقدمة القصيدة لان النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ياتي به ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه وليستدعي به اصغاء الاسماع ...[14]

وتابعه ابن رشيق وزاد عليه بأن قال بان اكثر تلك الأسماء ليست حقيقية « وللشعراء اسماء تخف على السنتهم وتحلو في افواههم فهم كثيراً ما ياتون بها زوراً نحو .. ليلى ، وهند وسلمى ... وربما أتى الشعراء بالاسماء الكثيرة في القصيدة اقامة للوزن وتحلية للنسيب »[15]

وهم يرون ان عمر بن الخطاب استدعى احد الشعراء لتغزله بليلى في احدى قصائده فيؤتى بالشاعر ويكاد يقيم عليه الحد ، ولكن الشاعر يقسم للخليفة بأن « ليلى » هذه التي يتغزل بها ؛ انما هي قوسه ، فيطلق سراحه ويعفو عنه .[16]

ويذهب الدكتور البهبيتي الى ان الافتتاحية الغزلية صورة رمزية ويقول « وهذا الوجه من وجوه التعبير الرمزي في الشعر الجاهلي لم يقف عند القصة ولكنها تعداها الى ذلك الغزل الذي يقدم به الشاعر لقصيدته ، فهو كذلك لا يقصد به الشاعر الى موضوعه وانما يقصد به الى غير ذلك مما يهم الشاعر امره وياخذ عليه نفسه ، ومن هنا ياخذ ذلك الاستفتاح الغزلي للقصيدة الجو الذي يعيش فيه الشاعر والذي يملي عليه شعره ، فالمرأة في ذلك رمز واسماء النساء تقليدية تجري في الشعر عند الشعراء دون وقوع على صاحباتها»[17]

ونحن بعد ذلك نقول إن النسيب الذي في افتتاحية القصيدة لا يعدو أن يكون منفذاً يهيء الشاعرية الأرضية النفسية التي تنفتح على آفاق القول ليصل الى معالجة الموضوع الرئيس من مدح او ذم او رثاء او فخر ... وعلى هذا يكون النسيب ممزوجاً بما بعده ، متصلاً غير منفصل عنه ، يمهد الى الغرض ويقود اليه .

وربما غالى الدكتور البهبيتي اذ عدّ قصص الحب والغرام التي نجدها في أخبار العصر الجاهلي من باب الرمز ، مثل قصة البراق وقصة المرقش الاكبر وقصص غرام أمرىء القيس ولهوه

وقصة غرام عنترة ، وهذه ـ على ما يرى ـ كلها لا يقصد بها الى التصوير الغرامي واحداث وقعت لهؤلاء وانما هي لون من الوان التصوير الرمزي لوقائع تاريخية تتصل بحياة كل منهم وتبين مواقعهم من تاريخ امتهم وتتعلق بمطامع لهم كانوا يجرون وراء تحقيقها فخابوا فيها وأصابوا »[18].

ونحن لا نوافق الدكتور البهيتي ، مع اننا نعترف بان تلك القصص الغرامية هي من صنع الخيال وقد لا ترتبط بالواقع ولكن ليس بالضرورة ان تكون تعبيراً رمزياً لوقائع تاريخية تتصل بحياتهم او تتعلق بمطامع لهم كانوا يجرون وراء تحقيقها ، وإن كانت كذلك ، فلا يمكن تعميم الظاهرة وسحبها على جميع قصص الحب والغرام ، فهي ـ في الغالب ـ تعبير عن عواطف انسانية سواء اكانت حقيقية ام خيالية .

في حين يرى الدكتور ابراهيم عبد الرحمن ان كثيراً من القصائد الجاهلية التي يرد فيها ذكر المرأة يحاول الشعراء ان يخلقوا منها أمرأة « مثالاً » ويضيفون اليها القداسة وكأن الشاعر حين يتحدث لا يتحدث عن أمرأة مثل غيرها من النساء ولكنه يتحدث عن معبودة ، فيرمزون للشمس بالمرأة تلك الإلاهة التي كان يتعبد لها اكثر الجاهليين كما كانوا يرمزون للشمس بالغزالة والمهاة حيث يرد في الديانة السومرية في العراق على نحو ما تقص (ملحمة كلكامش) وصف عشتروت الاهة الخصب والحب والجمال[19] .

ويدعم الدكتور ابراهيم رأيه هذا بنماذج نذكر منها على سبيل المثال قول قيس بن الخطيم :

لعمرة اذ قبه معجب   فاني بعمرة أنى بها
ليال لنا ودها منصب   اذ الشول لطت باذنابها
كان القرنفل والزنجبيل   وزاكي العبير بجلبابها
نمتها اليهود الى قبة   دوين السماء بمحرابها

فالشاعر في هذه القصيدة لا يكتفي بالربط بين مقامها وبين خصب الديار أو بين رحيلها وما أصابها من المحل والجفاف ، بل يمنحها هذه القداسة او تلك القوة الإلهية التي يضفيها عليها بقوله :

نمتها اليهود الى قبة   دوين السماء بمحرابها

وعلى هذا النحو نجد امرىء القيس يخلق من حبيبته المرأة المثال ويُضفي عليها القداسة ، فيقول :

تضيء الظلام في العشاء كأنها   منارة ممسي راهب متبتل
الى مثلها يرنو الحليم صبابة   إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

وثمة نماذج أخرى كثيرة كفيلة بان تقرر رمزية المرأة في اغلب موضوعات القصيدة الجاهلية ، فمن الرمزية الموضوعية ، قول عمرو ابن بن قمية في شعره مع امرىء القيس في رحلته الى قيصر الروم حيث يقول :

قد سالتني بنت عمرو عن الـ   أرضين اذ تنكر اعلامها
لما رأت ساتيد ما استعبرت   لله در اليوم من لامها
تذكرت ارضاً بها اهلها   اخوالها فيها واعمامها

قال سبب بكائها انها لما فارقت بلاد قومها ووقعت بلاد الروم ندمت على ذلك وانما عمرو بن قمية بهذه الابيات نفسه لا أبنته فكنى عن نفسه[20] ويؤكد ذلك قول امرىء القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما   نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

ومن النماذج الرمزية ، قصيدة المثقب العبدي التي تتصل فيها لوحة النسيب بالغرض الرئيس اتصالاً وثيقاً ، مما يرسخ لدينا القناعة انه انما أتى بالنسيب في مقدمة قصيدته ليمهد لغرضه الرئيس ويقود اليه ، لذا نراه يعمد الى تطويع تفاصيل لوحة المرأة لاستيعاب آثار المعاناة الموضوعية من خلال اسلوبه التصويري الذي يعلو على التعبير المباشر ليدخل في باب الرمزية .

فالقصيدة يخاطب فيها الشاعر عمرو بن هند وقد أعرض عنه فيخيره بين المودة عن مسلكه والمحافظة على الصلة والود او الايذان بالقطيعة ، فيبدأ قصيدته بقوله :

أفاطم قبل بينك متعيني   ومنعك ما سالت كان تبيني
فلا تعدي مواعد كاذبات   تمر بها رياح الصيف دوني
فاني لو تخالفني شمالي   خلافك ما وصلت بها يميني
اذن لقطعتها ولقلت بيني   كذلك اجتوي من يجتويني

تقرأ هذه المقدمة فتحس لاول وهلة بان الشاعر يعبر عن معاناة حب ويشكو غراماً وصبابة ، وربما هجراً ولكنك حين تنتهي الى المحور الموضوعي المتمثل بقوله :

الى عمرو ومن عمرو اتتني   اخي النجدات والحلم الرصين
فاما أن تكون اخي بحق   فاعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطرحني واتخذني   عدواً اتقيك وتتقيني

حين تقرأ هذه الابيات لا تشك في أن فاطمة هي رمز لعمرو بن هند وذلك من خلال المفردات التي اودعها الشاعر لوحة النسيب التي أضمر فيها كل ما ينطوي عليه غرض القصيدة الرئيس الذي يتمحور حول الوفاء[21].

وعلى هذا النحو من الرمزية الموضوعية قصيدة المرقش الاصغر التي قالها في الوفاء وللوفاء ايضاً فهم يروون ان صديقاً له اسمه (عمرو بن جناب) قد سولت له نفسه الاتصال بحبيبة صديقه فاطم ولكنه ندم على فعلته وبلغ من وفائه ان قطع اصبعه خشية لوم المرقش له .

من اجل هذا نرى الشاعر يفتتح قصيدته بالدعاء لفاطم ، ذلك الدعاء الذي ينم عن الوفاء وتجديد العهد ويكشف عن عمق الصلة بينهما ، فيقول :

ألا يا اسلمي لا صُرْم لي اليوم فاطما	ولا ابداً ما دام وصلك دائماً
رمتك ابنة البكري عن فرع ضالة	وهن بنا خوص يخلن نعائما

ومن خلال هذه المقدمة التي اودع فيها كل تفاصيل التجربة الموضوعية ينفذ الى غرضه الرئيس حيث يقول :

وإلى جناب حلفة فاطمته	ننفسك واللوم ان كنت لائما
كان عليه تاج ال محرق	بان ضر مولاه واصبح سالما
فمن يلق خيراً يحمد الناس امره	ومن يغو لا يعدم على الغي لائما
الم تر أن المرء يجذم كفه	ويجشم من لوم الصديق المجاشما
أمن حلم اصبحت تنكث واجما	وقد تعتري الاحلام من كان نائما

ولاشك ان الصلة بين النسيب الذي في الافتتاحية وبين الموضوع الرئيس متينة وأن الشاعر استطاع ان يربط بينهما ربطاً محكماً ، كان ذلك من خلال الاداء الرمزي والدلالة المعنوية ونمو المعاني بعضها من بعض .(٢٢)

ومن ذلك ايضاً « أسماء » التي في افتتاحية معلقة الحارث بن حلزة اليشكري التي يقول فيها :

آذنتنا ببينها اسماء	ربُّ ثاو يمل منه الثواء

ومنها :

وبعينيك أوقدت هند النار	أصيلاً تلوى بها العلياء

يقول الدكتور البهبيتي : «فظاهر الشعر ان الحارث ينسب بأسماء وبهند وحقيقة الامر ليست كذلك وانما « أسماء » هذه شخصية خيالية تذكر ايضاً في قصة حب المرقش الاكبر الذي خرج على ملوك المناذرة وثار على قومه من بكر ممن أخذ صف اولئك الملوك ، وهند لقب جرى على بنات ملوك المناذرة وهذه النار التي يتحدث عنها الشاعر هي نار اوقدت في وقعة خزازى .(٢٣)

والراجح ايضاً ان هريرة في لوحة نسيب الاعشى هي رمز وليست حقيقة وقد قيل : ان الاعشى سئل عن هريرة ، فقال : لا أعرفها ولكنه اسم القي علي لساني من حيث لا أدري .(٢٤)

وعلى هذا فكل الأوصاف التي وصف بها هريرة والتي اودعها لوحه الافتتاح لا تدخل في بيت النسيب الخالص وإنما هو لون من الوان التعبير الرمزي الذي اقل ما يقال فيه أنه تعبير عن التجربة الموضوعية التي تتارجح بين الذات والمجموع .

ومن الامثلة الاخرى على رمزية المرأة في لوحة الافتتاح قصيدة أوس ابن حجر التي يفتتحها بذكرى ام عمر ، فيقول :

صحا قلبه عن سكره فتاملا	وكان بذكرى ام عمر موكلا

ونحن لو وقفنا على محور القصيدة الموضوعي لاستطعنا ان نكتشف الدلالة الرمزية لام عمر ومدى نجاح الشاعر في توظيفها لخدمة غرضه الرئيس الذي يدور حول الصراع بين الذات وبين ابناء عمومته الذين ظلموه فهو امام اختيارين لا ثالث لهما . اما قبول ظلم ابناء العم واما الاعتماد على الذات في التحول عن مواقف الذل ويبدو انه اختار التهديد بالطريق الثانية .(٢٥)

وهكذا كان على ام عمرو ان تغدو رمزاً لأبناء العم الذين ظلموه وتخلوا عنه ، فلم لا يصحو قلبه عنها ولم لا يهجرها كما هجرته ، وهذا ما تكشفه الابيات الاخيرة التي يقول فيها :

الا اعتب ابن العم ان كان ظالما	واغفر عنه الجهل ان كان اجهلا
وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني	يجدني ابن عم مخلط الامر مزيلا
اقيم بدار الحزم ما دام حزمها	واحرى اذا حالت بان أتحولا
واستبدل الامر القوي بغيره	اذا عقد مافون الرجال تحللا

وعلى هذا النحو تكون حبيبة المتلمس رمزاً أو معادلاً موضوعياً للعراق البلد الذي أحبه فكان هواه ، ولكن الاعداء من المناذرة قد حالوا بينهما ، فلم يبق امامه إلا هذا الحنين وهذا الشوق .(٢٦) حيث يقول :

إن الحبيبة حبها لم ينفد	والياس يسلي لو سلوت أخادد
قد طال ما احببتها ووددتها	لو كان يغني عنك طول تودد

ومن هي ؟ انها العراق :

ان العراق وأهله كانوا الهوى	فاذا نأى بي حبهم فليبعد

أما صورة اللائمة في شعر الفرسان والأجواد ، فهي لا شك منفذ رمزي وليست حقيقة باي حال من الاحوال ، وهي لا تعدو ان تكون صيغة من صيغ التعبير غير المباشر عن قيم البطولة والكرم التي أمن بها الانسان العربي وأراد لها الانتشار والخلود ولهذا عمد الشعراء الفرسان والأجواد الى صورة اللائمة ليمرروا من خلالها كل الافكار التي من شانها أن تقنع المقابل بضرورة تلك القيم وبضرورة الالتزام بها .

واللائمة ـ عادة ـ تمثل الصوت النقيض ، وربما ينبع من نفس الشاعر فهو لا يجد سبيلاً للبوح عما في نفسه فيعمد الى اسقاطها على رمز العاذلة ويحاول الرد عليها من موقع القيم العربية الموروثة ، وتسمع حاتم الطائي يحاور لائمته ويرد

عليها ، فيقول :(٢٧)

مهلاً نوار أقلي اللوم والعذلا	ولا تقولي لشيء فات ما فعلا
ولا تقولي لمال كنت مهلكه	مهلاً وان كنت اعطي الجن والخبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة	ان الجواد يرى في ماله سبلا
لا تعذليني على مال وصلت به	رحماً وخير سبيل المال ما وصلا

وهذا عنترة يقول :(٢٨)

لتسألن اسماء وهي حفية	نصحاءها أطردت أم لم أطرد
يا اسم أخت بني فزارة انني	غاز وان المرء غير مخلد
وانا ابن حرب لا زال اشبها	سعر واوقدها اذا لم توقد

ويبقى التراث الشعري معيناً تقرر نماذجه الكثيرة أن صورة المرأة « اللائمة » في لوحة المحاورة تبقى رمزاً يحقق حضوره الفني الصرف ليفتح المنفذ المقبول للفخر الشخصي بوجه رئيس .(٢٩)

المدلول الرمزي للناقة

الناقة رمز للقوة ، والصبر والاناة أو كما يقول الدكتور مصطفى ناصف : إنها رمز معقد على الانسان الفاني والدهر الباقي معاً ، كما إنها في الوقت نفسه رمز على الانسان القوي الذي يتعرض لنوازل الغيب .(٣٠)

ومن الناحية الفنية ، هي جسر الشاعر الذي يعبر من خلاله الى الضفة الجدية في الحياة ليشرح معاناته ويحقق أغراضه ، فهو حينما يشبهها بثور الوحش وهو يخوض معركة مع كلاب الصيد ينتصر فيها الثور إنما يعبر عن ذاته وعن معترك صراعه الدائر مع الحياة .

ولعلك تتفق معي بان حديث الشاعر الجاهلي عن تلك الحيوانات بما فيها الناقة وثور الوحش وحمار الوحش واتنه وكلاب الصيد والقطاة ... وما يدور بينها من صراعات يلتقطها الشاعر من واقعه ومشاهداته ليعبر عن مضامين نفسية وقضايا موضوعية وأحداث تواجهه يحاول أن يخلق منها صوراً فنية جديرة بالتامل والكشف عما وراءها من دلالات فنية ونفسية وموضوعية .

ومن الرمزية الموضوعية ناقة كعب بن زهير التي لا نراها إلا رمزاً للمرأة التي يطمح أن تكون سكناً لنفسه ، فهو حين افتقد الاستقرار النفسي والأسري وافتقد الاطمئنان الى صدر يشعره برجولته عمد الى ناقته فجعلها سكن نفسه ورفيق حياته ، فكان حقها عليه أن يصونها كما يصون الرجل زوجته فيحميها ، بل انه ليستكثر على عينيه ان تناما فتغفلا حراسة ناقته في صحراء موحشة ، فيقول :(٣١)

أنخت قلوصي واكتلات بعينها	وآمرت نفسي أي أمري أفعل
أكلؤها خوف الحوادث إنها	تريب على الانسان ام اتوكل

أو كما يقول :(٣٢)

وتدير للخرق البعيد نياطه	بعد الكلال وبعد نوم الساري
عيناً كمرآة الصناع تديرها	بأنامل الكفين كل مدار
بجمال محجرها وتعلم ما الذي	تُبدي لنظرة زوجها وتواري

ولا تعدو ناقة المثقب العبدي ان تكون ذاته ونفسه الحزينة التي أتعبها الحل والترحال ، فتأوهت آهة الرجل الحزين ، اذ يقول :(٣٣)

اذا ما قمت أرحلها بليل	تأوه آهة الرجل الحزين
تقول وقد درأت لها وضيني	أهذا دينه أبداً وديني
أكل الدهر حل وارتحال	اما يبقي علي ولا يقيني

على إن عشرات النماذج الجاهلية تكشف عن أن صورة الناقة ظلت تشكل معادلاً لاداة الصراع الانساني في مواجهة تحديات الحياة ، ولهذا فهي تبقى مهياة لقبول السمات التي يفترضها الشاعر في عدته لخوض قدره المفروض .

الناقة وثور الوحش

وقد تبدو الرمزية الموضوعية اكثر خوفاً حينما يشبه الشاعر الناقة بثور وحش او حمار وحش او نعامة او ظليم ، حيث يمنحها ابعاداً ادائية اكثر قبولاً للتجارب الشعرية المتباينة ، كما تفتح امامه منافذ اضافية اخرى يستطيع من خلالها منح صورة الناقة بعداً ادائياً قابلاً للتباين التاثري وقادراً على الكشف عن عوالم نفسية وموضوعية مختلفة .

وعلى هذا فان تشبيه الناقة بثور الوحش او ما يتبعها من قصص اسطورية تدور حولها انما هي تعبيرات رمزية للمعضلات والصراع داخل مجموعة ما .(٣٤)

ويرى الاستاذ محمد صادق حسن ان الشاعر في الرحلة لا يحدثنا مباشرة عن داخله وانما يقص علينا حكايات من خارجه فيخرج الى وصف ناقته وسياحتها في مشاهد الصحراء فيشبهها بحيوانه من ثور وبقرة ونعامة او يضع ناقته بين مواقف صعبة فيدير معركة بين الثور الوحشي والكلاب والصياد ليترجم من خلالها عن موقف ناقته فيعكس صورته هو .(٣٥)

ويبقى الجاحظ اقدم من تنبه الى رمزية قصة ثور الوحش وعلاقتها بالغرض الرئيس ، فقد قرر ان قصة الثور تنتهي بمقتل الثور اذا كانت القصيدة رثاء وتنتهي بنجاته في سائر الاغراض .(٣٦)

ولعل تشبيه الناقة بالثور وهو يخوض صراعاً دامياً مع كلاب الصيد من اكثر المشاهد تعبيراً عن معاناة الشاعر وهو يخوض معترك الحياة حيث يسقط ما في نفسه على تلك المشاهد فيخلق من خلال الاوصاف التي يطرحها ستاراً فنياً ومركباً نفسياً ليعبر عما يساوره وما يشغله من توترات وتناقضات الموت والحياة ، التفرق واللقاء ، الحاضر والماضي ، الذات والمجموع او الحديث عن المثال الذي يدور في خلده ويطمح الى تحقيقه .

ولعل قصيدة النابغة الذبياني من أمثل نماذج الرمزية الموضوعية في هذا المجال ، ففي ليلة ظلماء شديدة الريح والمطر والبرد ، في تلك الليلة الليلاء المخيفة تزداد مخاوف الثور حينما يسمع صوت الكلاب التي تريد افتراسه وسرعان ما تهجم عليه الكلاب وتحدق به الاخطار وتحيق به من كل جانب ، فيواجه الثور القدر المحتوم حيث يقول :(٣٧)

اسرت عليه من الجوزاء سارية ... تزجي الشمال عليه جامد البرد

فارتاع من صوت كلاب فبات له ... طوع الشواحت من خوف ومن صرد

فبثهن عليه واستمر به ... صمع الكعوب بريات من الحرد

ولكنه لا يستسلم بل يواجه الموقف بكل ثبات وصلابة ، فيقرر خوض المعركة فيخرج منها بعد ان جرحته كلاب الصيد منتصراً :

وكان ضمران من حيث يوزعه ... طعن المعارك عند المحجر النجدْ

شك الفريصة بالمدري فانفذها ... طعن المبيطر اذ يشفي من العضد

كانه خارجاً من جنب صفحته ... سفود شرب نسوه عند مفتاد

فظل يعجم أعلى الروق منقبضاً ... في حالك اللون صدق غير ذي أود

لما رأى واشقٌ اقعاص صاحبه ... وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

لقد كانت ناقته وراء هذه المشاهد التصويرية (لانها المشبه) فقوة ثور الوحش وانتصاره هي قوة الناقة وانتصارها . وما الناقة الا نفس الشاعر او الانسان (المثال) الذي يراه في شخص الممدوح .

لقد عبر الشاعر من خلال قصة الثور وتشبيهه بالناقة في اغلب النماذج عن الصراع الفردي الصرف ، اما قصة حمار الوحش ، فهي تقوم على صراع مماثل من اجل البقاء ولكنها تتميز بمناخها الجماعي المتمثل بمسؤولية الحمار عن مجموعة من الاتن :(٣٨)

في المدلول الرمزي للفرس

وما قلناه عن الناقة يمكن ان نقوله عن الفرس ولا أظن اننا نبتعد عن الصواب إذا قلنا بانه رمز الشباب والقوة والشجاعة والإقدام ، انه رمز للانسان (المثال) او رمز للذات وحلم الانتقام والاخذ بالثأر وأظنك توافقني على ان فرس امرىء القيس هو امرىء القيس نفسه ، والذي حاول ان يسقط نفسه عليه ، فهو قوي متين كان متنه مداك عروس او صراية حنظل ، وأن الغلام الخف لا يستطيع الثبات على ظهره والقوي العنيف يلملم باثوابه ويحذر من السقوط ، سريع وسرعته غير اعتيادية ، سريع في الفر وسريع في الكر ، لا تدركه الوحوش ويستطيع ان يدركها ويلحق بالهاربات منها فيقتلها وتلطخ جبهة فرسه الدماء فتصبح وكانها عصارة حناء بشيب مرجل ...

إنك حين تقرأ هذه الابيات لا تتصور الحديث الا عن امرىء القيس نفسه ، انه امرىء القيس الذي يخوض صراعاً ويسعى من اجل تحقيق النصر ، فلم لا يكون فرسه حلم الانتقام من بني اسد قتلة ابيه ولم لا تكون أوصاف الفرس هي اوصاف امرىء القيس ، كل ذلك يمكن ان تخلقه صورة فرس امرىء القيس في ذهن المتلقي ، بعد التعمق في فهم النص واختراق الجدار الخارجي للابيات للكشف عما تخفيه من معانٍ لا شك أن نفس امرىء القيس كانت من ورائها .

اما نماذج الشعراء الذين عرفوا بوصف الخيل من امثال ابي دؤاد الايادي والطفيل الغنوي والنابغة الجعدي ، فلا تدخل في هذا الاطار ، لانهم اتجهوا الى الوصف الموضوعي للفرس بدوافع خاصة ولاغراض خاصة ، وهي تبقى اقرب الى الدراسة الموضوعية منها الى الرمزية .

وهنالك بعض النماذج التي يمزج فيها الشاعر بين صورة الناقة وصورة الفرس ولاسيما في القصائد التي تحتاج الى اناة وصبر كما تحتاج الى حسم وقوة وتهديد ووعيد ، فيتخذ من الناقة رمزاً للاناة والصبر ويتخذ من الفرس رمزاً للإقدام والحسم .

ويبدو هذا المزج بين الناقة والفرس واضحاً في كافية زهير بن ابي سلمى التي قالها في بني الصيداء الذين انتهبوا ابله وعبده ، فكأنه يقول : إن شئتم الصبر والاناة فدونكم رمزهما بالناقة المشبهة بالنعامة (وقصة النعامة التقليدية مفعمة بمعاني الرقة والانسانية) أما إن ابيتم فإن الامر سيؤول الى مواجهة حاسمة تتمثل في رمز الفرس الذي ينطلق انطلاق قطاة يطاردها صقر ، حيث يقول :(٣٩)

هل تُلحقني واصحابي بهم قُلص ... يُزجي أوائلها التبغيل والرتك

مثل النعام اذا هيجتها اندفعت ... على لواحب بيض بينها الشرك

وقد أراني امام الحي تحملني ... جرداء لافحج فيها ولا صَكك

مرأً كفاتاً اذا ما الماء اسهلها ... حتى اذا ضربت بالسوط تبترك

كانها من قطا الاجباب حان لها ... وِردٌ وأفرد عنها أختها الشرك

إلى ان يقول :

حتى اذا ما هوت كف الغلام لها ... طارت وفي كفه من ريشها بتك

ثم استمرت الى الوادي فالجاها ... منه وقد طمع الاظفار والحنك

وهكذا تنتهي المطاردة بنجاة القطاة ورجوع الصقر الى وكره خائباً ليمارس زهير حلم يقظة طامح الى عودة ابله وعبده اليه سالمين.(١٠)

وثمة موضوعات اخرى يمكن ان تكون لها مدلولات رمزية؛ ولعل المطر اكثرها دوراناً في القصيدة الجاهلية حيث يمكننا ان نعده رمزاً لانبعاث الحياة وتفتحها لقيم الخير والعطاء في أغلب القصائد المكتملة.

وبعد، فالطلل والمرأة والناقة وثور الوحش وحمار الوحش والمطر وغيرها انما هي كيانات تآلفت لترفد مضامين القصيدة العربية قبل الاسلام بالعمق والغنى الفني.

ونحن نستطيع بعد هذه الجولة المستقصية لموضوعات القصيدة الجاهلية ان نقرر الخلاصات النهائية التي تتشكل في جملة قناعات قررتها النصوص المدروسة وبلورها التأمل النقدي فأتاحت لنا فرصة القول بأن القصيدة الجاهلية عمل فني يسترفد مادته من واقع يومي متحرك ولكنه حين يسحب التفاصيل الى عالم الابداع الشعري يقع تحت ضغط البنية الشعرية التي تقتضيه توفير رسوم تقليدية فضلاً عن ضغط الاداء الفني الذي يقتضيه نقل الانفعال في اطار فني.

ولقد فرضت البنية الشعرية على الشاعر ان تهيىء من مقاطعها التقليدية رموزاً مشحونة بدلالاتها المهيئة لطبيعة التجربة الموضوعية فكان عليه ان يحملها زخم الانفعال ويعيد تشكيل تفاصيلها لتبدو صيغتها النهائية اقدر على استيعاب اجواء التجربة وأدائها.

أما في الأداء الداخلي فقد كانت وسائل البيان من مجاز واستعارة وكناية جسوراً يلتقي عليها المبدع والمتلقي في اطار عرف لغوي مشترك تبلور فيها بعد حتى غدا جزءاً - او كالجزء - من صلب اللغة العربية وذلك ما أوقع باحثين معاصرين في الوهم حين ظنوا ان تلك الجسور هي جسور ادائي مباشر لا يحتمل رمزية ولا يوحي بها وتلك جناية النظر الى النص التراثي بعين معاصرة.

إن واقعية القصيدة الجاهلية أمر مفروغ منه في جانبها الموضوعي ولكنها لم تكن سمتها الفنية الا في حدود النظرة المتعجلة.

لقد كانت لها مدلولاتها الرمزية في البنية والاداء كما قلنا ولكن الكشف عن ابعادها الرمزية تلك رهين بمعايشتها والتعامل مع أدائها الاسلوبي من خلال النظر الى لغتها بمقياس تزامني وليس بمقياس تاريخي.

الهوامش:

١ - ينظر مقدمة القصيدة الجاهلية وشعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين وتاريخ الشعر العربي (البهبيتي).
٢ - الشعر الجاهلي (قضاياه الفنية والموضوعية) د. ابراهيم عبد الرحمن ص ١٨٨.
٣ - مقدمة القصيدة الجاهلية/١٧٥ وما بعدها والطبيعة في الشعر الجاهلي/٢٥٤.
٤ - مقالات في الشعر الجاهلي/١٢٣.
٥ - الشعر الجاهلي د. ابراهيم عبد الرحمن/٣٦٦.
٦ - مدخل الى بنية القصيدة العربية قبل الاسلام/بحث/٧.
٧ - خصوبة القصيدة الجاهلية/ ٢١٣، ٥٧٩.
٨ - مدخل الى بنية القصيدة العربية قبل الاسلام/٦.
٩ - خصوبة القصيدة الجاهلية/١٥٠ ومدخل الى بنية القصيدة/٨.
١٠ - مدخل الى بنية القصيدة/٨.
١١ - شرح المعلقات (التبريزي) ٣١٥.
١٢ - ديوانه/١١٢.
١٣ - حول مدلولات رموز المرأة.
١٤ - الشعر والشعراء ١/٧٥.
١٥ - العمدة ٢/١٢١ - ١٢٢.
١٦ - الأغاني: ١٥/١٠٥.
١٧ - تاريخ الشعر العربي/١٠٠.
١٨ - تاريخ الشعر العربي/٩٩.
١٩ - الشعر الجاهلي/٢٥٦ - ٢٦١.
٢٠ - الرمزية في الادب العربي/١٦٨.
٢١ - مدخل الى بنية القصيدة/١١ - ١٣ وخصوبة القصيدة الجاهلية/٥٤٦.
٢٢ - خصوبة القصيدة الجاهلية/٥٤٢.
٢٣ - تاريخ الشعر العربي/١٠١.
٢٤ - هامش شرح المعلقات/(التبريزي) ٤٨٣.
٢٥ - شعر اوس بن حجر/٤٣٧.
٢٦ - الرحلة في القصيدة الجاهلية/١٧٩.
٢٧ - ديوانه/٢٠٠.
٢٨ - ديوانه/٥٥.
٢٩ - مدخل الى بنية القصيدة/٢٠.
٣٠ - قراءة ثانية لشعرنا القديم/٦٥.
٣١ - ديوانه/٥٥ - ٥٦.
٣٢ - المصدر نفسه/٤٠.
٣٣ - المفضليات/٢٩١ - ٢٩٢.
٣٤ - مواقف في الادب والنقد/٨٥.
٣٥ - خصوبة القصيدة الجاهلية/٢٧٢.
٣٦ - الحيوان ٢/٢٤٢.
٣٧ - ديوانه/١٨ - ١٩.
٣٨ - مدخل الى بنية القصيدة/٢٥.
٣٩ - ديوانه/١٦٨.
٤٠ - مدخل الى بنية القصيدة/٣٠.

المصادر والمراجع

١ ـ الاغاني ابو الفرج الاصفهاني ـ دار الثقافة .
٢ ـ تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري د . نجيب محمد البهبيتي ـ دار الفكر ـ طـ٤
٣ ـ حول مدلولات رموز المرأة في مقدمة القصيدة العربية قبل الاسلام د . محمود عبد الله الجادر ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٠ م .
٤ ـ الحيوان الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٣٨ .
٥ ـ خصوبة القصيدة الجاهلية محمد صادق حسن عبد الله ـ دار الفكر العربي ـ د . ت .
٦ ـ ديوان شعر حاتم الطائي واخباره تحقيق : عادل سليمان ـ القاهرة .
٧ ـ ديوان عبيد بن الابرص تحقيق : حسين نصار ـ مصر ١٩٥٧ .
٨ ـ ديوان عنترة تحقيق ودراسة محمد سعيد المولوي ـ المكتب الاسلامي .
٩ ـ ديوان النابغة الذبياني تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف .
١٠ ـ الرحلة في القصيدة الجاهلية وهب رومية . طـ١ ـ ١٩٧٥ .
١١ ـ الرمزية في الادب العربي د . درويش الجندي ـ مصر ١٩٥٨ م .
١٢ ـ شرح ديوان زهير بن ابي سلمى صنعة الامام ابي العباس ثعلب ـ دار الكتب ١٩٤٤ م .
١٣ ـ شرح ديوان كعب بن زهير صنعة السكري . دار الكتب ١٩٥٠ م .
١٤ ـ شرح المعلقات العشر التبريزي . تحقيق محي الدين عبد الحميد ـ طـ١ ١٩٦٤ .
١٥ ـ شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين د . محمود عبد الله الجادر ـ بغداد ١٩٧٩ م .
١٦ ـ الشعر الجاهلي (قضاياه الفنية والموضوعية) د . ابراهيم عبد الرحمن محمد ـ بيروت ١٩٨٠ م .
١٧ ـ الشعر والشعراء . ابن قتيبة ـ تحقيق : احمد محمد شاكر ـ مصر ١٩٦٧ م .
١٨ ـ الطبيعة في الشعر الجاهلي د . نوري القيسي ـ بيروت ١٩٧٠ م .
١٩ ـ العمدة ابن رشيق ـ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ـ مصر ١٩٥٦ م .
٢٠ ـ قراءة ثانية لشعرنا القديم د . مصطفى ناصف ـ دار الاندلس ـ طـ٢ ـ ١٩٨١ م .
٢١ ـ مدخل الى بنية القصيدة العربية قبل الاسلام (بحث) د . محمود عبد الله الجادر .
٢٢ ـ المفضليات تحقيق : احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ طـ٤ .
٢٣ ـ مقالات في الشعر الجاهلي يوسف اليوسف ـ دار الحقائق ١٩٨٣ م .
٢٤ ـ مقدمة القصيدة الجاهلية د . حسين عطوان ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٧٠ م .

• • • •

نظرة في تراث العرب الجغرافي

د. عباس فاضل السعدي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

انبثقت عناية العرب بالجغرافية من واقع بيئتهم، ذلك أن نشاتهم الاولى كانت في محيط حتم عليهم أن يلموا بالمعلومات الجغرافية المختلفة، إذ لم يكن في استطاعتهم اداء الطقوس الدينية، وانجاز معاملات البيع والشراء وتسديد الديون إلا إذا ضبطوا مواعيدها.[1] وما كان لهم أن ينتقلوا بإبلهم وضانهم، وهي أثمن ما يمتلكون، الا اذا عرفوا موارد الماء، ومنابت العشب، ونوع الحيوان السارح في الصحراء. ولم يكن في استطاعتهم أن يقوموا برحلاتهم السلمية والحربية، ولا سيما التجارية منها، في فجاج الصحراء إلا إذا عرفوا الشيء الكثير عن تغيرات الطقس، ومعلومات عن النجوم وتحركات الكواكب، يهتدون بها ويتخذون منها أدلة.[2] لهذا اهتموا بعلم الفلك وتقدموا في ميادينه، مما جعلهم يتمتعون بمعين لا ينضب من التجارب المباشرة في مجال الجغرافية الفلكية. فقد استطاعوا توقيت ساعات الليل، وتحديد منازل القمر بـ(٢٨) منزلاً، والتنبؤ بحالة الطقس، وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة. وهو ما عُرف عند العرب باسم « النوء » ـ جمع أنواء ـ الذي ارتبط بالظواهر الجوية ارتباطاً وثيقاً، والفوا فيه كتباً عديدة، ويرجع احدها الى واحدٍ من أوائل الجغرافيين العرب وهو ابن خرداذبة.[3] (شكل ١)

وخبرة العرب الفلكية والبحرية وبطرق الصحراء ومسالكها مكنتهم من اداء دورهم ـ في فترة ما قبل الاسلام ـ كوسيط في التبادل التجاري بين الهند وافريقيا الشرقية من ناحية، وبلاد دجلة والفرات والامبراطورية الرومانية من ناحية اخرى.[4] فقد عرفوا قبل غيرهم سر الملاحة الموسمية منذ اقدم العصور، وقاموا بنقل التجارة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها (الى سوريا وفلسطين) في رحلتي الشتاء والصيف.

وقد حلّ سكان سواحل الجزيرة العربية محل الفينيقيين في ممارسة النشاط التجاري الذي كان يمارسه الفينيقيون في المنطقة. وفي ذلك يقول الدكتور (فيليب حتي) عنهم وعن أبناء عمومتهم الفينيقيين: « وكان سكانها كأقاربهم القدماء من أبناء الشمال أي الفينيقيين هم الوسطاء أو العملاء في التجارة بين بلاد البحار الجنوبية والعالم فكانوا يقومون بتمثيل (ضباط الارتباط) في ميادين التجارة العالمية ».[5]

وما اكثر ما ادخره الشعر الجاهلي من معلومات عن البيئة الجغرافية لجزيرة العرب، حيث حفظ لنا الكثير من أسماء الاعلام الجغرافية من أودية وجبال وآبار وتلال ومعالم ورسوم. ولم يقتصر الأمر على سكان البادية، فسكان الحضر كأهل مكة ويثرب (المدينة) والطائف تجاوز علمهم البلدان الى ما وراء الجزيرة كالحبشة والشام والعراق. والاعلام الجغرافية التي أوردها الشعراء تمثل مادة لا تقدر بثمن كما يقول (فستنفلد). فقد استقى منهم البكري وياقوت وغيرهما مادة جغرافية في غاية الدقة والاهمية. لذلك لم يكن غريباً ان نجد الجغرافية من بين الفنون التي اهتم بها اللغويون. فقد كان الاصمعي (٢٢٣ هـ / ٨٢٨ م)، وهو من علماء اللغة، من « العارفين بجغرافية بلاد العرب معرفة المدقق الخبير، وظلت هذه الصلة بين الجغرافية واللغة قائمة حتى عصر متاخر، نجدها في معجم البلدان لياقوت الحموي، وهو من كتب الجغرافية، ونجدها في تاج العروس للزبيدي، وهو من معاجم اللغة ».[6]

وفي القرن السابع الميلادي أعتبر القرآن الكريم أقدم وثيقة اسلامية احتوت بعض المعلومات الجغرافية على الرغم من قلتها، كما هي قليلة في الحديث الشريف. وما جرت تسميته « بالتراث الاسطوري في الجغرافية » قليل جداً بينها. وتتأكد في القرآن بشكل خاص أهمية النجوم كهادٍ في ظلمات الليل.

وذكر بعض الباحثين ان القرآن اقتصر على ايراد عشرة أسماء لمواضع جغرافية جميعها داخل حدود جزيرة العرب (مكة، المدينة، بدر، حنين، الصفا، المروة، عرفات، طريقا سيناء، ووادي طوى القريب منها)[9] كما أورد بعض من مساكن الامم البائدة. وخارج حدود الجزيرة العربية ورد ذكر (الارض المقدسة) فلسطين ومصر وبابل.[7] (شكل رقم ٢)

وتتطلب الحج، وهو ركن أساسي من أركان الاسلام، معرفة كاملة بطرق القوافل الى مكة والمدينة، وكان الحجاج المهتمون بتقديم البلدان يجمعون وهم في طريقهم الى الديار المقدسة كثيراً من المعلومات عن الاراضي التي يمرون بها. فضلاً عن تدوين

ما يسمعوه من الحجاج الاخرين عن بلادهم . وخير من يمثل هذا اللون من الادب الجغرافي « رحلة ابن جبير » .

وبالاضافة الى عامل الحج ، لعبت التجارة والرحلة (لطلب العلم أو لاي غرض كان) دوراً بارزاً في ازدياد حركة الاتصال بينهم وبين البلدان المعروفة لهم آنئذٍ . وقد تعاظمت التجارة بعد ظهور الاسلام كثيراً حيث رأينا التجار المسلمين ينهضون الى أطراف الارض ، ينقلون البضائع ويشترون السلع . وقد شملت تجارتهم رقعة الدولة الاسلامية برمتها من الاندلس غرباً الى وادي السند وما وراء النهر شرقاً ، براً وبحراً . مما ساعد على إتساع المعلومات الجغرافية لدى العرب فشجعهم على تدوين اخبار أسفارهم وما شاهدوه في ترحالهم فوصفوا البلدان وحياة سكانها في المناطق التي مروا بها . ومن هنا ظهرت كتب الرحلات المعروفة مثل رحلة المسعودي والمقدسي والادريسي . أما رحالة البحر فاشهرهم سلمان التاجر وابن ماجد وسليمان المهري .

ومن شأن التوسع السياسي وانتشار رقعة الدولة نتيجة الفتوحات التي حملت العرب بعيداً عن حدود جزيرتهم الى مختلف الاقطار ان يحدث تغييراً شاملاً في تصورهم للعالم ، ويؤدي بلا ريب الى اتساع افقهم الجغرافي نتيجة التجربة المباشرة . وقد ساعدت المعلومات الجغرافية تلك الدولة الاسلامية في ادارة شؤونها وضبط خراجها ومعرفة طرقها وتحديد مسالكها وأبعادها وتنظيم تجارتها وبالتالي حفظ حقوق بيت المال وتنظيم طرق البريد ، فظهرت مصنفات لتلك الميادين . ومن بين هذه المصنفات ظهر لما يصح أن يسمى بـ(الجغرافية الادارية والسياسية)[٨] عن الفتوح والمغازي واخبارها . وهي تبدو واضحة في كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة في اواسط القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) ، وفي كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » لابن قدامة .

وقد خضع البريد الى تنظيم جيد في العهد الاموي مما استرعى اعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق ، وقد وجد مثل هذه الرسوم في دواوين الحكومة واستغلها بعض مؤلفي العصر العباسي في وضع مؤلفات في هذا الميدان . أما طرق البريد فقد نصبت جانبها حجارة لتوضيح المسافات وكانت تبدأ من مركز الخلافة . وعثر على بعض هذه الحجارة بفلسطين ، واماكن اخرى ، ترجع الى عهد عبد الملك بن مروان قبل عام ٨٦ هـ (٧٠٥ م)[٩] .

وجهاز البريد وما يتطلبه من شبكة للطرق والمواصلات كان دافعاً لتاليف عدة مصنفات تعالج هذه الناحية ، وهي كتب (المسالك والممالك) . وبين هذه المجموعة مؤلفات جغرافية شهيرة تحمل هذا العنوان : لابن خرداذبة والاصطخري ، وابن حوقل وغيرهم .

ويمثل العصر الذي يمتد الى منتصف القرن الثامن ميلاد بعض الانماط والصور التي بدأت تتشكل فيها بالتالي مصنفات جغرافية قائمة بذاتها وضعها علماء لغويون كانت تدور حول تصورات عرب الجاهلية عن الانواء واهتمامهم بالاماكن . كما ان هؤلاء العلماء مسؤولون عن ادخال نمط « الفضائل » في المؤلفات الجغرافية والتاريخية الذي يكاد يكون أطرف محاولة لصياغة التصورات الجغرافية في قالب أدبي . والى هذا العصر بالذات ترجع أولى اشارات عن ظهور مصورات جغرافية(*) (خرائط) و جغرافية وصفية في المجالين الاداري والاقتصادي لا سيما في الاندلس عام ١٠٠ هـ/ ٧١٩ م ، أي في عهد عمر بن عبد العزيز[١٠] .

ورغم ان العرب وغيرهم من الامم قد عرفوا الشيء الكثير من المعلومات الجغرافية ، الا ان مفهوم كلمة (جغرافيا) لم يتبلور عندهم . ولم تتضح معالمه أو تتحدد أبعادهُ . فهذه الكلمة وكما جاءت على لسان (مارينوس الصوري) ثم على لسان (بطليموس) لم تكن في بداية استعمالها اكثر من رسم خارطة للارض تستند الى خطوط الطول ودوائر العرض توضع عليها المواضع الجغرافية الطبيعية والبشرية . وهي تدخل ضمن اختصاص الرياضيات ، بنظر بطليموس ، لذلك اتجه الى علم الفلك لانجازها .[١١] في حين يرى (سترابو) ان مهمة الجغرافي الاساسية هي في وصف البلدان وطبائعها ومناخها وغلاتها ومسالكها واقتصادياتها ومعتقداتها ، متجهاً بذلك نحو تحقيق المقاصد التي ينطوي عليها « الكوز موغرافيا » ، أي علم وصف الكون .

والجغرافية العربية بدأت بعد ظهور الاسلام تحمل طابعاً فلكياً نتيجة تعرف العرب على العلوم الهندية والفارسية أولاً ، ثم الاغريقية بعد ذلك حيث طغت شخصية بطليموس بمصنفاته الفلكية والجغرافية . ومن هنا ظهر الاتجاه الرياضي في الجغرافية . ومنذ ذلك الوقت سار تطور الجغرافية العربية من غير توقف الى آخر القرون الوسطى .

الجغرافية الرياضية

ان للمنهج الكمي المطبق في الدراسات الجغرافية الحديثة جذور قديمة في التراث الجغرافي العربي . فقد نشات الجغرافية نشأة رياضية ، وكان عدد كبير من الجغرافيين العرب القدامى لهم المام رياضي واسع . فقد طبقه بعضهم بأرقامه ومعادلاته امثال الهمداني وابي الريحان البيروني والمراكشي ، وبعضهم بمنهجه واسلوبه مثل المقدسي وقدامة بن جعفر.[١٢] والجغرافية الرياضية عند العرب وإن تاثرت بالفكر اليوناني الفلكي ، الا ان تاثير هؤلاء لم يكن هو السابق من الناحية الزمنية . فقد تقدمه الهندي . واذا كان التاثير اليوناني أخذت كفته في الرجحان منذ بداية القرن التاسع الا ان المذهبين الاولين

ظلا مع ذلك محتفظين ببعض اهميتهما مدة لا تقل عن القرنين حتى في المناطق البعيدة كالاندلس .

ففي أوائل ظهور الدولة العباسية ، قسم الجغرافيون العرب العالم الى (كشاور) تتكون من دوائر هندسية احداها في الوسط ، وتحيطها الدوائر الست الاخرى ، وظل هذا النظام معمولا به عند الجغرافيين العرب الى أن تحولوا عنه وذلك باقتباسهم التقسيم الذي وضعه محمد بن موسى الخوارزمي (٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) واضع اسس الجغرافية العربية ، ويقوم على أساس الاقاليم السبعة وفق الاحداثيات الجغرافية على شكل مستطيلات متوازية ، وممن أخذ بهذا النظام الفرغاني (٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) والبيروني (٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) وسهراب . ويمثل الخوارزمي ومن سار على منواله مدرسة جغرافية عربية بحتة لا صلة لها بالفرس او الهنود أو اليونانيين .[١٣]

وقد وضع بعض الجغرافيين العرب اسساً جديدة لتقسيمات اقليمية عربية أصيلة لا تقوم على اسس رياضية ، كما فعل الاقدمون ، وانما وفقاً لمشاعرهم القومية كما فعل الهمداني عندما وضع كتابه (صفة جزيرة العرب) وقسمها الى خمسة أقسام متخذاً من ظواهر سطحها اساساً لذلك ، أو وفقاً لحاجة الدولة الادارية مثلما قسم المقدسي الدولة العربية الاسلامية الى (١٤) اقليماً اداريا .[١٤]

أما التأثير الهندي فيتمثل بصورة خاصة بادخال نظام « السندهند »[*] في الفلك العربي على اساس عدد من الرسائل الهندية في عهد المنصور متضمنةً جداول رياضية تنبت على الحسابات الفلكية وقوانين عملها وكيفية استعمالها ، وهي تدور حول تحركات الاجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حفظ لنا الفزاري (١٨٨هـ / ٨٠٣ م) هذا النظام بعد أن أجرى عليه تعديلات واضافات جوهرية ، حيث قام بتحويل حساب التوقيت الهندي الى سنين قمرية كما هي مستعملة لدى العرب . أما اضافاته فقد بدت في الاتساع الملحوظ في المادة المتعلقة باراضي الخلافة . ونشاط « الفزاري » يمثل فاتحة عهد جديد في تطور الفلك والجغرافية الرياضية عند العرب . إذ كان هو و(ما شاءالله) أول من وضعا الاسطرلاب بين العرب .[١٥] وفيما بعد ظهر عدد آخر من أشهر فلكيي العرب مثل المنجم يحيى بن أبي المنصور (٢٣٠ هـ / ٨٤٤م) والفرغاني والمروزي (٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م) وغيرهم .

وبقي نظام « السندهند » سائداً حوالي نصف قرن أي الى عصر المامون حين بدأ يزحمه المذهب اليوناني الا أنه لم يختف مرة واحدة . فاكبر رياضي عصر المأمون وهو (الخوارزمي) قد وضع جداوله الفلكية « السندهند الصغير » اعتماداً على النظام الهندي . واستمر متداولاً الى آخر القرن الحادي عشر الميلادي . وفي أراضي الخلافة الغربية استمر الاهتمام به زمناً أطول . واحدى القواعد الجوهرية لهذا النظام ظلت حد ما مرتبطة بالمصنفات العربية على الدوام وامتد تاثيرها في بعض المجالات الى أيام كولومبس . اعني بذلك مسالة حساب خط الزوال أي خط منتصف النهار الذي كانت منه تقاس الاطوال عند العرب قبل مجيء النظام اليوناني وذلك من عند الارين Arine أو « قبة الارض » الموجودة في مكان ما من الشرق . وهي النقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار حيث تقع على أبعاد متساوية من الغرب والشرق والشمال والجنوب .[١٦]

ونظرية الارين هي المسؤولة عن ظهور الشكل الكمثري للارض عند كولومبس حيث يوجد مركز اخر للارض في نصف الكرة الغربي . وهكذا فإن النظرية الجغرافية العربية قد لعبت دوراً ما في كشف العالم الجديد . ومما يجدر ذكره ان كروية الارض كانت معروفة لدى العرب منذ عهد مبكر وقبل كوبر نيكوس بزمن بعيد . فقد ساق « الفرغاني » بعض البراهين المتداولة في الوقت الحاضر لاثبات استدارة الارض[*] كما يتضح من رواية ابن رستة (بين ٢٩٠و ٣٠٠ هـ / ٩٠٣ و ٩١٣ م) .[١٧] ولم تجد النظريات الفلكية والجغرافية الهندية طريقها الى العرب مباشرةً فحسب بل وصلتهم احياناً في ثوب آخر . مثل دخول مصطلح (الزيج) في الاستعمال العربي للجداول الفلكية ، ولعل زيج الشاه (زيج الملك) كان اكثر مصنفات المذهب الفلكي هذا ، انتشاراً في اللغة العربية . وقد أخذ المذهب اليوناني يضيق الخناق على المذهبين الاخرين في الجغرافية الرياضية العربية منذ بداية القرن التاسع ، واصبح هو السائد منذ منتصف القرن المذكور[١٨]

ومنذ عهدي الرشيد والمأمون نشطت حركة الترجمة في بيت الحكمة ، فانتشرت المؤلفات اليونانية واحتلت مكانة مرموقة بينها مؤلفات بطليموس الذي بدأ به عهد جديد في تاريخ الفلك والجغرافية عند العرب لا سيما مصنفيه الكبيرين وهما رسالة الفلك (الجامع) و(المدخل الى الجغرافيا) والمعروف باسم « جغرافيا » . والاول منها أخذ شكله العربي باسم « المجسطي » وقد ترك أثراً محموداً في تقدم الفلك والرياضيات لا بين العرب وحدهم بل وفي اوربا الوسيطة أيضاً .

وقد بلغت جهود الاغريق والرومان الجغرافية ذروتها في مؤلفي بطليموس ، المشار اليهما ، الا انه يمكن اعتبارهما أيضاً ختام الكشوف الجغرافية القديمة . إذ لم تعد تحوي الكتب الاغريقية والرومانية معلومات جديدة ، فاخذت الاعمال الجغرافية والكارتوغرافية تتقهقر في عصر الرومان بحيث ساد الجمود والخمول قروناً حتى ظهر العرب على مسرح الاحداث ، الذين أعتبروا ورثة الثقافة الهيلينية التي مهدت لها السبيل

فتوح الاسكندر في أول الامر ثم انتشرت فيما بعد في أرجاء الاقاليم الشرقية من الامبراطورية الرومانية .[١٩] لهذا أخذ العرب على عاتقهم بعد مرور ستة قرون من الزمن احياء دراسات بطليموس ومناقشتها من جديد ثم بناء النهضة العلمية العربية الجديدة .

وأبرز عمل قام به الجغرافيون العرب في هذا المجال هو قيام الخوارزمي ، اكبر رياضي النصف الاول من القرن التاسع الميلادي ، بترجمة مصلحة معدلة لرسالة بطليموس في الجغرافية[٢٠] ولعلها تعد من أقدم الترجمات . ويمكن اعتبارها في الوقت ذاته أول رسالة أصيلة في الجغرافية الرياضية عند العرب وشاملة لجميع العالم المعروف لهم انذاك .

ومع ان مصنفات بطليموس لعبت دوراً رئيساً في تطوير الادب الجغرافي العربي لكن العرب في هذا العصر بدأوا يجمعون بين الاستيعاب النظري للعلوم اليونانية والتطبيق العملي لنظرياتها في ابحاثهم المستقلة . فقد وضعوا جداولهم الفلكية المستقلة على اساس المراجعة النقدية لنتائج السابقين لهم في هذا المضمار ، ورسموا خرائط لا تقل جودةً عن النماذج اليونانية .

فمن ابتكاراتهم أنهم أجروا تجربة لحساب خط منتصف النهار وقياس محيط الارض سنة ٨٢٧ م في زمن المامون تحت اشراف ابناء موسى بن شاكر (محمد ، احمد ، حسن). وتقوم حساباتهم على اساس قياس درجة واحدة على خط الزوال ثم ضرب الناتج في ٣٦٠ . وقد بلغت الدرجة بموجب التجربة العربية المامونية ٥٦ ميلًا وثلثي الميل .[٥] وهو طول لا يختلف عن النتائج التي أسفرت عنها احدث الدراسات بحيث ان الخطأ في هذا المقياس يقل عن الكيلومتر الواحد .[٢٠] مما يمكن أن نعزوه الى نقص الاجهزة المستعملة في القرن التاسع . وتعتبر التجربة العربية المذكورة محاولة جريئة اعتبرها العلماء « من أجل آثار العرب في ميدان الفلكيات » .[٢١] وهي تقف في حد ذاتها دليلًا على ما بلغته الحضارة العربية من تقدم علمي كبير وسريع الخطى . مما جعلها تحتل مكانة في تاريخ الجغرافية والرياضيات كما يقول كراتشكوفسكي .[٢٢]

ومما يجدر ذكره أن أبا الريحان البيروني قد ابتكر طريقة جديدة لاستخراج محيط الارض ، وقد جاءت هذه الطريقة في أخر كتاب « الاسطرلاب » . ويعترف « نيللينو » بان قياساته تلك تعد من الاعمال العلمية المأثورة للعرب . هذا وقد ألف أبو الريحان عشرة مؤلفات في الجغرافية الرياضية وأربعة في هيئة الارض وقام برسم خرائط فلكية بطريقة تشبه ما نشره (باترنو) فيما بعد . وقد استفاد ياقوت الحموي من كتاب أبي الريحان « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » كثيراً حيث احتوى هذا الكتاب على مواضيع فلكية وجغرافية عديدة .[٢٣]

وفي عهد المأمون تم انشاء مرصدين احدهما في حي الشماسية ببغداد سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م ، والاخر على جبل قاسيون بدمشق سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م . وبفضل هذين المرصدين تم تحديد الموقع الجغرافي لجميع النقاط المهمة من جديد ، أي ضبط عرضها وأطوالها . وهو ما عُرف باسم « الزيج المأموني الممتحن » . كما قام الفلكيون أبناء موسى بن شاكر بقياس عرض محله باب الطاق ببغداد فبلغ ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة شمالًا . وهو ما ينطبق تماماً على واقع الحال بعد اضافة عشر ثوان تقريباً[٢١] وبواسطة المرصدين المذكورين عُيّن انحراف سمت الشمس فبلغ ٢٣ درجة و ٣٣ دقيقة و ٥٢ ثانية ، أي ما يعادل الرقم الحاضر . كما نشا عن رصدهم للاعتدال الشمس تعيينهم مدة السنة بالضبط . ومن أشهر علماء الفلك في تلك الفترة « البتاني » (٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) حيث كان له من الشان مالبطليموس عند الاغريق .[٢٥]

وقد اخذ الغرب فكرة مبكرة عن « الزيج المأموني » بفضل ترجمة رسالة الفرغاني مرتين الى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ، كما ترجمت في القرن الثالث عشر الى لغات اوربية اخرى .

وبالاضافة الى ما سبق يقدم لنا هذا العصر أثراً جغرافياً ممتازاً هو ما يسمى بـ(الصورة المامونية) ولم تصلنا منها آثار مباشرة . وقد رآها المسعودي في القرن العاشر حينما قال : « ورأيتُ ... الصورة المامونية ... وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما » .[٢٦]

ولا يزال الإشكال قائماً حول كتاب يُعزى دون مبرر الى بطليموس ، إذ نشا في محيط لا علاقة له البتة ببطليموس ، وهو « كتاب الملحمة » ويقصد به هنا (التنبؤات) وذلك لعلاقته بالتنجيم . وهذا الكتاب هو المصدر الأساس لياقوت الحموي في معجمه الجغرافي دون جميع الزيجات الاخرى ، وعليه بنى تحديده لاطوال وعروض المدن واستخرج منه وقائع تنجيمية مختلفة . وقد بلغت استشهادات ياقوت به السبعين تقريباً .[٢٧]

الجغرافية الوصفية

بعد ظهور الجغرافية الرياضية عند العرب في القرن التاسع ، بدأت تتشكل منذ منتصف ذلك القرن الجغرافية الوصفية ببطء ملحوظ في بداية الأمر ، حيث اهتم بها اللغويون أو طبقة اهل الادب كما يسميهم ياقوت ، وقد أخضع هؤلاء المادة لمطالبهم . إذ أن التخصص في الجغرافية لم يعرف الا في عصر متأخر للغاية ، وان كثيراً ممن كتب عن جغرافية ديار الاسلام لم يكن جغرافياً بالحرفة . أما المواضيع التي تناولتها الجغرافية الوصفية فكانت تشمل وصف البلدان والمدن والاثار والجبال والسكان وما اليها لغرض تسهيل تحصيل ضريبة

الجزية والخراج وتمشية امور الدولة الاخرى .

وفي الفترة المبكرة لظهور الجغرافية الوصفية ، لم يكن التسلسل التاريخي لتاليف المصنفات المختلفة لبعض أنماطها واضحاً على الدوام ، الا انه ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع أخذت الجغرافية الوصفية تتخذ انماطاً ثابتة حيث انفسح المجال للغويين بصورة خاصة ليؤلفوا فيها . ويمكن عموماً تصنيف المؤلفات التي تناولتها الجغرافية الوصفية بما يلي :

١ ـ كتب الانواء والفضائل والعجائب .
٢ ـ المؤلفات الخاصة بالمسالك والبلدان .
٣ ـ المصنفات الطوبوغرافية .
٤ ـ الجغرافية الاقليمية .
٥ ـ كتب الرحلات (البرية والبحرية) .

١ ـ كتب الانواء والفضائل والعجائب :

عنى العرب بعلم الانواء الذي يبحث في صنوف الطقس وفي الظواهر الطبيعية الاخرى كالرياح والامطار والسحاب وما يتصل بذلك من معرفة حركات النجوم والكواكب وربطها بالمواسم وبالحيوان وبالنبات [٢٨] واستمرت سلسلة رسائل الانواء في الصدور طيلة القرنين التاسع والعاشر ، ويعتبر مصنف الدينوري (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) أبعدها صيتاً . وفي اوائل القرن التاسع وضع « النضر بن شميل » (٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) ، وهو من أصحاب كتب الانواء ، موسوعة في الحياة البدوية سماها « كتاب الصفات » ومن بين ما تحويه مادة متنوعة من الجغرافية الطبيعية والاثنوغرافيا (الانثروبولوجيا الوصفية) والجغرافية الحيوية [٢٩] ومن كتب الانواء الاخرى مصنف « مؤرج السدوسي » (١٩٥ هـ / ٨١٠ م) ، وكتاب ابن قتيبة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) . وقد عدد ابن النديم في الفهرست ١٥ كتاباً في الانواء [٣٠]

والف اللغويون أيضاً كتباً في الفضائل أو الخصائص التي ازدهرت في العصر الاموي ، حيث تتناول صفات ومحاسن الحواضر الكبرى (مثل دمشق والبصرة) ، وقد ساهم الجاحظ فيما كتبه بهذا النمط من المصنفات ، وتمت تأثير الموضوعات الاسطورية والرغبة في الامتاع والتشويق تحولت بعض مواضيع الجغرافية الوصفية الى كتب العجائب ، مثل « كتاب العجائب الاربعة » لهشام بن محمد بن السايب بن بشير الذي يعتبر أول كتاب في الموضوعات الجغرافية العامة في الاسلام .

٢ ـ المؤلفات الخاصة بالمسالك والبلدان :

أصبح للجغرافية الوصفية ضرورة عملية بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية ، مما يتطلب معرفة الطرق التي تربط بين اصقاع هذه الدولة الفسيحة . وكان لابد من معرفة السكك والمسافات بين الاماكن ، فادى الى ظهور « كتب المسالك » مثل كتاب « المسالك والممالك » للمروزي . ويعد من أقدم مصنفات المسالك إن لم يكن أقدمها ، ذكره ابن النديم في الفهرست وياقوت في المعجم . ومن المؤلفات القديمة أيضاً في هذا المجال كتاب ابن خرداذبة الذي يحمل نفس العنوان . وقد كان مؤلفه من متولي البريد والخبر في الجبل بفارس ، وهو أول كتاب يصل الينا في هذا الاختصاص . ويبحث في طرق المواصلات بين جميع المدن الاسلامية المعروفة في عصره ، وفيه ذكر للانتاج الزراعي والضرائب والخراج ، وهو وليد الحاجة الادارية . وترى المؤلف يشرح مضمون كتابه فيقول أنه يتناول « مسالك الارض وممالكها وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها والمسير بين ذلك منها ... ورسوم طرقها وطسوقها ... » [٣١]

وظهرت عدة مصنفات تحمل نفس العنوان (المسالك والممالك) للسرخسي (٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م) ، وأخر للاصطخري (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، وغيره لقدامة بن جعفر (بين ٣١٠ و ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) بعنوان « كتاب الخراج وصنعة الكتابة » ، حيث يبين الطرق والمسافات وديوان البريد فضلاً عن قيمة جباية الدولة ، وقد ألفه في عهد المكتفي بالله في أواخر القرن الثالث الهجري عندما تقلده منصب صاحب البريد . وقد وصل الينا القسم الخاص بالخراج ، لهذا ألحق بكتاب ابن خرداذبة . كما ألف الوراق (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) كتاباً في المسالك والممالك ، وكذلك البكري (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) والجيهاني وغيرهم . وتطلبت السياسة والادارة والتجارة وما اليها وصفاً دقيقاً للامكنة والبقاع ، فاتسع وبصورة تدريجية وصف المدن والاقطار من طراز الفضائل ليتحول الى « كتب البلدان » ، وأقدمها مصنفي هشام الكلبي (حوالي ٢٠٦ هـ / ٨٢٠ م) « البلدان الكبير والبلدان الصغير » ، وهي أول الكتب التي ظهرت في أخبار البلدان . وظهر بعدها « كتاب البلدان » لليعقوبي (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) الذي وضعه سنة ٢٧٨ هـ . ويعود اليه الفضل في تسمية علم الجغرافية (بعلم أخبار البلدان) وفي ظهور « جغرافية المدن » . إذ ان من بين ما يتميز به اليعقوبي ولعه بالاحصائيات والوصف الطوبوغرافي في للمدن لا سيما بغداد وسامراء [٣٢] .

ومن المؤلفات البلدانية ، الاخرى مصنف البلاذري (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) « فتوح البلدان » ، ومصنف ابن الفقيه الهمداني (حوالي ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) « مختصر كتاب البلدان » وابن رستة « الاعلاق النفيسة » .

٣ ـ المصنفات الطوبوغرافية

اهتمت الجغرافية الوصفية ، زيادةً على ما تقدم ، بنوع من المؤلفات التاريخية الجغرافية انصبت الدراسة فيها على مدن مفردة في نواحي شتى من العالم الاسلامي وتمدنا بالمعلومات الجغرافية عنها ، أطلق عليها اسم « المصنفات الطوبوغرافية » وهي خاصة بالمدن والخطط ، ومن اشهر تلك المؤلفات ما كتبه الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) عن مدينة بغداد ، ووصف ابن جامع للاسكندرية ، وعبد اللطيف عن مصر ، وهذه تعتبر من أهم الكتب الطوبوغرافية في العصور الوسطى .

وقد اكتسب الادب الجغرافي الطوبوغرافي انتشاراً واسعاً في مصر بصورة خاصة حيث يمكننا أن نتتبع منذ النصف الثاني للقرن التاسع ميلاد نوع فريد مستقل من المصنفات من الطراز المعروف باسم الخطط ، اي وصف الاحياء والنواحي ، وقد ظل مزدهراً بمصر الى القرن التاسع عشر . وأول مؤلف يصل الينا من هذا النوع « فتوح مصر » لابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) وعلى غراره جاءت مصنفات المقريزي (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) الذي اهتم بالجانب الاجتماعي والديموغرافي للتاريخ ، وكذلك السيوطي ، كما اهتم به ياقوت في معجمه .

٤ ـ الجغرافية الاقليمية :

تناولت الجغرافية الوصفية بين ما تناولته من فروع الجغرافية ، فرع أطلق عليه اسم « الجغرافية الاقليمية » . وقد تناولها اللغويون الذين انصرفوا انصرافاً تاماً الى الجزيرة العربية . وقد لاحظ ياقوت الحموي بالكثير من الدقة ، وذلك عند تحليله لمصادر معجمه ، ان الكتب التي صنفت في اسماء الاماكن صنفان :[٣٢] أحدهما قُصد به ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية حيث ينسبهم ياقوت الى « طبقة أهل الادب » أي اللغويون ـ ويدخل الصنف الاخر تحت باب كتب البلدان والمسالك ـ وجُل قصدهم شرح الالفاظ وتحديد الاماكن ، وقد شذ بعضهم عن ذلك كهشام الكلبي حيث انفرد بالتاليف الجغرافي الصرف زيادةً على مؤلفاته في اللغة والادب والتاريخ .[٣٣] الا ان الكلبي يجب أن يحتل مكانة اولى في التراث الجغرافي اللغوي ، فهو خبير بالجاهلية وصاحب كتاب الاصنام ، وجمهرة الانساب . والاعتراف به كحجة يؤكده ياقوت ، فقد أورد إسمه (٣٥٠) مرة . ويعتبره المصدر الاساس عن جزيرة العرب ، على الرغم من أنه أول مؤلف بالنسبة لعصره يكتب في موضوعات جغرافية عامة تتجاوز نطاق جزيرة العرب الى خارجها مثل الكوفة والرها والنهروان والمخرَّم قرب بغداد ، كما ظهر من الاقتباسات التي ينقلها عنه ياقوت .

ومن مصنفات الجغرافية الاقليمية الاخرى نذكر كتاب « مكة والحرم » لابي عبيدة (٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) ، وكتاب « الجبال والأودية » لابن حمدوية (٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) ، وكتاب « المناهل والقرى » لابي سعيد السكري (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) ، و « كتاب جزيرة العرب » للاصمعي وتلميذه سعدان بن المبارك (٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م) صاحب كتاب « الارضين والمياه والجبال والبحار » وينحصر بحثه ضمن نطاق جزيرة العرب أيضاً . كما ألف أبو زيد الانصاري (٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) كتاب « المياه »[٣٤] الا ان اعظم مصنفات الجغرافية الاقليمية هو « صفة جزيرة العرب » للهمداني (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) الذي يمتاز على جميع مصنفات القرنين التاسع والعاشر ولا يبزه في القرن العاشر الا مصنف البيروني « الهند » .

وكان مفهوم الاقليم يقوم على أساس تقسيم الارض حسب درجات العرض على صفة مناطق تمتد موازيةً لخط الاستواء ، وبهذا قُسمتْ الارض الى سبعة اقاليم . في حين ان للاقليم مفهوم جديد عند الهمداني كما سبق القول ، كذلك عند الاصطخري ويقوم على أساس تقسيم العالم الاسلامي الى عشرين اقليماً ، وخص كل واحد منها بخريطة (صورة) حددها بما كانت عليه في أواسط القرن العاشر الميلادي . لهذا يُعد الاصطخري على رأس مدرسة جغرافية جديدة تختلف عما سبقتها من مدارس .[٣٥]

والاصطخري في مؤلفه « المسالك والممالك » قد حدد نفسه بمنهج واضح حينما تحدث عن اقاليم الارض في بلاد الاسلام بقوله : « ... ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلتُ كل قطعة أفردتها مفردة مصورة ، تحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرتُ مايحيط به من الاماكن ... فاكتفيت ببيان موقع كل اقليم ليعرف مكانه ، ثم افردتُ لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينتُ فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه ... »[٣٦]

وبهذا حدد الاصطخري نفسه بأن كتابه في الجغرافية الاقليمية وليس في الجغرافية العامة التي كتب فيها معظم من تقدمه . ومفهوم الاقليم الجغرافي واضح في ذهنه ، فهو لا يعني تلك الاقاليم السبعة التي اصطلح عليها القدماء ، وليس الاقليم منطقة من الارض تحكمها دولة بعينها ،[٣٨] وانما هو منطقة جغرافية ذات مظاهر طبيعية تكسبها شخصية مستقلة متميزة . ولذلك فهو يميز بين خراسان وما وراء النهر مع انهما تحت حكم السامانيين ، ويجعل كلّا منهما اقليماً قائماً بذاته . ويعلل بين آونة واخرى السبب في أنه ضم جزءً الى هذا الاقليم أو ذاك ، فيقول مثلاً : « فاما الريّ فإنا ضممناه الى الديلم وإن كانت قائمة بنفسها ، لأن اتصالها بها اتصال واحد وليس بينهما حاجز يستحق به الانفراد عنها ... »[٣٩] ومن قوله أيضاً

في ما وراء النهر : « وقد كان في التقدير ان نصور خوارزم في صورة خراسان ونصفها في صورة ما وراء النهر ، غير ان الغرض في هذا الكتاب معرفة هذه الاقاليم ومدنها ، فاخترتُ ان تكون خوارزم مجموعة في الصورة وجعلتها في صورة ما وراء النهر فابلغ بذلك غرضي من غير تكرار في الصورتين » .[40]

ويجعل الاصطخري كلًا من بلاد العرب ، ومصر ، والمغرب ، وبحر الروم ، وبحر الخزر أقاليم قائمة بذاتها ، وذلك لان لكل منها ظروفاً طبيعية تميزها عن غيرها وبهذا فإن الاصطخري لا يقبل التقسيم الاداري الذي دعت اليه ظروف غير جغرافية ، وانما يجعل المنطقة وحدة ولا يجزئها إلا اذا جزأتها الطبيعة ، وجاء المقدسي بعد الاصطخري فلم ينس مفهوم الاقليم عندما تحدث عن بلده فلسطين . وقسم المقدسي مملكة الاسلام الى اربعة عشر اقليماً ، وفي هذا يقول : « وأفردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبنا أمصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها وأجنادها بعدما مثلناها ورسمنا حدودها وخططها وحزرنا طرقها المعروفة ... »[41] بعد ان وضع في خرائطه لكل ظاهرة لونها ليسهل ادراكها وفهمها .

واذا كانت الجغرافية الاقليمية قد اهتم بها اللغويون (اهل الادب) ، فإن كبار العلماء لم يحصروا نشاطهم في حدود ضيقة كاللغويين . فعالم كالجاحظ (٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) صنف كتاب « الحيوان » ، وهو كتاب جامع يحفل بالكثير من المعلومات (جغرافية حيوية ، اثنوغرافيا ، انثروبولوجيا)[*] على الرغم من غلبة الموضوعات الادبية عليه . وسار على منواله ابن الفقيه الهمداني الذي اعتمد على ابن خرداذبه ونقل حرفياً على ما كتبه حول صفة الارض والاقاليم السبعة .[42]

وتم الكشف في الاونة الاخيرة عن مصنف للجاحظ يقف دليلًا على اهتمامه الواسع بالجغرافية . ويمكن اعتباره أول محاولة للعرب في الجغرافية الاقتصادية ، أو على وجه الدقة « جغرافية التجارة » ، أعني بذلك الرسالة الصغيرة المعروفة باسم « التبصر بالتجارة » . وهي تعالج السلع التجارية وأسعارها والمستورد منها .[43]

٥ ـ كتب الرحلات :

ان ميول العرب للرحلة في طلب العلم وتقصي الاخبار ومغامراتهم البحرية بقصد التجارة أو غيرها كانت تحتل حيزاً مهماً في التراث الثقافي العربي . وكثيراً ما كانت هذه الرحلات تلاقي تشجيعاً رسمياً ودعماً مالياً في سبيل تحقيق اغراضها في الاطلاع على شؤون البلاد النائية وتوثيق الصلات التجارية معها .[44] وتدل الشواهد بان العرب قد أسسوا مركزاً لهم في ميناء كانتون الصيني منذ أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . واستمرار الصلات التجارية معها مهدت السبيل لرحلة التجار العرب الاخرين الى الهند والصين فيما بعد .

وقد ثبتت الصورة النهائية لقصص الرحلات في القرن التاسع الميلادي ، واقدم رحلات هذا القرن تلك الحكايات والاخبار التي رواها ابن خرداذبة عن سلام الترجمان ، ومحمد بن موسى المنجم ، وأبو زيد السيرافي عن سليمان التاجر ، وابن وهب ، وما رواه اليعقوبي وخبّر به عن رحلاته التي أورد فيها وصفاً مفصلًا عن البلدان التي زارها ومظاهرها الطبيعية ونواحيها البشرية . مما ساعد على ظهور كتب الرحلات في القرن التاسع التي استمرت طيلة القرون الخمسة التالية .[45]

ويعتبر القرن العاشر الميلادي من أحفل القرون باخبار الرحالة العرب ، إذ يمكن الاستنتاج انهم وصلوا شواطىء امريكا من خلال رواية الادريسي . وتوغلوا في بلاد الروس ، وتنقلوا في العالم الاسلامي من شرقه الى غربه . وتحدثوا عما صادفوه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاتهم في مؤلفاتهم . ولم يزل بعضها يعتبر حتى اليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث ، ومرجعاً مهماً عن البلدان التي زاروها .[46] وتعتبر رحلة ابن جبير (٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الادب العربي . وقد اختتم ابن بطوطة (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) سلسلة الرحلات العربية ذات الاهمية العالمية بعد أن أمضى ٢٨ عاماً في رحلته وقطع خلالها ما يعادل (١٢٠) ألف كيلومتر .[47]

أما دوافع تلك الرحلات فيمكن ايجازها فيما ياتي :

أ ـ في سبيل الكشف والمغامرة كرحلة الفتية المغرورين (أي المخاطرين) حيث قام ثمانية شبان أبناء عمومة برحلة من لشبونة في بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) كما رواها الادريسي . وعرب الاندلس رغم تخوفهم من البحر المذكور ، قاموا بعدة محاولات للكشف فيه خلال القرن التاسع كما أشار الى ذلك المسعودي .[48] وأقدم « محمد بن قو » سلطان مالي خلال القرن الرابع عشر الميلادي على رحلة جريئة في المحيط الاطلسي حاول خلالها أن يصل الى الشاطىء الغربي لبحر اللجّي أي بحر الظلمات ، كما رواها القلقشندي في صبح الاعشى .[49]

ب ـ في سبيل الرزق والمعرفة وحب الاستطلاع كرحلة ابن حوقل والمسعودي والمقدسي . فقد أتحفنا المسعودي (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، الذي قضى ٢٥ سنة من حياته في التطواف ، بمشاهداته عن بدائع الامم وخواص الاقاليم وتفسير بعض ظاهرات الجغرافية الطبيعية مثل كروية الارض وغلافها الغازي والرياح الموسمية والمواقيت الصالحة للملاحة . ومن الغريب أن توجد لديه فكرة وحدة الشعوب السامية قبل عهد طويل من ظهورها كنظرية علمية في اوربا . الا ان المسعودي شان الغالبية من مؤلفي عصره يعني بالتسجيل اكثر مما يعني بتحقيق ما يسجل .

ولرحلة المقدسي (حوالي ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) قيمة جغرافية عالية تجعلها وثيقة يستند عليها الجغرافي الذي يبغي معلومات عن البلدان التي وصلها المقدسي البشاري فيما يخص فروع الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والعمرانية . واقترب في كثير من ملاحظاته لفهم الجغرافية على الطريقة الحديثة واستخدامها كاداة للتثقيف العام .

أما ابن حوقل (٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م) فقد ذكر كل ما شاهده من ظواهر في كتابه « صورة الارض » الذي يعد موسوعة جغرافية ، لان ابن حوقل لم يدع صغيرة ولا كبيرة الا وقد تطرق اليها . فهو يقول : « ... وقد جعلتُ لكل قطعة أفردتُها تصويراً وشكلاً يحكي موضوع ذلك الاقليم ... واعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني ... » .(٥٠)

ج - الاطلاع بمهمة رسمية كانت الدولة تكلفهم بها فيسافرون كرسل للخليفة أو كسفراء له فوق العادة بلغة عصرنا ، فساعدت على توسيع المعلومات الجغرافية عن البلاد الأجنبية . وأقدم بعثة اسلامية أرسلتْ الى الصين كانت في زمن الخليفة عثمان (ر) سنة ٣١هـ / ٦٥١ م . وارسلت بعثات اخرى الى الصين ، منها اثنتان : الاولى أوفدها الخليفة ابو جعفر المنصور (١٤٥ - ١٥٨ هـ / ٧٦٢ - ٧٧٥ م) ، والثانية أرسلها الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) .(٥١)

ولعبت بعض الشخصيات العربية دور الدبلوماسي الناجح مثل « يحيى بن الحكم البكري » الملقب بالغزال (٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) ، حيث لعب دور الدبلوماسي مرتين ، وهو على معرفة بعدد من اللغات . وكان أمير قرطبة عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) قد وجهه الى بلاد الشمال لمفاوضة النورمان سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م والذين سبق وان اغاروا على الاندلس . ويبدو أنه قد زار قبل هذا القسطنطينية ضمن سفارة أوفدت لعقد معاهدة صلح مع الامبراطور (تيوفيل) .(٥٢)

ولعب دور الدبلوماسي أيضاً رسول الخليفة المقتدر الى بلاد البلغار وبلاد الخزر (احمد بن فضلان) سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م مع وفد لتفقيه البلغار امور الدين الاسلامي بعد دخولهم فيه ، فصنف رسالة في وصف رحلته عُرفتْ باسمه ذكر فيها ما شاهده في بلاد البلغار موضحاً فيها حياة السكان وعاداتهم وحضاراتهم وتجارتهم . وتضم هذه الرحلة أقدم المعلومات وأوثقها عن البلغار والروس وأهل الخزر .(٥٣) وأعقب تلك الرحلة زيارة التجار العرب لتلك الاصقاع وبسط نطاق نشاطهم على أرجائها وبخاصةً في جنوب روسيا وبولندا ، ولم تفلت الدول الاسكندنافية من ملاحظاتهم .(٥٤)

كما لعب دور الدبلوماسي « أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي » رسول الامير الساماني نصر بن أحمد الى الصين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، و« ابن سليم الاسواني » مبعوث الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الى ملك النوبة في السودان .(٥٥)

وبالاضافة الى المعلومات الجغرافية التي وصلتنا عن طريق الدبلوماسيين ، فإن الاسرى قد لعبوا دورهم أيضاً في توسيع مدارك العرب عن أمصار الغرب حيث أثروا الجغرافية العربية بمعلومات مفصلة ودقيقة عن المناطق التي بقوا فيها . ومن أشهر هؤلاء « مسلم الجزمي » الذي أطلق سراحه من أسر البيزنطيين (ربما سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) . وتعد مصنفاته مصدراً مهماً للغاية في معرفة العرب بشؤون الدولة البيزنطية ، وقدمتْ فيه معلومات مفصلة عن الصقالبة وجيرانهم . وبعد نصف قرن (٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م) قدم لنا اسير آخر من أسرى البيزنطيين هو « هارون بن يحيى » معلومات مهمة لا سيما وصفه الجيد للقسطنطينية .(٥٦)

د - الرحلة في سبيل التجارة :

لقد نشطت الرحلة في سبيل التجارة بالطريق البحري مع الهند والصين حيث وصل العرب من طائفة الاباضية الى الصين ويمكن اعتبارهم ممهدي الطريق للتاجر سليمان ولابن وهب . والى نفس العهد المبكر الذي يسبق القرن التاسع ترجع اول معرفة للعرب بالطريق البري الذي يخترق آسيا الوسطى الى الصين اعتماداً على الوصف الذي يقدمه تميم بن بحر المطوعي ، ويعتبر ابن خرداذبة اول جغرافي عربي يحفظ لنا وصف الطريق البري الى الصين .(٥٧)

وترجع قصص رحلات التاجر سليمان الى عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م ، وقد سافر مراراً بقصد التجارة الى الهند والصين ، ويصف لنا الطريق بدرجة من الدقة مكنت (فيران) من تتبعه على الخرائط الحديثة . كما ترك لنا سليمان وصفاً للسواحل والجزر والموانىء والمدن وسكانها والمحاصيل وسلع التجارة . وتعد رحلته مستند مهم لفهم المعارف البحرية في القرون الوسطى ، وعن طريقها دخلت اقاليم الهند والصين في معارف الجغرافية العربية . كما أنه أول مؤلف غير صيني يومىء الى الشاي .

الجغرافية الطبيعية

على الرغم من اهتمام الفكر الجغرافي بالجغرافية الرياضية والوصفية بمختلف فروعها ، الا ان الجغرافيين العرب لم ينسوا ظواهر الجغرافية الطبيعية فيما كتبوه وان لم يصنفوا فيها بصورة مستقلة الا قليلاً ككابي زيد الانصاري صاحب كتاب المطر . وقد تناولوا بعض المظاهر الطبيعية ضمن الجغرافية الفلكية وبعضها الاخر ضمن الجغرافية الوصفية .

فمن بين ما تضمنته مؤلفاتهم من ظواهر طبيعية ما أشار اليه البيروني من تفسير لتكوين سهل هندستان فذكر ان مكانه كان قاع بحر ملأته الترسبات الطموية ، وهو تفسير قريب من الفكرة الحديثة . وورد في كتابه « تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن » آراء في كيفية تكوين القشرة الارضية . وله آراء في العصور الجيولوجية ، وصنف عدة مؤلفات على قدم الارض وما اعتراها من ثورات بركانية وزلازل وتعرية .[٥٨]

والاصطخري هو الآخر لم يغفل الناحية الطبيعية من الجغرافية فيما كتبه فالعالم عنده قسمان . شمالي وجنوبي والحد الفاصل بينهما هو ما يقرب من خط عرض ٢٥ ° شمالا . والاقاليم التي تقع الى شمال هذا الخط أميل الى البرودة . وسكانها بيض البشرة وتزداد البشرة بياضاً كلما أوغلنا نحو الشمال . أما الى جنوبه فبلاد حارة ، أهلها سود البشرة ، ويزدادون سواداً كلما ابتعدوا الى الجنوب . وتقسيم الاصطخري هذا فيه من الصحة الشيء الكثير .[٥٩]

كما وردت آراء طريفة في (رسائل اخوان الصفا) في مجال الجغرافية الطبيعية . فقد لاحظوا ارتفاع حرارة الغلاف الجوي نتيجةً لانعكاس أشعة الشمس على سطح الارض . كما لاحظوا وجود التغير التدريجي في موضع كل من اليابس والماء ، وتثبتوا أيضاً من أصل المنابع والانهار .[٦٠]

واحتوى كتاب ابو الفدا « تقويم البلدان » بين ما احتواه معلومات في الجغرافية الطبيعية ، ونقل نفس الشيء عن « مروج الذهب » للمسعودي ، وربط المقدسي بين الظروف الطبيعية والانتاج الزراعي . كما ان للقلقشندي اهتمامات بالجغرافية الطبيعية ولكنه يقتصر على الجانب الوصفي منها دون الجانب التحليلي . وسيشار الى ما كتبه ياقوت الحموي في معجمه عن ظواهر الجغرافية الطبيعية في مكان آخر .

اصالة الجغرافية العربية

ذكر أبو الفدا أسماء (٦٠) عالماً جغرافياً من الذين ظهروا قبله .[٦١] وتضم المكتبة الجغرافية العربية انتاج ما يقرب من الثلاثين من كبار المؤلفين العرب الذين وصلت الينا آثارهم .[٦٢] وهذا يدل على ما تزخر به الجغرافية العربية من مصنفات في مجال اختصاصها وما للعرب من فضل على علم الجغرافية وتطوره .

والجغرافيون العرب بعد أن نقلوا عن اليونان وغيرهم ، زادوا عليها ما شاهدوه اثناء خوضهم البحار وارتيادهم الاخطار وتميزوا على الرومان شاهدوه اثناء خوضهم البحار ، وارتيادهم الاخطار . وتميزوا على الرومان بكونهم عرفوا الصين وافريقيا واجتيازهم الصحراء الى ان وصلوا الى السودان ورغم اعتقادهم بان جهود الاغريق بلغت ذروتها فيما كتبه بطليموس الا انهم لم يتقبلوا كل ما جاءت في كتاباته . فقد حرصوا في بداية الامر على تفهم ما انتهى اليه غيرهم ، ثم انتهجوا نهجاً خاصاً بهم حيث اخذوا يحللون ويناقشون الاراء الواردة في تلك الكتابات نتيجةً لدراساتهم وتحقيقاتهم الخاصة . فاعادوا حساب طول الدرجة وتوصلوا الى نتائج في غاية الدقة .

وقد فند العرب بعض الاراء التي جاء بها بطليموس وصححوا كثيراً من اخطائه ، إذ ان عدداً ليس بالقليل من مواقع المدن التي عينها بطليموس كانت غير مطابقة للواقع . ويكفي أن تقابل بين الامكنة التي عينها الاغريق وتلك التي عينها العرب ليظهر مدى التقدم الذي احرزه العرب الذين توصلوا الى معارف فلكية مضبوطة ساعدتهم على تصحيح الخرائط اليونانية ورسم غيرها مضبوطة .[٦٣]

فمن الاخطاء التي وقع فيها بطليموس وصححها الجغرافيون العرب تقديره لطول البحر المتوسط بـ(٦٢) درجة ، اختزلها الخوارزمي الى (٥٢) درجة ، وتلاه أبو اسحاق الزرقالي (٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م) فاختزله الى (٤٢) درجة ، أي ما يعادل طوله الحقيقي .[٦٤] اي ان مقدار غلطه بلغ نحو ٤٠٠ فرسخ .[٦٥]

واخطأ بطليموس في تقدير طول البحر الهندي الذي اعتبره بحيرة مقفلة فقدر طوله بـ(٨٠) درجة ، في حين لم يتجاوز طوله الحقيقي ٤٢ درجة .[٦٦] ومن اخطاء بطليموس أيضاً جعله ساحل افريقيا الشرقي ممتداً نحو الشرق الى ما يقابل ساحل الصين . وقد انتبه البتاني والمسعودي الى ذلك فجعلا ساحل افريقيا محاطاً بالبحر من جميع الأطراف ، كما جعلا البحر الهندي بحراً مفتوحاً كما هو عليه الحال.[٦٧]

وبالاضافة الى ما تقدم فقد أخطأ بطليموس في قياس محيط الدائرة العظمى للارض وبلغ الفرق بين قياساته وما توصل اليه العلم الحديث بنحو ١٧٣٠ كم بالنقصان . في حين بلغ الفرق المذكور عند الخوارزمي ورفاقه بنحو ١٧٨ كم فقط بالزيادة على ما يظنه (سوتر) .[٦٨]

وبلغت الجغرافية العربية ذروتها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي يمثل دور النضج والابداع والابتكار في الجغرافية ، حيث ظهرت فيه سلسلة مصنفات جغرافية شقت طريقها نحو تكوين نهج عربي خاص يتصل اتصالاً وثيقاً بـ« اطلس الاسلام » . وقد بلغت جهود العرب الجغرافية ذروتها فيما كتبه المسعودي ، واكتملت معرفتهم عن العالم فيما كتبه البيروني عن الشرق . والادريسي في القرن الذي يليه عن الغرب .

وأهم ما اتصفت به الجغرافية العربية انها كانت تقوم على أساس المشاهدة العملية والتحقيق . فشغف الجغرافيون العرب

بالاسفار والجولان في مختلف انحاء العالم لجمع معلوماتهم عن شاهد عيان ، مما يزيد في قيمة صحة المعلومات .

فاليعقوبي يقول عن نفسه أنه سافر وحدث وسأل : « ... فكنتُ متى لقيتُ رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ... مسافة ذلك البلد .... ومبلغ خراجه .... » .(٦٩) وابن حوقل يقول : « .... واعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني .... » .(٧٠) وأما المقدسي فقد جال في البلدان وساح في البراري وتاه في الصحاري وأشرف على الغرق . وقد انتقد في كتابه « احسن التقاسيم » من سبقه من الجغرافيين الذين لم يعتمدوا فيما كتبوه على المشاهدة والمعاينة والتحقيق والتحليل . فقد انتقد (الجيهاني) الذي جمع « الغرباء وسألهم عن الممالك » ولم يعتمد على مشاهداته . وانتقد أبا (زيد البلخي) الذي اختصر « ولم يذكر الاسباب المفيدة ولا أوضح البلدان ولا وطىء الاعمال .... » . وأما (ابن الفقيه الهمداني) فقد أدخل « في كتابه ما لايليق به من العلوم » . وأما (الجاحظ ، وابن خردانبة) فإن كتابيهما « مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة » . ويقول مؤكداً فضل كتابه على كتب الاخرين : « ... لا يعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظر في كتبهم أو دوّخ البلدان وكان من أهل العلم والفطنة » . ويقول مفتخراً : « اعلم اني اسستُ هذا الكتاب على قواعد محكمة واسندته بدعائم قوية وتحريتُ جهدي الصواب .... » . فقد « ذكرنا ما رأيناه وحكينا ما سمعناه ، فما صح عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول وما شككنا فيه ، وكان من طريق الاحاد أسندناه الى الذي منه سمعناه ...» .(٧١)

أما هدف المقدسي من وراء ذلك فهو وكما يقول « ان أقصد علماً قد اغفلوه ، وانفرد بفن لم يذكروه ... » .(٧٢) ولم يتوصل الى هذا العلم الا بعد جولاته ومشاهداته الميدانية أو على حد قوله « وما تم لي جمعه الا بعد جولاني في البلدان ودخولي اقاليم الاسلام ولقاءي العلماء وخدمتي الملوك ومجلستي القضاة ودرسي على الفقهاء واختلافي الى الادباء والقرّاء وكتبه الحديث ... مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحدٍ ، والتفطن في هذه الاسباب بفهم قوي حتى عرفتها ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتى اتقنتها ودوراني على التخوم حتى حررتها ، وتنقلي الى الأجناد حتى عرفتها ... » .(٧٣)

أما ابو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) فقد تناول في كتابه « فتوح البلدان » من تقدمه من الجغرافيين بالنقد فذكر ان ابن خردانبة وابن حوقل والادريسي لم يحققوا الاطوال والعروض ، ومؤلفو الزيجات وغيرهم لم يحققوا في الاسماء ، أما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال والعروض .(٧٤)

ومما أمتازت به الجغرافية العربية أيضاً عدم ترك الظاهرة الجغرافية دون تحليل أو تعليل في كثير من الحالات . فنرى البيروني يفسر امتناع الهنود عن اكل لحوم البقر بأسباب اقتصادية ، وربطه حركة المد والجزر بأوجه القمر ، أي كما يقول العلم الحديث تماماً . ويحاول الاصطخري ان يربط العلة بالمعلول كما يتضح من مقدمته حول مفهوم الاقليم . وابن خلدون هو الاخر يعلل كثيراً من الظاهرات البشرية والاقتصادية بعوامل مناخية . وهكذا قل بالنسبة لبقية الجغرافيين .

أما الانتقاد الذي يوجه الى الجغرافية العربية فهو خلوها من بيانات تتعلق بعدد السكان وتوزيعهم . وكذلك احصاءات الانتاج الزراعي والصناعي والنشاط التجاري باستثناء الاحصاءات المتعلقة بالخراج ودخل الدولة ، وارقام اخرى متناثرة هنا وهناك . والارقام التي يوردها قدامة بن جعفر عن ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم .

المدارس الجغرافية العربية

يمكن تمييز أربع مدارس جغرافية عربية من حيث مدى اصالتها وتاثرها بمعارف الاقوام الاخرى .(٧٥)

١ – مدرسة العصر العباسي : وهي المدرسة المتاثرة في أول نشأتها بالفكر الهندي (مثلَ اعتمادها تقسيم العالم على اساس نظام (الكشاور) على شكل دوائر ، وكذلك تاثرها بنظام الفلك الهندي المسمى (السدهند) . وفي عصر الترجمة ازداد تاثير اليونان واصبح هو السائد فاخذ الجغرافيون العرب بنظريات بطليموس القائلة بكروية الارض وثبوتها ودوران الكرة السماوية حولها ، وقد قبلها الجغرافيون العرب باستثناء البيروني . كما اخذوا بتقسيم الارض الى سبعة اقاليم ، أو بالاطوال والعروض التي جاء بها بطليموس ، وغير ذلك ، وقد اتضح التاثر المذكور في مجال الجغرافية الكمية الرياضية والفلكية) ، وسبق توضيحها فيما تقدم .

ومع ان العرب قد تاثروا بما ذكر الا انهم وجدوا اخطاء عديدة عند بطليموس فابتكروا وسائل جديدة للقياس وقاموا بتصحيح كثيراً من الاماكن والنظريات المغلوطة عند بطليموس .

٢ – مدرسة الخوارزمي العربية :

وهي من ابتكار الجغرافيين العرب ولا صلة لها بغيرهم . ابتدأت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) على يد محمد بن موسى الخوارزمي الذي قسم العالم على أساس الاقاليم السبعة وفق الاحداثيات الجغرافية على شكل مستطيلات متوازية مستفيداً مما حصل من تقدم فلكي عربي واجهزة قياس في عصر الترجمة ، وسار على منوال الخوارزمي فيما بعد عدة علماء اشهرهم الفرغاني والبيروني وسهراب . وكان اتجاه هذه المدرسة كمياً أساسه الرياضيات والفلك .

٣ ـ المدرسة العربية الاسلامية :

يمثل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وفيه بلغت الجغرافية العربية مرحلة النضج من حيث اعتماد بحوثها على الرؤية والمشاهدة وجمع المعلومات من الحقل من خلال الرحلات والزيارات أو عن طريق السؤال . فضلاً عن اعتمادها على المصادر السابقة بعد النقد والتمحيص والتدقيق .

وانطلاقاً من المنهج المذكور ظهرت المدرسة العربية الاسلامية ، وقد حذت مصنفاتها حذو كتب المسالك والممالك بعد ان كان اتجاه مدرسة الخوارزمي كمياً . ويعود الفضل بهذا الاتجاه الى ابي زيد البلخي (٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) مؤسس هذه المدرسة ، وأول من استقل عن بطليموس في كتابه « صورة الاقاليم » حيث يقول عنه المقدسي أنه قسم الارض الى عشرين جزءاً .[٧٦] وهنا يبدو الانفصال عن بطليموس . وقد ركز البلخي اهتمامه بوصف العالم الاسلامي ، ثم (اخذ عنه وأضاف اليه الجغرافي المشهور (الاصطخري) وعلى هذا الاخير اعتمد ابن حوقل .[٧٧] وهو رحالة أصله من بغداد ولكنه عاش طويلاً في شمال افريقيا فصححه واستدرك عليه . وتعالج هذه المدرسة كل بلد ومن حدوده السياسية مع خارطة توضح هذه الحدود وتبين مواقع المدن والجبال والانهار والبحار معتمدةً على الاحداثيات الجغرافية . وتقتصر هذه المدرسة في مادتها على جغرافية بلاد الاسلام ، وتهمل الاقطار الواقعة خارجها ، وبدون اهتمام كبير بخطوط الطول ودوائر العرض .

ويندرج في هذه المدرسة عدد من المصنفات المماثلة ، كما انها « تنفصل عن سلسلة الخرائط المرتبطة بها والمعروفة باسم (اطلس الاسلام) التي ليس لها علاقة بالنماذج البطليموسية . وسار على منوال هذه المدرسة بعض الجغرافيين أمثال (ابن خرداذبة ، اليعقوبي ، ابن الفقيه الهمداني ، ابن رستة ، المسعودي) الا انهم لم يقتصروا على وصف العالم الاسلامي ، بل شملت مصنفاتهم البلدان غير الاسلامية ، كما أولوا نفس القدر من الاهتمام بقصص العجائب .

ويضم أطلس الاسلام ، ٢١ خارطة تتابع بالصورة الآتية : يبدأ بخارطة العالم المستديرة ، يليها خارطة جزيرة العرب ، ثم بحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، وأربع عشرة خارطة اخرى تمثل الاجزاء الوسطى والشرقية للعالم الاسلامي .[٧٨] وقد أحصى (ميللر) ٢٧٥ خارطة وصلت الينا من ذلك العصر للعالم الاسلامي . وكانت تمثل انتاجاً عربياً خالصاً كما يقول (ميللر) ، اطلق عليها اسم (أطلس الاسلام) باستثناء خرائط الادريسي .[٧٩]

والمقدسي هو آخر الممثلين الكبار للمدرسة العربية الاسلامية أو كما يسميها البعض باسم (المدرسة الكلاسيكية) ، حيث تنعكس صلته بهذه المدرسة في الخرائط اكثر مما في المتن . ويلاحظ في خرائطه تقدم المعلومات الجغرافية . كما ان تقسيم الاقاليم عنده يختلف بعض الشيء عما هو عليه في أطلس الاسلام . وهو يقصر وصفه على العالم الاسلامي . ويعتبره (اشبرنجر) اكبر « جغرافي عرفته البشرية قاطبة » ، أو هو وكما يقول عنه كراتشكوفسكي « جغرافياً عظيماً وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبةً » .[٨٠]

٤ ـ المدرسة الجغرافية التاريخية الاندلسية المغربية :

دُرست الجغرافية في المغرب والاندلس على انها متممة للتاريخ ، وكان الرازي (٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) أول من أدخل الجغرافية الاقليمية الى الاندلس بهذا المفهوم وفي وحذا حذوه الوراق (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م) ثم الطوطوشي والعذري والبكري . وكان الادريسي (٥٦٠ هـ / ١١٧٣م) أول جغرافي مغربي يعتبر الجغرافية علماً مستقلاً ويقيم دراسته على هذا الاساس .

وتعتبر خرائط الادريسي الاوج الذي بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية عند العرب ، وخرائطه تمثل مدرسة جغرافية قائمة بذاتها سماها (ميللر) بـ(المدرسة العربية النورماندية) . ويضم اطلس الادريسي (٧٠) خارطة تمتاز بدقة الرسم وتقوم على أساس الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسة[٨١] مراعيةً في ذلك خطوط الطول ودوائر العرض ومطابقتها للواقع . وكانت لخرائطه اثر كبير في تصوير العالم للاوربيت مدة طويلة بعد عصره .

ويعد كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » نقطة تحول في النشاط الجغرافي والكارتوغرافي في العالم ، إذ انتقلتْ حركة الدراسات الجغرافية والكارتوغرافية من المشرق العربي الى المغرب العربي على ساحل البحر المتوسط . مما جعل بعض الباحثين ان يطلقوا اسم (عصر الادريسي) على فترة الانتقال هذه ، باعتباره يمثل جغرافي المغرب .[٨٢]

والغريب ان معرفة الناس بالادريسي لم تكن واسعة في المشرق الاسلامي . ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد أن خبيراً كبيراً بالادب الجغرافي مثل ياقوت الحموي لا يعلم عنه شيئاً على الاطلاق .

وقد توقف الابتكار العربي في الجغرافية بعد الادريسي واستنفذ طاقته الخلاقة بشكل نهائي خلال القرن الخامس عشر . الا ان الادب الجغرافي الملاحي ظل يحتل المكانة الاولى في الادب الجغرافي العربي طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ويمثل آخر تيار أصيل في هذا المجال حتى فترة متأخرة . ويبرز في هذا الميدان ابن ماجد [٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م] الذي أوجد أدق خارطة بحرية وتكاد تكون الاثر الوحيد الذي استعان بها [فاسكودي غاما]

في تطوافه حول الارض[٨٢]

وتبعاً لما تقدم يمكن تلمس ثلاثة اتجاهات في مصنفات الجغرافية العربية :

أ ـ الاتجاه الاول وتتمثل فيه عناية مركزية بأقاليم العالم الاسلامي والاقطار المجاورة له ، ويتمثل هذا الاتجاه في [مدرسة اطلس الاسلام] والكتّابالذين ساروا على منوالها .

ب ـ يتمثل الاتجاه الثاني بنوع من التخصص في قطر واحد أو منطقة معينة ، وهي تدخل ضمن موضوعات الجغرافية الاقليمية مثل تناول الهمداني لجزيرة العرب ، والبيروني فيما كتبه عن الهند ، ووصف ابن فضلان عن بلغاري الفولغا ، ويتمثل الاتجاه الثاني أيضاً في التخصص بمدينة معينة ودراستها من حيث جغرافيتها التاريخية وخططها وخصائصها الطوبوغرافية ، ويأتي اليعقوبي على رأس هذا الاتجاه .

جـ ـ الاتجاه الثالث وفيه تم التاكيد على المعاجم الجغرافية والموسوعات العامة ، حيث تميزت الفترة التي اعقبت القرن الخامس الهجري بظهور القواميس أو المعاجم الجغرافية مما عزز المكتبة الجغرافية العربية بمعلومات منسقة على النحو المتبع في عصرنا هذا . واشهرها معجم ما استعجم للبكري ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي الذي بلغ الاوج في نمط المعاجم .

كما ازدهر نمط الموسوعات العامة [دوائر المعارف] في عصر المماليك حيث افرد فيها للجغرافية مكانة بارزة ومنها الجغرافية العامة والسياسية .

وهذه الموسوعات هي خير ما أنتجه ذلك العصر ، حيث ميزت القرنين الرابع عشر والخامس عشر بهذا النمط من المؤلفات . واكبر تلك الموسوعات : [نهاية الارب] للنويري [٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م] ، و[صبح الاعشى] للقلقشندي ، و[مسالك الأبصار] لابن فضل الله العمري [٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م] .

وخاتمة القول : ان العرض والتحليل الذي تضمنه البحث أوضح وجود اتجاهات متعددة بين الجغرافيين العرب ، واختلاف في منهجهم العلمي ، ومستوى نضجهم الفكري ، فهم بين مقلد ومجدد ومبتكر . كما ان اسلوبهم الذي اتبعوه للوصول الى الحقيقة متباين ، فمنهم من اكد على الرواة دون تحقيق الرواية ، ومنهم من اعتمد على السؤال دون التحري عن مدى صحة الجواب ، ومنهم من اعتمد على مؤلفات غيره ، ومنهم من اتخذ الرحلة والمشاهدة والتثبت مما يسمعه او يقرأه اساس ما يكتب . ومنهم من جمع بين هذا وذاك .

الهوامش

(١) عدي يوسف مخلص ، المقدسي البشاري ؛ حياته ومنهجه ، ط ١ ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ .

(٢) محمد محمود الصياد ، من الوجهة الجغرافية : دراسة في التراث العربي ، دار الاحد البحيري ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١١ ـ ٢١ ، ونفيس احمد ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان ، سلسلة الالف كتاب (رقم ٢٧٢) ، دار القلم ، القاهرة ، ص ٢٥ .

(٣) كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، القسم الاول ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان ، جامعة الدول العربية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٤) نفس المرجع ، القسم الاول ، ص ٤٠ .

(٥) فيليب متي وآخرون ، تاريخ العرب (مطول) ، ج ١ ، دار الكشاف ، بيروت ، ١٩٥٢ ، ص ٥٦ .

(٦) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

(*) طريفا : فيه كان مصير الجودي الذي رسى عنده فلك نوح .

(٧) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٤٩ .

(٨) عن هذا الفرع من الجغرافية راجع : نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١١ ـ ١٢ .

(٩) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٦٠ ـ ٦١ .

(*) يقترن باسم الحجاج اول ذكر معروف لدينا عن الخرائط عند العرب حيث رُسمت خريطة (الديلم) بامر من الحجاج لغرض فرض الجزية عليها . وجاء ذكر (الصورة) في مناسبة اخرى حينما استبطأ الحجاج حصار قائدة لبخارى فارسل اليه صورة المنطقة سنة ٨٩ هـ/ ٧٠٨ م ثم بعث بتعليماته حول الخطط العسكرية الواجب اتباعها اعتماداً على تلك الصورة . كما وضعت خريطة اخرى لغرض الارواء في عهد المنصور ، أي في اوائل العصر العباسي (ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٨٣ ، والبلاذري ، فتوح البلدان ، الطبعة الاوربية ، ص ٣٧) .

(١٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٦٠ ـ ٦١ .

(١١) احمد سوسة ، الشريف الادريسي ، في الجغرافية العربية ، الباب الاول ، نقابة المهندسين العراقية ، طبع مكتب صبري ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ٩٤ .

(١٢) عباس فاضل السعدي ، « التوزيع الجغرافي لزراعة الخضراوات في العراق » ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٥٤ ، السنة ١٤ ، ابريل ١٩٨٨ ، ص ١٢٤ .

(١٣) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /ج ح ، دد .

(١٤) علي محمد المياح ، « مناهج الجغرافيا الاقليمية عند العرب في التراث والمعاصرة » مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ١ ، مجلد ٤٠ ، ١٩٨٩ ، ص ٢٣١ ، ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(*) هو كتاب الفه الفلكي والرياضي الهندي (ابراهيم كبت) سنة ٦٢٨ م بعنوان « سدهانت » ترجم في عهد الخليفة المنصور باسم « السندهند » .

(١٥) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٧٠– ٧٢ .

(١٦) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٧٢ – ٧٣ ، واحمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /٢٢٨ .

(*) بخصوص كروية الارض قال ابن رستة : « والارض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك قائمة في الهواء » . أو كما قال ابن خرداذبة (٢٨٠ هـ/ ٨٩٢م) أنها « مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة » . والدليل على ذلك أن « الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الارض في وقت واحد ، بل يُرى طلوعها على المواضع المشرقية من الارض قبل طلوعها على المواضع المغربية ، وغيبوبتها عن المشرقية أيضاً قبل غيبوبتها عن المغربية » (ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، المجلد ٧ ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٨ – ١٢ ، وابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، تحقيق دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٨٩ ، ص ٤) .

(١٧) ابن رستة ، مرجع سابق ، ٧ /١٠ .

(١٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٧٥– ٧٧ .

(١٩) نفيس احمد ، مرجع سابق ، ص ١٩ – ٢١ .

(*) يرى المرحوم الدكتور ابراهيم شوكة ان الخوارزمي قد اطلع على كتاب « جغرافيا » لمارينوس ، وليس لبطليموس ، إذ لم يطلع العرب على ترجمة كتاب بطليموس الصحيحة إلا في زمن متأخر بكثير من بعد المامون . وعليه فان الخوارزمي يكون قد تأثر بتراث أبناء عمومته الفينيقيين وليس اليونانيين (ابراهيم شوكة ، « تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به » مجلة الاستاذ ـ تصدرها كلية التربية ببغداد ـ العدد ٢٩ / ١٩٦ ، ص ٢٢) .

(**) الميل العربي يساوي ١٩٧٣ م (أو اقل من الكيلومترين بقليل)

(٢٠) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

(٢١) قدري حافظ طوقان ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ط ٣ ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٩

(٢٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٨٣ – ٨٤ .

(٢٣) عباس فاضل السعدي « البيروني : أشهر عباقرة زمانه » ، مجلة العربي ، الكويت ، العدد ١٦٢ ، مايو (ايار) ١٩٧٢ ، ص ١٠٢ .

(٢٤) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ط ٢ ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٥٢ ، وصبري محمد حسن ، الجغرافيون العرب ، ج ١ ، مطبعة القضاء ، النجف ، ١٩٥٨ ، ص ١٥ .

(٢٥) غوستان لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٥١ – ٥٥٢ .

(٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، روائع التراث العربي (رقم ٤) ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٣٣ .

(٢٧) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٨١ .

(٢٨) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /٩٥ .

(٢٩) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٢٤ – ١٢٥ .

(٣٠) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ١٩٧١ ، ص ١٣٠ .

(٣١) ابن خرداذبة ، مرجع سابق ، ص ٣ .

(٣٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ط ٣ ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٧ ، ص ٣ – ٢٣ .

(٣٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الاول ، دار صادر دار بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣٠ .

(٣٤) ابراهيم شوكة « كتاب الاقاليم المؤلفة الاصطخري » ، مجلة الاستاذ (تصدرها كلية التربية ببغداد) ، المجلد العاشر ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٠ .

(٣٥) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /١٠٠– ١٠١ .

(٣٦) ابراهيم شوكة ، كتاب الاقاليم ، مرجع سابق ، ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٣٧) الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني ، مراجعة محمد شفيق غربال ، ج ع م ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٥

(٣٨) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٣٩) الاصطخري ، مرجع سابق ، ص ٩ .

(٤٠) نفس المرجع ، ص ٩ .

(٤١) المقدسي البشاري ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط ٢ ، بعناية دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص ٩ .

(*) الانثروبولوجيا : هو علم الانسان ويبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته .

(٤٢) راجع مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ، عناية دي غوية ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٤ –٥ وقارنها مع المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ص ٤ .

(٤٣) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٠ .

(٤٤) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /١٠٢ .

(٤٥) احمد أبو سعد ، أدب الرحلات وتطوره في الادب العربي ، ط ١ ، منشورات دار الشرق الجديد ، سلسلة الفنون الادبية عند العرب (رقم ١٠) ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢١ . انظر ايضاً : رحلة السيرافي ، دار منشورات البصري ، مطبعة دار الحديث ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ٢٩ ـ ١٠٨ . الفنون الادبية عند العرب (رقم ١٠) ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢١ .

(٤٦) نفس المرجع ، ص ٤٨

(٤٧) نفس المرجع ، ص ١٧٤ . راجع ابن بطوطة ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة مصطفى محمد القاهرة ، ١٩٣٨ .

(٤٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٦ – ١٣٧ .

(٤٩) أحمد أبو سعد ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .

(٥٠) ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ط ٢ ، (القسم الاول) ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ص ٢ –٣ .

(٥١) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /١٠٢ .

(٥٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٦ .

(٥٣) احمد بن فضلان ، رسالة بن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٩ .

(٥٤) نفيس احمد ، مرجع سابق ، ص ٣٢ – ٣٣ .

(٥٥) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /٤٩ .

(٥٦) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٤ – ١٣٦ .

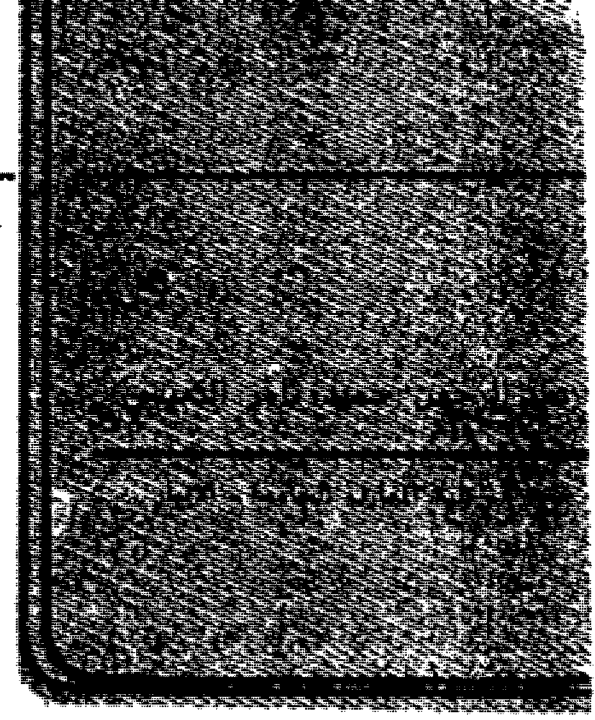
(٥٧) نفس المرجع ، ١ /١٣٨ – ١٣٩ .

(٥٨) عباس فاضل السعدي ، البيروني ، مرجع سابق ، ص ١٠٢ .

(٥٩) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .

(٦٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١/ ٢٢٨ .
(٦١) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٩ .
(٦٢) نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، سلسلة الالف كتاب (رقم ٩٧) ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٦ .
(٦٣) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٩ .
(٦٤) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /ع .
(٦٥) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٦ .
(٦٦) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /غ .
(٦٧) نفس المرجع ، ١ /لا .
(٦٨) زهير الكتبي ، محمد بن موسى الخوارزمي ، سلسلة علماء العرب (رقم ١) ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ١٤
(٦٩) اليعقوبي ، مرجع سابق ، ص ٢ .
(٧٠) ابن حوقل ، مرجع سابق ، ص ٢ .
(٧١) المقدسي ، مرجع سابق ، ص ١ ـ٨ .
(٧٢) نفس المرجع ، ص ١ .
(٧٣) نفس المرجع ، ص ٤ .
(٧٤) أبو الفدا ، كتاب تقويم البلدان ، تحقيق رينود وديسلا ، دار الطباعة السلطانية باريس ، ١٨٤٠ ، ص ١ ـ٢ .
(٧٥) حول تصنيف هذه المدارس راجع : احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /دد ، ونقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، مرجع سابق ، ص ١٧ ، ٣١ ـ ٣٣ .
(٧٦) المقدسي ، مرجع سابق ، ص ٤
(٧٧) قارن بين ما كتبه الاصطخري (ص ١٥ ـ ١٩) وبين ما كتبه ابن حوقل (ص ٢ ـ ٥) لنجد التشابه الكبير بل حتى ترديد نفس العبارات بينهما .
(٧٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
(٧٩) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /لا .
(٨٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٢١٥ .
(٨١) نفس المرجع ، ١ /٢٨٩ ـ ٢٩٢ .
(٨٢) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /ب ب .
(٨٣) صبري محمد حسن ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

• • • •



الشعر وثورة العشرين

مما لا شك فيه ان ثورة العشرين تعد نقطة تحول في تاريخ العراق الحديث . واستطاعت ان تقلب الموازين فيما بعد وتسهم بشكل فاعل في ايقاظ الشعور الوطني ومن ثم تاسيس الدولة العراقية . وهو الهدف الذي كان يسعى اليه الثوار في اقامة حكومة وطنية فضلا عن اثارة الرغبة في نفوس الشعب لكي تتوق الى الحرية والاستقلال .

لذلك ستظل هذه الثورة منقوشة في ذاكرة الاجيال . وقد حظيت بكثير من الاهتمام من قبل المخلصين والمفكرين لابراز الدور الوطني للشعب العراقي الغيور وتحصين تاريخ هذه الثورة العظيمة من اية مفاهيم تحاول التقليل من اهميتها التاريخية .

والثورة تقدمتها ظروف وطنية مهدت لاندلاعها وكانت الفترة السابقة للثورة تعد ضمن الفعل الثوري « لان الحركات الثورية لا تحدد من خلال فوهة البندقية وكان الرصاص واراقة الدماء هي الامور الوحيدة التي تحدد بداية الثورة فالثورة ابعد واعمق من ذلك . فهناك ثورات لا تراق فيها قطرة دم ولكن التغيير فيها كبير جداً »[١]

واذا كانت الثورة قد انتهت الى « غير ما كان يطمع العراقيون ويبتغون فليس بمستغرب ان يخسروا معركتهم الرهيبة هذه ضد دولة كبيرة تملك قوة وباساً ولكن يكفي العراقيين فخراً انهم خاضوا غمار القتال واقتحموا استار القتام ضد هذه الدولة القوية وهم على علم بقوتها وبطشها . على ان هذه الثورة كانت ثورة كرامة وشرف وليست فقط نزالا متكافئا بحال من الاحوال »[٢] .

ولعل تتويج الملك فيصل في ٢٣ / ٨ / ١٩٢١ بتنصيبه ملكا على العراق ياتي ارضاء لمطالب الثوار . لذلك نحن مخيرون القول ان التتويج من نتائج هذه الثورة حيث « لم تجد بريطانيا بدا من تنفيذ ذلك »[٣] واذا لم يخرج الانكليز « نهائيا من البلاد او القضاء على نفوذهم قضاء مبرما الا انها نجحت الى حد ما في تبديل الحكم الاستعماري المباشر الى حكم وطني »[٤] .

واستمرت روح الثورة فيما بعد في تواصل المشاعر الوطنية التي ظلت متدفقة حتى عندما توقفت المقاومة المسلحة فاستمر المناضلون في مواجهة الاحتلال البريطاني بطرق اضعف ايمانا ولعل من ابرزها سياسة الادب والثقافة ومنها الخطب الحماسية والاحتجاجات الكلامية والجمعيات والتظاهرات والصحافة وغير ذلك فضلا عن الصوت المميز وهو صوت الشعر الوطني العراقي . فكان مؤازرا وهاديا وموجها لمقاومة الانكليز . وكان للشعراء صولات وجولات اسهمت في زيادة حماس الجماهير في الوقت الذي « كان الوعي الوطني في العراق يسير سيرا وئيدا نحو نهاية غير واضحة في نفوس الجماهير »[٥] وسواء كان ذلك قبيل او اثناء او بعد الثورة حيث كان له الدور الواضح في تاجيج الرغبة للانتقام من الانكليز وتصعيد الشعور الشعبي والوطني المعادي لهم . الامر الذي ساهم في انتشار هذه الثورة كما تنتشر النار في الهشيم « الى كافة انحاء العراق المختلفة بعد ان بدات من الرميثة ـ بين الديوانية والسماوة »[٦] فكان للشعر اثره الواضح .

واذا كان من متطلبات البحث العلمي ضرورة استقصاء الشعر في هذه المناسبة غير العادية . فليس من المفيد لنا ان ننكر صعوبة ذلك ومن اجل ان لا نبتعد عن الحقيقة فنعمد الى اختيارات تشكل نموذجا لهذا الشعر وهي لا تمثل مجمل الشعر الذي قيل في هذه الثورة التي انفجرت تحديدا يوم ٣٠ / ٦ / ١٩٢٠ عندما تعرض الانكليز للشيخ شعلان ابو الجون و « قد خلقت جواً من التفاؤل والاستماتة في سبيل تحقيق هدفها في تحرير العراق وقيامه بدور فعال في العمل على تحقيق الاماني القومية »[٧] وكان فيمن ساهم عدد من الشعراء واكبوا الثورة من خلال قصائدهم [٨] التي نددوا بها بالانكليز والتحريض على مقاومتهم لاسباب مصيرية ووطنية ودينية وكانت امتدادا لما كان قبل الثورة من خلال مقاومة الانتداب والدعوة الى اقامة حكومة عراقية .

ونجد في مقدمة الذين واكبوا الثورة الشاعر الكبير محمد مهدي البصير رحمه الله وكانت قصائده تلقى على مسامع

المتظاهرين فتزيدهم حماسا حيث الشعور الوطني الصادق. ومما تجدر الاشارة اليه ان الشاعر البصير كان صوته مجلجلا قبل اندلاع الثورة ففي يوم ٢٥ / ٥ / ١٩٢٠ كانت له مقطوعة عندما اطلق الانكليز الرصاص على المتظاهرين :(٩)

غضبنا فقمنا ثائرين لغاية   تهون المنايا دونها والمشانق
وردت الاجواء قصف زئيرنا   فردت عليه بالدوي البنادق
فهل تنطق الزوراء وهي اسيرة   وتسكت عما تبتغيه المناطق
اتمنع ابناء العمومة نصرها   وما هي كانت ان تضيق المخانق
امالهم من حكمة الراي قائد   وما لهم من قوة العزم سائق

وكذلك انعكست هذه المعاني بوضوح في قصيدته (ياعلم) التي ثار البصير فيها ثورة عارمة ومنها هذه الابيات :

خطب تهز الشعب هاتفة به   ليهب هبة ناهض سباق
ويثور شبوب العزيمة معلما   والنصر فوق لوائه الخفاق
متطلعا للمجد مفتديا له   ازكى النفوس والنفس الاعلاق
مستبسلا والهام تحصرها الظبا   حصد الخريف ذوابل الاوراق
يلقى الحياة بثورة في ظلها   يلقى الحمام بفرحة المشتاق
متكاتفا رغم المكايد واثقا   بعزيز نصر الواحد الخلاق

وجدير بالذكر ان هذه القصيدة كانت من بين المستندات التي ابرزها القاضي البريطاني وحكم عليه بالحبس الشديد لمدة سنتين ويدفع غرامة قدرها ثلاثة الاف روبية اي خمسة وعشرون ومائتا دينار. الا ان المندوب السامي الذي احيل اليه هذا الحكم للمصادقة عليه استبدل به الحبس الشديد لمدة سنة واحدة فقط.

وحينما ثار العراقيون على الانكليز وتلاحم السيفان نظم البصير عدة قصائد اتسمت بطابع القوة والباس منها قصيدته المشهورة (وأبيك ان الحق غالب) التي انشدها في حفلة ثورية كبرى اقيمت بجامع الحيدر خانه بعد ان استولى الثوار على النجف وكربلاء وعلى مدن اخرى في اواسط الفرات وعلى دلتاوة وبعقوبة في ديالى وقد استهلها بقوله :

بين الاسنة والقواضب   شرف المبادىء والعواقب

وللبصير شعر كثير اودعه كله في ديوان سماه (البركان) ويعده الدكتور رؤوف الواعظ (شاعر الثورة العراقية) فيقول عنه : وضع في ابياته والفاظه جمرات متقدة ثم نفخ فيها من روحه فكانت نارا ملتهبة تلفح وجوه الانكليز الغادرين.

واستمر البصير في كفاحه الشعري مشاركا في الحفلات والمهرجانات يثير همم الثوار وينال من المحتلين وكاشفا الاعيبهم ومعييا على المتخاذلين الذين لم ينالوا شرف المساهمة في هذه الثورة وراحوا يغازلون الانكليز وتعدى ذلك الى ان يقترح الاراء التي بالامكان التوصل الى حلول تخدم البلاد والعباد. وتحرير الشعب من التبعية فقد « كانت الحرية حبيبة الى قلوب الشعراء العراقيين فانهم بطبيعة الحال مقتوا الحكومات التي تقيدت الحريات وتحرقوا شوقا الى حيث ابناء شعبهم على التخلص من حكم الظلم والاستبداد »(١٠). ومن هؤلاء الشعراء الذين كانت لهم مساهمات في الثورة(١١) :

الشاعر كاظم السوداني فيقول في قصيدة منها :

بني العرب خلوا السلم قد حانت الحرب   وانتم بها اولى واجدر يا عرب
دعوا الضيم عنكم واطلبوا بحقوقكم   فقد غصبت قسرا وضيمها الغصب
الى الان جيش الظلم وسط بلادكم   وما انتاش في اثقاله النهب والسلب

والشاعر محمد حبيب العبيدي الموصلي نظم قصيدة في بداية الثورة في تموز ١٩٢٠ ومما قاله يخاطب الرسول الاعظم :

سيد الرسل ومن بعثته   كست الكون بهاء ونضارا
قم الى النورالذي جئت به   افترضى ان يسود النور نارا
يقتل الباطل عمدا حقنا   رمى الباطل لا نطلب ثارا
نحن احرار لدى فصل الخنا   ولدى حرية الفكر اسارى

وللشاعر عطا الخطيب قصائد ادخلته السجن ونفي بسببها ومن ضمن مجموعة خطية كانت عند الاستاذ ابراهيم الوائلي في قصيدة يقول :

الا انهض ونز فيما تحاول يا شعب   فما انت من يثنيه سهل ولا صعب
الام الام الحلم والشرق كلما   اراد امتطاء المجد عارضه الغرب ؟
لعمرك ان الحلم يا شعب بعد ذا   لذنب عظيم لا يماثله ذنب
تنشط وثب وازحف وجاهد ولا تدع   مجالا بان يرعى شويهاتك الذئب

وللشاعر الشيخ عبد الحسين الحويزي (ت ١٩٥٧) بعض القصائد في الثورة

ايطلق شعبنا للزحف ساقا   وكم خطب له الحدثان ساقا
لقد عقد الضغائن فيه خصم   بخدعته يحتل العراقا

والشاعر محمد علي اليعقوبي (ت ١٩٦٥) شعر اوحته اليه حوادث الثورة ومن قصيدته (تحية الثوار) وكان قد ارسلها الى جماعة من المرابطين في جبهة السماوة والرميثة حيث يشتبك الثائرون مع جيش الاحتلال ومنها قوله :

احبتنا بساحات الكفاح ثقوا بالنصر فيها والنجاح
نفرتم للوغى لما دعاكم لها الداعي بشوق وارتياح
ففرتم بالفخار بها وابت اعاديكم بخزي وافتضاح

والشاعر خليل عزمي له صوت بارز فعندما اجتمع المجلس الحربي في كربلاء وقرر تعيين المتصرف في المدينة استبشر السكان ورفعوا العلم العربي بالوانه الاربعة وقال قصيدة في هذه المناسبة منها :

بشراك يا كربلا قومي انظري العلما على ربوعك خفاقا ومبتسما
وكفكفي دمعك الهطال وابتهجي فان بند بني قحطان قد حكما
هذا هو العلم المحبوب فاحتفلي عليه يا كربلا واستنهضي الهمما

وللشاعر عباس الخليلي قصيدة في الثورة من جملة قصائده التي ساهم فيها ومطلعها :

اما وغمام يشبه الظلم اسودا ورعد حتى قصف المدافع بالصدى

ومن الشعراء الحاج عبد الحسين الازري (ت :١٩٥٤) فقد القى قصيدة في حفلة التابين التي اقيمت في رثاء الشيخ الشيرازي الذي توفي والثورة ما زالت ناشبة فكان لوفاته اثر كبير في نفوس الثائرين منها :

منعاك عز على العراق الدامي وامضه يا خاتم الاسلام
صدع القلوب حديث نعيك فدخلت دار حميت ذمارها من حسام
كانت تفنده المسامع خشية من عبئه بفوادح الالام

وللشاعر خيري الهنداوي (ت :١٩٥٧) قصيدة على نفس الوزن في المناسبة وكان منفيا في جزيرة هنجام ضمن مجموعات كبيرة من الثوار ومنهم الشعراء توزعوا بين سجن ونفي وبقيت اصواتهم امثال الشاعر الشيخ محمد جواد الجزائري والشاعر محمد حسن ابو المحاسن والشاعر السيد هبة الدين الشهرستاني وغيرهم .

واذا اردنا ان ننصف القول ونوفي الحق فاننا نستطيع ان نذكر بان الشعر العراقي الوطني كان تاريخا للاحداث السياسية وكثيرا ما يقف الشاعر موقف المعارضة والهجوم من السلطة ويشير الى مساوىء الانظمة الحاكمة وكان من الشعراء الكبار الذين تميزوا في الشعر السياسي في العراق امثال الرصافي والشبيبي والزهاوي والكاظمي وعلي الشرقي لذلك ياتي التساؤل اين هؤلاء الشعراء الكبار من ثورة العشرين ؟

ربما لا تتفق الثورة مع منظورهم السياسي او لسفرهم خارج القطر او لمصلحة شخصية [١٢] وتملق البعض للانكليز « شانهم في ذلك شان الملوك والامراء مع شعراء المدح والتكسب وفريق اخر لم يتاجر بالنظم ولم يكتسب بالشعر وانما خدعته الوعود ... ومن امن بالثورة وعمل في سبيلها ولكن جانبها السياسي شغله عن التخيل والتعبير في صورة من صور الشعر »[١٣] ولا نريد هنا ان نضع كل شاعر في دائرة تقصير معينة فاذا كنا لا نجد لهم شعرا في هذه المناسبة فليس من اليسير ان نحكم على وطنيتهم من خلال هذا الموقف فقط فان لهم مساهمات اخرى في مواقف لمناسبات وطنية ساهموا بها .[١٤]

وانتهت ثورة العشرين من المواجهات الحربية وتوقف الثوار عن اطلاق النار يوم ٢٠ / ١١ / ١٩٢٠ فيما استمر الشعر في تخليد هذه الذكرى سواء بذكر الخيبة والفشل او رثاء الشهداء او تمجيد البطولات او تذكر الذين سجنوا او نفوا عن الوطن وتعقب الاستاذ ابراهيم الوائلي الشعراء الذين كانت لهم الاستمرارية في ذكر الثورة [١٥] وفي مقدمتهم الشاعر المناضل محمد مهدي البصير وقد نظم شعرا استوحاه من نهاية الثورة ومنه قوله :

كافحت اعدائي ولست بواثق ان النجاح مقدر لكفاحي
لكنما وطني دعا فاجبته وابيت للباغين خفض جناحي
ولئن رجعت بغير ما املته ونزعت من يد قاهري سلاحي
فلقد افدت من المصائب خبرة ستكون عند العود سر نجاحي

ويعبر الشاعر سعد صالح عن الخراب الذي اصاب القرى وقد انتهت الثورة وترك البلاد فارا فيقول :

سئمت العيش في وطن يضام يذل ويضطهد
محته يد القضاء فرا ح لا روح ولا جسد

وغيرهم من الشعراء الذين ذكروا الثورة وتاملوا وتالموا من النهاية او وصفهم للمعارك او المطالبة ببعض الحقوق والتعريض بالانكليز وسياستهم والاخذ بالثار والحث على مواصلة الكفاح ومن هؤلاء الشعراء محمد الباقر ومحمد مهدي الجواهري وكان شابا والشاعر عبد الرحمن البناء والشاعر حسن الحاج علي وغيرهم .

واذا تاملنا هذا الشعر الذي قيل في ثورة العشرين نلمس بصدق الشعور الديني والعواطف الجياشة والاحساس الوطني ونعده شاهد حق ودليل صدق على مساهمتهم ووقفتهم البطولية الرائعة وتعاطفهم مع الشعب وقادة الثورة واذا كنا نلمس التكلف احيانا وتضمنه النصائح المجردة واقتفاء الشعر التقليدي في احيان اخرى وضعف في

الصياغة فانه ليس من المستساغ في هذه العاجلة ان نضعهم في دائرة النقد الادبي ونقيس اشعارهم على نحو ما نريده هذه الايام من مصطلحات لم يكونوا معنين بها في تلك الظروف الحرجة وكانت بشكل مفاجيء وكانت الثورة في فترة زمنية قصيرة وزيادة على ذلك وجد الشعراء انفسهم مع الثورة وجها لوجه لا مجال للغموض او الصور الخيالية لان الواقع غير مالوف لهم امام عدو غاشم وقوي .

ولكن ننظر من زاوية المواقف الوطنية حيث كانوا لا يخشون شيئا في اعلاء كلمة الحق والنضال في سبيل الحرية والكرامة والاستقلال .

الا ليس من حق هؤلاء الشعراء ممن ذكرنا او لم نذكر ان نترحم عليهم ؟ ونقف باحترام نحيي فيهم صولاتهم وجولاتهم ؟ ونذكر لهم مواقفهم الوطنية ونسجل بالتقدير والاعتزاز تلك القصائد التي نظموها وساهموا في القائها ؟ بلى لعمري انهم يستحقون ذلك ولعل هذه المبادرة في تخصيص عدد خاص عن ثورة العشرين وزاوية ضمن هذا العدد عن الشعر في ثورة العشرين ياتي من مستلزمات الوفاء .

الهوامش :

(١) الفكر السياسي لثورة العشرين نديم عيسى وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٩٢ ص :٦ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث ـ الدكتور رؤوف الواعظ/ وزارة الاعلام العراق/ دار الحرية ١٩٧٤ ص :٢٨٥ .

(٣) النظام السياسي في العراق / د . محمد عزيز / بغداد / ١٩٥٤ :٦٥ .

(٤) معروف الرصافي ـ حياته وادبه السياسي ـ الدكتور رؤوف الواعظ دار الكتاب العربي :٥ .

(٥) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ الدكتور عبد الله الفياض مطبعة دار السلام بغداد : ١٠٧ .

(٦) العراق ـ شهادة سياسية ١٩٠٨ ـ ١٩٣٠ حسين جميل دار اللام لندن :٥٣ .

(٧) الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية حـ ١ /السيد عبد الرزاق الحسني ـ وزارة الثقافة والاعلام دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٠ :١٩ .

(٨) تناول هذا الموضوع تفصيلا الاستاذ ابراهيم الوائلي في كتابه الشامل بعنوان ثورة العشرين في الشعر العراقي مطبعة الايمان بغداد ١٩٦٨ الصفحات :٦٥ وما بعدها .

(٩) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث :٩٤ .

(١٠) النقد الاجتماعي الساخر في الشعر العراقي الحديث رسالة دكتوراه الدكتورة ابتسام عبد القادر :٢٢٩ .

(١١) ثورة العشرين في الشعر العراقي :٧٥ ـ ١٢٠ .

(١٢) تطور الشعر العربي الحديث في العراق الدكتور علي عباس علوان ـ دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والاعلام العراق بغداد ١٢٣ ـ ١٢٩ .

(١٣) ثورة العشرين في الشعر العراقي :٢٣ .

(١٤) معروف الرصافي حياته وادبه السياسي :٥٠ .

(١٥) ثورة العشرين في الشعر العراقي :١٢١ ـ ١٤٩ .

★★★

المكاتبات الرسمية الاندلسية في عهد الموحدين

د. محمد مجيد السعيد
جامعة صدام للعلوم الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل :

النثر والشعر صنوان متسابقان في حياة الامة العربية منذ أيام ما قبل الاسلام، ثم غدت للكلمة أهمية عظيمة ومنزلة كبيرة لدى العرب اجمع وذلك بنزول القرآن الكريم الذي كان يمثل تحدياً لهم في ميدان لاحب فرسانه وأبطاله ، يتبارى الرجال فيما بينهم بالكلمة المحكمة أو بالعبارة المتقنة أو بالبيت الشعري المبدع الذي يثير أعجاباً او يوجد دهشة او يخلق انبهاراً . فتتناقل الالسن تلك الحكايات والمقولات ذات الافكار والمعاني الطريفة النادرة . واذا كان الشعر ــ كما قيل ــ ميدان العرب ، فالنثر سجلهم الذي دونت فيه كل مآثرهم وأخبارهم ، وكثير من تفاصيل حياتهم ، وبخاصة حياتهم السياسية والعسكرية وما يتعلق بالفتوحات ونشر الدعوة الاسلامية في أصقاع المعمورة شرقاً وغرباً ، بل ان تاريخ الملوك والسلاطين والامراء وما يدور حولهم يمثل صفحات واسعة وعريضة من تراث الامة العربية ، واذا كان النثر التاريخي لا يدخل ضمن موضوعنا فان المكاتبات الرسمية التي صدرت من مركز الحكم الى الامراء والولاة والحكام والقضاة وغيرهم من اتباع السلطة الذين يمتثلونها وينفذون اوامرها وتوجيهاتها ، وكذلك المكاتبات التي صدرت من هؤلاء واولئك لتمثل بالتاكيد جانباً اساسياً في معرفة حركة الدولة ومسيرتها وتوجيهاتها ، ولكنها في الوقت نفسه تدخل ضمن النثر الفني الابداعي لما تتمتع به من خصائص ومميزات فنية وأسلوبية وبلاغية ، وما تحرص عليه من طرائق وقواعد وأسس هي بمثابة مراسيم تقليدية متبعة لدى الكتاب ، لا يحيدون عنها الا ليسلكوا طرقاً او قواعد اخرى احسن منها وأفضل ، ناهيك عما يولون كتاباتهم من عناية ودقة ، وجهد وتثقيف ، محاولين افراغ كل ما لديهم من قدرات فنية وأدبية وما تحتويه جعبتهم من معارف ومعلومات وخبرات ثقافية فيما يكتبونه ويصوغونه لان كتاباتهم تصدر من اعلى شخصية في الدولة او ترد اليه . فالكتابة في مثل هذا الميدان هي مباراة واظهار قدرات وامكانات ، وهي سباق بين فحول ، فالذي يكبو قد لا تتاح له فرصة للوقوف واللحاق بالركب فيخسر كل شيء ، حتى حياته في بعض الاحيان .

وكانت للرسائل والكتب الرسمية اصول محددة من حيث الابتداء والاختتام وذكر اسم المكتوب عنه او المكتوب اليه ، ومن حيث البسملة والدعاء ، ومن حيث البسط والايجاز وفي ترتيب السجعات وعددها وطول العبارة ، وقصرها . ومن حيث الاستشهاد بالايات القرآنية والاحاديث النبوية والاقوال الماثورة والاشعار السائرة ، وما يقتضيه كل مقام او موضوع من مستلزمات وأساسيات الكتابة الرسمية والديوانية منها بشكل خاص ، لا يستطيع الكاتب ان يتجاوزها او يغفلها عندما يكتب ، ولقد خصص القلقشندي كتابه « صبح الانشا في صناعة الانشا » لمعالجة النثر العربي ، وتعرض بالتفصيل لقواعده وأصوله وكل جزئياته المتعلقة به ، وكان للنثر الديواني القسط الاوفى من المؤلف ، والحق ان كاتب الرسائل في كل عصر كان يتمتع في الدولة الاسلامية بمكانة رفيعة يغبطه عليها أقرانه ونظراؤه فموقعه « في ارفع محل وأشرف قدر ، يكاد ان لا يكون عند الملك أخص منه ولا الزم لمجالسته ، .... يلقون اليهم أسرارهم ، ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونهم على ما لم يطلع عليه أخصّ الاخصاء من الوزراء والاهل والولد »[1] .. ولكونه يحظى بهذه المنزلة ويتمتع بهذه المكانة من دست الحكم فانه يمثل اليد اليمنى للسلطان ومستودع

اسراره وشريك ذهنه وفكره ، » وانه اول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه ، والافضاء اليه بمهماته ، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، فهو لذلك لا يثق باحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن الى قريب ولا نسيب ركونه اليه ، ومحله منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محل قلبه الذي يؤامره في مشكل رأيه حتى يتنقح ويراجعه في مهم تدبيره حتى يتضح ، ولسانه الذي يقرر بترغيبه أولياءه على الطاعة والموافقة ، ويستنفر بترهيبه عن المعصية والمشاققة ، ويقرّ باوامره ونواهيه أمور سلطانه ، وينزلها منازلها في متمهد مجالسها ، ويتمكن من سياسة أجناده ، وعمارة بلاده ، ومصلحة رعيته وأجتلاب مودتهم ، واستخلاص نياتهم »[٢] .

ومن هنا تتضح لنا خطورة موقع كاتب الرسائل والصلاحيات المعطاة اليه ، حتى لكانه شريك الملك ، وصنوه ، فباشارة منه او كلمة يرفع أناساً ويحط آخرين ، اما قلمه فانه « لسان الدولة ، وفارس الجولة ، ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة ، وهو البشير والنذير ، والشفيع والسفير ، به تستخلص الصياصي[٣] ، وتملك النواصي ، ويقتاد العاصي ، ويستدني القاصي ، وصاحبه بريء من التبعات ، آمن كيد السعات[٤] » .

وتاسيساً على ما سبق فقد كانت وظيفة كاتب ديوان الرسائل من ارفع الوظائف وأشرفها وأخطرها ، وكان لابد من ان يتصف من يختار لهذا الموقع ، بعدة صفات خلقية وخلقية ، اضافة الى تمكنه من الكتابة وتفوقه في النثر خاصة ، ولقد تعرض القلقشندي لصفات من يرشح لهذه الوظيفة[٥] وأهمها « ان يكون صبيح الوجه ، فصيح الالفاظ ، طلق اللسان ، اصيلاً في قومه رفيعاً في حيه ، وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل ، كثير الاناة والرفق ، قليل العجلة والخرق[٦] ، نزر الضحك ، مهيب المجلس ، ساكن الظل ، وقور النادي ، شديد الذكاء ، متوقد الفهم ، حسن الكلام اذا حدّث ، حسن الاصغاء اذا حُدّث ، سريع الرضا ، بطيء الغضب ، رؤوف بأهل الدين ، ساعياً في مصالحهم ، محباً لاهل العلم والادب ، راغباً في نفعهم ..... وان يكون من كتمان السرّ بالمنزلة التي لا يدانيه فيها أحد ، ولا يقاربه فيها بشر ، حتى يقرر في نفسه امانة كل حديث يعلمه ويتناس كل خبر يسمعه »[٧] ، وعلى كل حال فان ما ذكر عن اهمية الكاتب ودوره في تسيير دفة الدولة والتاثير في حركتها وتوجهاتها ، وعن خطورة قلمه وما يكتبه عن سيده وما اشترط للمؤهلين لهذه المواقع من سمات وخصائص وصفات جسمانية وعقلية وثقافية ، كل ذلك يشير بصراحة الى اهمية الناثر الرسمي ، والى خطورة الكتابة الرسمية والديوانية منها بشكل خاص في حياة الامم والشعوب ، وما قد تاتي به من خير على الدولة او ما قد توقعه من خراب بها . ومن هنا فاننا نتوقع ان يتصف مثل هذا النثر في تراثنا بالدقة في اختيار العبارات والجمل ، وحسن انتقائها ، وبالموضوعية والوضوح وتجنب كل ما من شانه الابتعاد عن ذلك او الخروج عنه ،

واذا عدنا الى موضوع بحثنا فانه يتحدد في السنوات التي حكم الموحدون فيها الاندلس حتى خروجهم منها وقيام دولة بني الاحمر في غرناطة بحدود ما بين سنة ٥٤٢ هـ وسنة ٦٤٦ هـ . كما انه يقتصر على معالجة الموروث الكتابي الذي صدر من امراء المؤمنين الموحدين او من احد أبنائهم الملوك والامراء الى ولاة الاندلس وحكامها وشعبها او بالعكس .

ولم نتعرض لمراسلات نثرية وقعت بين دويلات اندلسية اخرى لم تكن تابعة للعرش الموحدي وبين تابعين ، لان ذلك سيوسع رقعة البحث ، على رغم ما في الامر من تداخل ، لان النثر في هذه الفترة الزمنية لا يخرج بطبيعته وأساليبه ورسومه عن الاطار العام الذي يحكم نثر العصر ، ولان الكتاب هم انفسهم الذين كتبوا لهؤلاء واولئك ، من امثال ابن الابار وابي المطرف بن عميرة وغيرهما .

تميز عصر الموحدين بانه كان عصراً مشحوناً بالاحداث والصراعات والثورات السياسية والاعمال العسكرية ، والانتصارات والانهزامات ومملوء بالنشاطات الثقافية والادبية والفكرية ، والدينية ، فهو عصر ثرّ وغني بموروثه في مختلف المجالات والميادين ، واننا نعتقد بان للنثر الرسمي قسطاً وافياً من هذا الموروث ، فلقد كانت الرسالة أسلوباً ناجعاً للتواصل ، بل هي من أهم أساليب توصيل أوامر القيادة الى الاخرين وتوجيهاتها وتصوراتها في تسيير دفة الحكم ، وكيفية التعامل مع فئات الشعب ، وكيفية ردع أعداء الامة من الطامعين والثائرين والمتمردين ، ولكن وبنظرة سريعة الى ما هو متوفر من رسائل ومكاتبات رسمية أبان عصر الموحدين ندرك بان هذا الموروث لا يشكل الا جزءاً يسيراً من التراث الادبي لهذه الفترة ، ولا يغطي الا زمناً قصيراً من أزمنتهم

الطويلة التي استغرقت بحدود القرن ، وليس من تفسير لذلك سوى ضياع تلك المراسلات وفقدانها من خزائن المسؤولين والحكام ، مع الوف المؤلفات التي فقدت واندثرت من تراثنا الاندلسي اثناء تعرض البلاد للتخريب والتشريد والاضطهاد ، وما عاشته من ايام سود على ايدي الاسبان المتطرفين الذين بذلوا كل جهدهم وامكاناتهم للقضاء على كل ما يمتّ الى الاسلام والعروبة بصلة ، ومع ذلك فان المتوفر من مكاتبات الموحدين الرسمية يسعفنا في رسم ملامح النثر الاندلسي الرسمي للفترة المذكورة والتعرف على خصائصه وأساليبه وأصول بناء الرسالة ، وما أصابها من تطور او تقهقر خلال ذلك القرن من حكم الموحدين .

ولقد عرفت هذه الفترة كتاباً كباراً وأسماء لامعة من الاندلسيين في ميدان الكتابة الرسمية من أبرزهم : ابو جعفر بن عطية وأخوه ابو عقيل ، وابو عبد الله بن عياش ، وابو الحسن بن عياش ، وابو الحكم بن المرخي ، وابن سعيد المغربي : الاب والابن ، وأبو الحسن الرعيني ، وخلف الغافقي القبتوري ، وأبو المطرف بن عميرة ، وابن الجنان ، وابن الابار .

ويمكن التعرف على تراثهم في المصادر التي نقلت مكاتباتهم ، ومعظم المصادر اورد تلك النصوص في معرض الحديث عن احداث سياسية او اخبار رسمية ، ولكن بعضها الاخر أفرد مؤلفاً مستقلا لتلك النصوص . فمن المصادر التي احتوت شيئاً من رسائل الموحدين الاندلسية لفترتنا ، نظم الجمان ، المن بالامامة ، البيان المغرب ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القدح المعلى ، الذيل والتكملة ، الانيس المطرب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، نفح الطيب ، أزهار الرياض ، صبح الاعشى ، وغيرها .

اما الكتب التي انفردت لرسائل موحدية اندلسية فمنها كتاب « مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية » ، « وكتاب رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي من انشاء خلف الغافقي القبتوري » ، ومجموع ابي المطرف ابن عميرة » .

ومن دراسة النصوص المتوفرة للرسائل الموحدية الاندلسية في عصر الموحدين نستطيع ان نصنفها الى صنفين :

الاول : الرسائل التي وجهها الديوان الرئاسي للدولة الذي كان يمثله امير المؤمنين الموحدي ومقره مراكش الى السادة الموحدين من ملوك البلدان ورؤسائها وأمرائها وحكامها او توجه الى الناس والطلبة .

الثاني : الرسائل والكتب التي كانت ترفع من القيادات الدنيا او من الشيوخ والطلبة الى امير المؤمنين ، او ترفع من الاتباع الى القيادات الصغرى من ملوك او امراء او قواد او قضاة .

ولأجل تيسير البحث سوف نتناول كل صنف من صنفي تلك الرسائل والمكاتبات على انفراد ، لنقف عند موضوعاتهما وجوانبهما الشكلية ، من حيث البدايات والنهايات وما بينهما من كلام هو في الواقع صلب الموضوع وجوهره ، ثم نعالج الجوانب الفنية فيهما من حيث اللغة والاسلوب والاقتباس والاطناب والايجاز الى غير ذلك .

الصنف الاول :

من المؤكد ان « الرقاص » او ساعي البريد كان يتنقل بلا انقطاع بين بلاط امير المؤمنين وبين قصور الملوك والامراء والحكام التابعين للدولة الموحدية المنتشرين في أصقاع البلاد ، لنقل التوجيهات والاوامر والبشائر ، وغيرها . ومن المؤكد ايضاً ان ما كتب على امتداد عصر الموحدين الذي قارب المائة عام كان كثيراً وكثيراً جداً ، ولا يشكل النثر الذي بين ايدينا ، المنشور منه او المخطوط ، الا سفراً صغيرا من بين تلك الاسفار الكبيرة الكثيرة . وعلى كل حال ، فان الموجود منه يغني عن المفقود في دراسة النثر الرسمي بعامة والديواني منه بخاصة والتعرف على اساليبه وصيغه وفنيته ، ولكن الجزء المفقود منه افقدنا الشيء الكثير من المعرفة التي نحن بحاجة اليها في الجانب التاريخي والسياسي .

وبمراجعة النصوص الصادرة عن الديوان الموحدي نقف على طبيعة الموضوعات التي كانت تعالجها تلك المكاتبات وتتمحور حولها ، وهي تكاد تدور في موضوعات محددة تقتضيها ادارة الحكم وارادة الحاكم ، مثل الحثّ على الجهاد ، او الحث على التمسك بالدين والدعوة الى التوحيد والهدى ، او بالرفق بالعباد والعدل بين الناس ، او بشارة بفتح مدينة او استرجاع حصن ، او بناء مدينة او طلب بيعة او عقد هدنة ، او غير ذلك من امور تقتضيها الظروف وتدعو اليها مهمات الحكم وتبعاته ومستلزماته .

واذا كانت طبيعة الموضوع الذي كتب النص من اجله تقتضي صيغة ملائمة وأصولا متبعة في تكوين الاطار العام الشكلي للرسائل وفي بناء مضمونها وحشوها فانه جعل لكل

رسالة تقريباً اطارها الخاص بها وأفردها عن غيرها ، ولكننا ومن اجل ان نلم اطراف البحث نحاول ان نشخص انواع الصيغ والقوالب التي جرت عليها مكاتباتهم الرسمية او صبت فيها ثم بعض ذلك نتعرض لبنائها الداخلي .

من خلال وقفة متانية عند الموروث النثري الصادر عن ديوان أمير المؤمنين الموحدي الى تابعيه في الاندلس ، اتضح لدينا عدد من الصيغ التي سلكتها الرسالة الديوانية الاندلسية آنذاك .. والتي كانت تكوّن اطاراً عاماً يتبع من قبل الكاتبين ويتمسك باصوله وقواعده . وهذه الصيغ هي :

١ . أن تبتديء الرسالة بذكر المكتوب عنه او بلقبه والدعاء له بما يليق ، وبعد ذلك يذكر اسم المكتوب اليه او صفته مع الاشارة الى مكان اقامته ثم يدعى له بما يناسب ، ويؤتى بعد ذلك بتحية الاسلام ، ثم بالبعدية التي تعقبها الصلاة على النبي محمد ، وعلى آله وصحبه ، والترضية عن الامام المهدي المعصوم ، وبعد جمل من الصفات والنعوت للامام المهدي يلج الكاتب صلب الموضوع ، مبتدئاً بفعل الكتابة كان يقول : « كتبناه » او « كتابنا اليكم » وغير ذلك ، ثم يردفها بجملة دعائية اعتراضية تناسب معنى الكتابة ، قد تقصر وقد تطول ، ويذكر بعدها اسم المكان الذي كتبت به الرسالة مقترناً بالدعاء له بما يناسب ـــ ثم يؤتى بالموضوع الى آخر الرسالة التي تختم بالسلام .

فمن امثلة ذلك رسالة من انشاء الكاتب ابي جعفر بن عطية : « من امير المؤمنين ـــ ايده الله بنصره ، وامده الله بمعونته ـــ الى الطلبة والموحدين الذين بغرناطة ـــ اعزهم الله وادام كرامتهم بتقواه ـــ

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي على عونه مستند الاعتصام ......

والصلاة على محمد عبده ورسوله موضح سبل السلام والاسلام .....

وعلى آله وصحبه البررة الكرام ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المخصوص بالعلامات الصادقة والاعلام ، المبشر من ظهور امره العلي ، وتعيينه المراد المعني ، بما فاضت تباشيره وسالت اساريره ، على صفحات الليالي والأيام .

فانا كتبناه اليكم ـــ كتب الله لكم تعرّف الالاء المستجدة ، وبركة المواهب التي هي من بحر عطائه مستمدة ـــ من منزل الموحدين ـــ أظهرهم الله ـــ بظاهر المهدية ـــ (فتحها الله) ـــ ووعدُ الله لاوليائه قد فضّ الانجاز ختامه ... الخ ... »[٨] .

وجاء في آخرها « والله يعرف اليمن في ذلك والخيرة ، ويجعله عنوان الاقبال وفاتحة النصر بمنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ولقد ذكر القلقشندي هذا اللون من رسوم المكاتبات السلطانية ـــ فاوجز رسمه بقوله) « ان تفتتح المكاتبة بلفظ « من فلان الى فلان » ويدعى للمكتوب اليه ثم يقع التخلص الى المقصود باما بعد ، ويؤتى عليه الى آخره ، ويختم بالسلام »[٩] . واعتبر ذلك الاسلوب الاول من بين الاساليب الاربعة التي اشار اليها . وان كان في الاصل قد تحدث عن ثلاثة اساليب فقط[١٠] .

٢ . وقد تحدو كتاباتهم حذو النموذج السابق من حيث البناء الهيكلي ، ولكنها تزيد عنها بان تبتديء بالبسملة والصلاة على النبي وبالعلامة المباركة التي دخلت الى الرسائل الديوانية لاول مرة في عهدهم[١١] ، ونقصد بالعلامة المباركة عبارة « والحمد لله وحده » ثم يؤتى بآخر الرسالة بتاريخ كتابتها . اما عدا ذلك فانها تجري مجرى النموذج السابق . ومن مكاتباتهم التي تمثل هذا اللون رسالة امير المؤمنين يوسف الى الشيخ الاجل أخيه السيد ابي سعيد واصحابه الطلبة الذين بقرطبة ، حيث بدأها بما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وآله وسلم ، والحمد لله وحده ، من أمير المؤمنين ... الخ »[١٢] وتاتي بقية الرسوم تباعاً دون اي تغيير حتى يصل الى الختام وفيه يثبت تاريخ كتابة الرسالة الذي هو في هذه الرسالة الثالث من شهر رمضان المعظم سنة احدى وستين وخمس مائة .

٣ . ومن المكاتبات ما اخذ رسماً آخر يبتديء بمخاطبة المكتوب اليهم مباشرة ويشير الى مدينتهم ثم يؤتى بالدعاء لهم بما يناسب ثم بالبعدية وينتقل بعدها مباشرة الى جوهر الموضوع وبدون اية تحميدات او غيرها من ديباجات ورسوم متبعة في مكاتبات أخرى عرفها العصر . ومن تلك المراسلات ، ما كتبه بخطه أمير المؤمنين ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمامون الى اهل اندوجر[١٣] ، جاء فيها « الى الجماعة والكافة من اهل فلانة ، وقاهم الله عثرات الالسنة وأرشدهم الى محو السيئة بالحسنة ، اما بعد فانه قد وصل من قبلكم كتابكم الذي جرد لكم اسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، اتمتنرون من المجال بضعف

الحال ، وقلة الرجال ، اذاً نلحقكم بريات الحجال .... الخ »[14]
وهكذا يستمر حتى آخر الرسالة
٤ . وفي صيغة اخرى لبناء الرسالة الرسمية تختلف تماماً في مقدمتها عما عرفناه من رسوم وأساليب فهي ان تستهل الرسالة بالبعدية مباشرة دون بسملة او مقدمة او غير ذلك من استهلالات مستخدمة في مكاتباتهم التي مرت بنا سابقاً ، وقد اشار القلقشندي الى هذا النوع من الرسائل واعتبره على ضربين ، حددهما : بقوله « الضرب الاول تُعقّب البعديةُ بالحمد لله ، ويؤتى على الخطبة الى آخرها ، ثم يتخلص الى المقصود ويختم بالسلام »[15] ، اما الضرب الثاني فهو « ان تُعقّب البعدية بذكر المقصود من غير خطبة ثم يؤتى على المقصود الى آخره »[16] ومن النثر الذي جاء على الصنف الاول من هذه الطريقة التي تبتديء بالبعدية دون اية مقدمات اخرى مقرونة بحمد الله وشكره رسالة الكاتب ابي الحسن بن عياش عن الخليفة عبد المؤمن الى طلبة بعض مدن الاندلس يخبرهم فيها بوصول كتابهم في غزواتهم على الروم ، بدأها بقوله « اما بعد حمد الله الذي عمّ بنواله .... ، والرضا عن الامام المعصوم ، والمهدي المعلوم .. فانا كتبناه اليكم ــ كتب الله لكم اعمالاً زاكية نامية ، ..... ــ من حضرة مراكش ــ حرسها الله .... الخ »[17] ، ويستمر الكاتب في رسالته والجأ صلب غرضه المقصود ليصل الى خاتمتها التي تؤرخ الرسالة .
٥ . ومن المكاتبات ما تبتديء بالتحميد ثم الصلاة على النبي وآله ثم الترضية عن الامام ، ويعقبها باشارة الى الكتاب ومكان تحريره ليلج بعد ذلك الى جوهر المقصود ، وخير مثال ماكتبه ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش عن الامير محمد الناصر الموحدي مُخبِراً باستيلاء الموحدين على منورقة ويابسة وميورقة بدأها بقوله « الحمد لله فاتح الاغلاق ، ومانح الاعلاق مُمدّ هذه الدعوة الامامية من السبع اطباق ... الخ »[18] ، حيث تستمر الرسالة ضمن الرسوم التي اشرنا اليها . ولعل تعليل استفتاحها بالتحميد دون غيره من مستهلات ومقدمات ان الكاتب وهو بغمرة الفرح والابتهاج بتحقيق النصر انصرف أولاً وقبل كل شيء الى تسجيل الحمد والشكر لله تعالى على ما حققه للمسلمين من نصر مبين .
٦ . ولم تقتصر المكاتبات الديوانية على النثر بل كانت بعض مكاتباتهم الرسمية تعتمد الشعر في جزء منها[19] او في اجزائها كلها[20] ، والنوع الاخير يكون عبارة عن قصيدة شعرية متكاملة خالية من اي ديباجة نثرية وهي خارجة عن تقاليد مكاتباتهم السلطانية وغير ملتزمة باي رسم من رسومهم ، ومن نماذج هذا اللون من المراسلات : القصيدة الرسالة التي وجهها امير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى عرب افريقيا يستدعيهم فيها ويحرضهم على الجهاد وهي من نظم ابن طفيل ، ولما تاخروا عن تلبية الدعوة خاطبهم ثانية بقصيدة اخرى من قول ابن عياش[21] وكان مطلع الاولى :

الا فابعثوها همة عربية　　　تحف باطراف القنا والقواضب

اما مطلع الرسالة الثانية فهو :

قيموا الى العلياء عوج الرواحل
وقودوا الى الهيجاء جرد المواهل

الصنف الثاني :

بعد ان اتضحت امامنا صيغ المراسلات الرسمية التي كان يصدرها أمير المؤمنين الى أعوانه وتابعيه من ابنائه الأمراء ومن الولاة والقضاة وغيرهم . ننتقل الى معرفة رسوم المكاتبات التي كان يرفعها الامراء والوزراء والولاة وغيرهم الى أمير المؤمنين او الى ملك البلاد الذي يمثل آنذاك السلطة المركزية العليا . ونقف عند انواع الصيغ واشكالها التي كان الكتاب يحرصون عليها ويعتمدونها أسساً وقواعد لما ينشئونه من رسائل . ومن خلال دراسة ما توفر لدينا من نصوص نثرية لفترة الموحدين تمكنا من تشخيص الرسوم التالية لمكاتباتهم الرسمية :

١ . ان تفتتح الرسالة بلفظ « كتابنا » او « هذا كتابنا » او ما شابه ، ثم يذكر مكان تدوين الخطاب ثم يلج الكاتب صلب الموضوع حتى ياتي الى آخرها . فمن ذلك رسالة ابي جعفر ابن عطية عن ابي حفص الموحدي الى الخليفة امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي وهي التي « اورثته الرتبة العلمية السنية والوزارة الموحدية المؤمنية »[22] ، حيث ابتدأها كاتبها بقوله « كتابنا هذا من وادي ماسة بعدما تجدد من أمر الله الكريم ونصر الله تعالى المعهود المعلوم (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) فتح بهر الانوار اشراقاً »[23] .
فالبداية جاءت بدون اية ديباجة من بسملة او صلاة على النبي او ترضية عن الامام المعصوم او دعاء لأمير المؤمنين الى غير ذلك مما سنجده عند كتاب آخرين كتبوا بعد ابن عطية ، وفي هذا النوع يعالج الكاتب المقصود مباشرة ويجعله محوره الاساس ، ولما كان موضوع الرسالة هو بشارة بفتح ،

فكأن الكاتب يستعجل الامر ويسابق السطور ليزف البشرى الى الخليفة فيتجاوز المقدمات والتمهيدات .

٢ . وتأخذ رسائل رسمية أخرى ديباجة مختلفة في بعض رسومها عما سبق من نماذج ، ففي رسالة صدرت من المزفيين الى السيد ابي اسحاق الموحدي اخي امير المؤمنين المرتضى ، تتحدث عن رغبة العزفيين في ارسال وفد لتقديم البيعة الى المرتضى[٢٤] تبتديء هذه الرسالة باسم المرسل اليه كاملاً مع الالقاب : السيد الاجل الاعز ابو اسحاق بن سيدنا الامير الطاهر المرحوم ابي ابراهيم ابن سيدينا الخليفتين الامامين اميري المؤمنين «[٢٥] ثم يدعو لمقامهم بالعلو والبقاء . وبعدها يشير الى المكتوب عنه فينعته بلفظ (خديمهم) ويصفه بما يناسب من خصائص الخادم وصفاته ويأتي باسمه « ..... خديمهم المتمم من خدمتهم ما حق عليه اتمامه ، الملتزم من تعظيم مقامهم واكباره ما يتمين حق الاخلاص له التزامه ... المستنهض لصالح الدين والدنيا عنايتهم الميسرة كل امل عزّ مرامه ، فلان[٢٦] ثم يؤتى بالبعدية والتصلية على النبي وآله ثم الرضا عن الامام المعصوم .. فالدعاء للحضرة الخلافية بما يليق مقترنة باسم الخليفة . ..

والدعاء لحضرة سيدنا ومولانا الخليفة الامام المرتضى امير المؤمنين ابي حفص ابن سيدنا الامير الطاهر ابي ابراهيم ابن سيدينا الامامين اميري المؤمنين باطراد السعد الكفيل بذلّ مناويها ، وعز مواليها ... الخ » ليدلف بعد ذلك الى المقصود بلفظ « كتب مصحوباً بالدعاء المقتبس من معاني الكتابة للمقام الاسمى ... وهكذا يستمر الكاتب حتى ختام الرسالة التي تنتهي بالدعاء مُجدداً لجلالة المكتوب اليه ومقامه العالي .

٣ . ومن مكاتباتهم ما تبتديء بعد البسملة والصلاة على النبي بذكر اسم المكتوب عنه ثم اسم المكتوب اليه والدعاء له بما يليق ثم تحية الاسلام . وبعد ذلك تاخذ الرسالة مسارات الرسائل الاخرى من حيث البعدية والتحميد بلفظ « اما بعد حمد الله » أو « بعد حمد الله » والصلاة على النبي والترضية والدعاء لأمير المؤمنين او لولي العهد ــ احياناً ــ ثم يؤتى بالمقصود ... الى أخر الرسالة التي تختم بالسلام وبذكر تاريخ انشائها .

منه ما كتبه السيد الاعلى ابو حفص عمر عن نفسه ، معرفاً بفتح « غمارة » الى الشيخ الاجل ابي عبد الله بن الشيخ ابي ابراهيم « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم ، من عمر بن امير المؤمنين الى الحافظ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم ادام الله كرامته بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد رسوله وعلى آله ، والرضا عن الامام المعصوم .... والدعا لسيدنا امير المؤمنين ولولي عهده الأمير الاجل ... «[٢٧] وفي مختتمها يقول « والسلام الجزيل عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب في الرابع عشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة » .

٤ . وفي بعض مكاتبات المبايعة يكون الابتداء بعد البسملة بالصلاة على النبي ثم الاشارة الى الامامة وتنعت بما يليق بها من صفات ، ثم يؤتى بالترضية عن الامام المعصوم ، والدعاء لأمير المؤمنين ، ثم ينتقل الى المقصود مبتدئاً بلفظ .. أم بعد .. ويختمها بذكر التاريخ ، وهذا غالباً ما يكون في رسائل المبايعات ، ويمكن ان نستشهد له بما كتبه أهل اشبيلية بمبايعة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وهي من انشاء أحمد بن محمد[٢٨] ، « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم . الحمد لله الذي جعل الامامة قواماً للحق ونظاماً للخلق ، وتماماً على الذي احسن برعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المنيمث بنور الحق الساطع الاضواء ... والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ... والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى متمم انوار الهدى ... وللامام الاعدل الاهدى سيدنا ومولانا امير المؤمنين أبي يعقوب بن امير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء ... اما بعد فانه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين تحضرهم من الله حاضرة التوفيق .... على تجديد البيعة المباركة لسيدنا أمير المؤمنين أبي يعقوب ... الخ «[٢٩] .

وتتكامل البيعة بقوله في آخرها « ..... وعلى مضمّن ما نص فوق هذا التزم أهل اشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم في النصف من جمادي الأخيرة سنة ثلاث وستين وخمس مائة » . او أن يؤتى بعد البسملة بقوله من فلان الى فلان ثم يؤتى ببقية الخطوات مثل النموذج السابق ، ومنه رسالة من انشاء أبي الحسن عبد الملك بن عياش جاء فيها .. بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم ، من عمر وعثمان ابني أمير المؤمنين الى الطلبة والاشياخ والأعيان

والكافة باشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته » أما بعد فالحمد لله .... الخ[٢٠] .

٥ . وقد تاخذ رسائل طلب البيعة شكلاً آخر فتبتديء بلفظ من فلان الى فلان ــ دون بسملة ــ ويؤتى بالبعدية وحمد الله وشكره ثم الصلاة على النبي وبعد خطبة قد تطول يلتفت الى الترضية عن الامام المعصوم وعن صاحبه خليفة المسلمين أمير المؤمنين ... ثم الدعاء للمولى الامام أمير المؤمنين ... لينتقل الكاتب بعد ذلك الى جوهر الموضوع الذي هو طلب البيعة مستخدماً لفظ « وهذا كتابنا اليكم » مدخلاً للمقصود ، وغالباً ما يذكر اسم البلد الذي حررت فيه الرسالة مع الدعاء له بما يناسب ، ويمضي الخطاب الى غايته ليختتم ــ بالدعاء ثم بالسلام والتاريخ . ومن نماذجه رسالة أنشأها ابو الفضل بن طاهر بن محشرة[٢١] ، عن الامير يعقوب بن أمير المؤمنين من اشبيلية الى الطلبة والموحدين والاشياخ والاعيان بغرناطة .. جاء فيها « من الأمير يعقوب بن سيدنا أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ــ أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته الى الطلبة والموحدين والاشياخ والاعيان والكافة ــ بغرناطة ــ أدام الله كرامتهم بتقواه وعرفهم عوارف نعماه ورحماه ــ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اما بعد فانا نحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله ...... والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم .... وعن صاحبه وخليفته سيدنا الامام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامه ... والدعاء لسيدنا ومولانا الامام أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ... وهذا كتابنا اليكم ــ أسمعكم الله من بشائر هذا الامر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحاً ... من حضرة اشبيلية ــ حرسها الله .... الخ »[٢٢] ثم يختتمها بالسلام وبالتاريخ .

٦ . أن تبتديء الرسالة بلفظ « الحضرة » مذيلة بعبارات المديح والثناء ، وبآيات الدعاء ، ثم يؤتى باسم كاتبها مقترناً بصفة العبودية أو الخادمية ، ثم بتحية السلام على الحضرة المعظمة والمقدسة والمفخمة ، ويؤتى بعدها بالتحميد والصلاة على النبي والترضية عن الامام المعصوم ، ثم بالدعاء للمقام العالي بما يناسبه ، وبعدها يؤتى بالمقصود ، وخير مثال على ذلك رسالة كتبها ابن سعيد الاب من اشبيلية الى أبي محمد عبدالواحد بن ابي يعقوب بن عبد المؤمن مهنئاً له بالخلافة حين بويع بها بمراكش ، وكان قبل ذلك كاتباً له ومختصاً به ، جاء فيها « الحضرة العلية ، السامية السنية ، الطاهرة القدسية ، حضرة الامامة ، وجنة دار الاقامة ، مدّ الله على الاسلام ظلالها ، وأنس في سماء السعادة تمامها وكمالها ، وهنا المسلمين باستقبال امارتها ، وأدام لهم بركة خلافتها ، عبد أياديها ، وخديم ناديها ، المتوسل بقديم الخدمة المتوصل بعميم النعمة وكريم الحرمة ، المنشد بلسان المسرة ، حين أطلع الزمان هذه الغمرة :

أتته الخلافة منقادة   اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له   ولم يك يصلح الا لها

موسى بن محمد بن سعيد لا زال هذا الامر العلي محموداً سعيداً ....

سلام الله كريم يخص حضرة الاجلال والتعظيم والتقديس والتفخيم ، ورحمته وبركاته ، وبعد حمد الله .... والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم .... والرضى عن الامام المهدي المعلوم الذي أفاء الله به على الدين الحنيفي ظلاله ، وأذهب عنه طواغيته وضلاله ، والدعاء للمقام العالي الكريم بالسعد المتوالي والنصر الجسيم .... الخ »[٢٣] .

وهكذا يستقص الكاتب ويزيد في اسباغ النعوت والصفات على الحضرة وساداتها ما أسعفته القواميس وفاضت به قريحته اللغوية .

ويبدو لنا ان مثل هذا الاسلوب قد عرف أواخر الحكم الموحدي ، لأننا لم نجد نظيره قبل ذلك .

وقد ياخذ هذا الرسم أسلوباً آخر بان يؤتى باسم المرسل اليه بعد ذكر الحضرة مقترناً بها ، كان يقال « حضرة سيدنا الخليفة الامام العادل أمير المؤمنين ... »[٢٤] أو ما يشبه ذلك .

٧ . اذا كانت بعض المكاتبات تبتديء بلفظ « الحضرة » فان بعضها الاخر يستخدم لفظ الحضرة مسبوقة بالبسملة والصلاة على رسول الله محمد ــ ص ــ وتُعرّف الحضرة باسم صاحبها أو لقبه ويشار الى اسم المكتوب عنه .... ثم يحيي الكاتب الحضرة بما يليق ثم يقتفي بعد ذلك أسلوب الاخرين في الرسوم الاخرى من الرسالة ، فيؤتى بالحمد والصلاة والترضية ثم يلج الموضوع الرئيس بلفظ « كتب » « أو فكتب » ويذكر اسم البلد الذي كتبت فيه . ليختتم بعد ذلك رسالته بالسلام وذكر تاريخ الكتابة .

منه رسالة وجهها الشيخ الاجل أبو عبدالله بن أبي ابراهيم : الى أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم ، الحضرة السامية ، حضرة سيدنا ومولانا الامام الاعدل ، الخليفة الصالح المنصور بالله عزّ وجل أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ، من ملتزم أوامرهم العلية المتبرك بمماليهم السنية .... محمد بن أبي ابراهيم : سلام على حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ... الخ »[29] .

وهكذا يستمر الكاتب الى آخر الرسالة .

٨ . ومن رسائلهم ما يبتديء بلفظ « محل » مضافاً الى ما يُعرفه كان يقال « محل الشيخ الاجل » ويؤتى بوصف يليق به ثم يؤتى باسم المخاطب بالرسالة ... ويختمها بالسلام وبالتوقيع باسم المرسل . من نماذجه ما كتبه محمد بن ابراهيم المواعيني[36] ، أبو القاسم الى السيد محمد بن أبي ابراهيم اسماعيل بن الخليفة أمير المؤمنين مهنئاً حينما تولى أمر اشبيلية حيث بدأها بقوله « محل الشيخ الاجل ، الحبيب المبارك الأفضل ...... محل لا يداني سموه الاسبق ونموه الأبسق .... وكيف لا وشيخ الموحدين ، وطائفة الحق المهتدين ... أبو ابراهيم أبوه ، أضفى الله عليه ظلاله وأوسع في منازل الزلفى مراتبه وجلاله ، هو قعدده الشامخ ، ومستنده الباذخ ... »[37] ، ويقول قبل ختامها : « والسلام الاكرم الادوم على حضرة الشيخ الاجل الموقر المعظم أبي عبد الله ورحمة الله وبركاته » وأبو عبد الله هذا هو ابن أبي ابراهيم وأخ محمد ابن اسماعيل ثم ياتي بآخرها باسمه منعوتاً بصفات الطاعة والخضوع « ملتزم أمرهم ومعظم حقهم ، رهين شكرهم محمد بن ابراهيم » .

ومن خلال ما تقدم في الصنفين ، الاول والثاني ، تبدو لنا ان لمكاتباتهم الرسمية رسوماً وتقاليد معروفة لا يصح الخروج عليها ، يلتزمون بها ويقتفون آثارها ويحرصون على التمسك بها ، كما غدت لها خصائص ومميزات ذات قيمة ، اعتبرها القلقشندي من الامور التي انفرد بها الكاتب الاندلسي عن كتاب المشرق والديار المصرية ، ومن تلك الخصائص والسمات « ان المخاطبة تقع للمكتوب اليه بميم الجمع مع الانفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الانفراد »[38] ومنها « انهم ملتزمون الدعاء بمعنى الكتبة عند قولهم : كتبنا ... وانهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم .. وانهم يذكرون اسم المكتوب اليه في أثناء الكتاب ، وياتي مكاتباتهم على نحو مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ، وكتبهم تختم بالسلام غالباً ، وربما ختمت بالدعاء ونحوه » ويمكن أن نضيف الى تلك الخصائص : أنهم يترضون أيضاً عن الامام المهدي وينعتونه بالعصمة . بحيث أصبح هذا تقليداً درج عليه جميع كتّابهم وغدا سمة مميزة لمراسلات الموحدين ومخاطباتهم .

الجانب الفني :

في بداية البحث تحدثنا عن منزلة الكتابة الرسمية في هيكل الدولة ، ومكانة القائمين عليها من الكتّاب ، وتعرفنا على أهمية شاغل هذا الموقع وما يجب ان يتصف به من سمات وخصائص ، وما يتميز به من خلق وعلم وثقافة ، وما يتمتع به من امتيازات سلطوية ومادية تجعل منه شخصاً مؤثراً ومشاركاً في رسم كثير من القرارات التي توجه دفة الحكم وتسير أمور الدولة وشؤونها الكبرى . ومن هنا يغدو التنافس والتدافع للحصول على هذا الموقع والوصول اليه ، بأساليب ميكافيلية أو غيرها ، أمراً متوقعاً ، كما هو أمر متوقع أن نجد من هؤلاء الكتاب من دفع رأسه أو حريته ثمناً بحق أو غير حق نتيجة وشاية أو حسد او حقد من الاخرين .

وعلى كل حال فان كتاب الدواوين كانوا حريصين على نوال رضا رؤسائهم وزيادة الحظوة لديهم متوسلين الى ذلك بما يقدمونه من ابداع في مكاتباتهم ، ومن قدرات على فهم ما يدور في خاطر السلطان أو الامير أو المخدوم وما يرغب في التعبير عنه وايصاله الى الاخرين ممن تكتب اليهم الرسائل ، ولذا فاننا نقدر ان الرسائل الرسمية قمة في الجودة الفنية ، لان منشئها يوظف كل قدراتهم الفنية والعلمية والثقافية وما يمتلكه من معارف لاخراج رسائله في أبهى رونق وأحسن شكل ، وألطف لفظ وأعمق معنى وأوضح دلالة ليثير أولاً دهشة مولاه ولينتزع ، ثانياً ، اعجاب المجلس الثقافي الذي ينصت الى تلك الرسائل ، سواء في الحضرة التي تكتب فيها او الحضرة التي تكتب اليها ، فهي صنعة تحتوي على شيء من المصلحة المتبادلة بين الكاتب والمخدوم ، « مصلحة شخصية للكاتب ، وحرص من قبل السلطان على صيانة الدولة وتوطيد دعائمها وإحكام تدبير شؤونها »[39] .

ولكون كتّاب السلطة يعالجون موضوعات مختلفة ومنوعة ويعبرون عن توجيهات الحكام ووصاياهم وآرائهم في مختلف القضايا والشؤون ، فان طبيعة عملهم تتطلب منهم بالضرورة

ثقافة موسوعية وخزيناً من المعارف والمعلومات التاريخية والدينية والادبية وغيرها ، ليكون الكاتب قادراً ومتمكناً من تناول تلك الموضوعات والتعبير عنها بوضوح ودقة تحققان هدف المكتوب عنه وغايته ، وتصيبان ما في نفسه ، خاصة وان مثل هذه المكاتبات تعالج موضوعات عديدة واغراضاً متنوعة وكثيرة ، كان تعالج وصفاً لمواقع حربية او بشارة بنصر او فتح حصن او عقد سلم او تحريض على الجهاد او طلب المبايعة أو تولية الأمراء على الأصقاع والاقطار او التوجيه السياسي ، أو الحث على التمسك بالدين الحنيف او وصف الاحوال العامة للرعية او التهنئة او التعزية وغيرها من امور لها مساس بالسلطة ويتطلبها الحكم وتقتضيها ظروف الدولة السياسية والدينية والاجتماعية .

ومن هنا نلاحظ ان طبيعة هذه المكاتبات وأساليبها وصيغها ورسومها ليست مثل بقية كتاباتهم النثرية وانما تشمل مختلف مناحي الحياة وشتى ميادينها . وفي وقفة متانية عند دراسة الجوانب الفنية لهذا اللون النثري سيتضح لنا مقدار الجهد الذي يبذله الكاتب في بناء تلك الرسائل ، جهد قد يضر أحياناً ، بسبب مبالغته واسرافه في التصنع[٤٠] بقيمة النثر الفنية ويقلل من جودته وجماليته .

وعلى كل حال فان المتابع للنثر الرسمي خلال فترة الموحدين يمكن ان يلمس خصائص وسمات معينة واضحة تطبع نتاجهم بطابعها ، وتوشم ملامحه بوشمها ، فتعطيه معالم وابعاداً تحدد شخصيته ، الى حد ما ، وتميزه عن غيره من النثر الاندلسي في فترات سابقة أو لاحقة ، فمن ابرز الخصائص والسمات التي تميز بها :

١ . ميل الكتاب الى اضفاء صبغة دينية على رسائلهم ، وتوشيحها بالايات القرآنية والاحاديث النبوية وتوشيمها وتعطيرها باخبار السيرة والصحابة ، وتعزيزها باحكام الفقه والشريعة الى غير ذلك مما يشيع جواً دينياً على روح الرسائل ، ويكثر ذلك في المكاتبات التي تعالج موضوعات مثل الحثّ على الجهاد أو الانتصار على الكفار او دعوة الجمهور الى التمسك بالدين والتقيد باحكام الاسلام او في وصف تساقط المدن والقواعد ورثائها والتصبر على محنها . وغيرها من اغراض تتطلب طبيعة موضوعاتها الاستشهاد بالقرآن الكريم او بالاحاديث النبوية والاحكام الفقهية لتعزيز الموقف واسناد الرأي بالحجة القاطعة والقول الفصل .

ولعل أسباب طغيان الروح الدينية على النثر الادبي في هذه الفترة ، اضافة الى مقتضيات طبيعة الموضوع ، تعود الى طبيعة التعليم المعتمدة أساساً في الأندلس التي يتلقاها المتعلم منذ سنواته الأولى والتي تقوم على بناء قاعدة عريضة من الثقافة الاسلامية قوامها القرآن وأحاديث النبي وما يتعلق بهما من علوم ودراسات وأحكام نظمت وتمدت عبر القرون . فكان لكل ذلك تاثير كبير على ذهنية المثقف وطريقة تفكيره ، خلفت آثارها وتركت بصماتها على نتاجه[٤١] كما ان ظروف العصر وما صاحبها من مواقف سياسية ومعارك وصراعات دينية ، وما تمخضت عنه ، وبخاصة أواخر أيام الموحدين ، من سقوط بعض المدن الاسلامية الاندلسية بيد الاسبان ، كان لها دورها وأثرها في نزوع المخاطبات الرسمية نزعة دينية ، « فالعصر كان عصر جهاد وصراع بين الاسلام والصليبيين والفرنج في العالم الاسلامي عامة والاندلس خاصة ، وفي ذلك ما يدعو الى اصطباغ الادب / شعراً / ونثراً ، بصبغة الحماسة الدينية »[٤٢] .

ينضاف الى ما تقدم سبب آخر يقوي الطابع الديني الذي تتسم به المخاطبات الرسمية هو متانة العلاقة بين الدين والسلطة ، فالسلطان او امير المؤمنين في زمن الموحدين كان يمثل السلطتين الدينية والدنيوية فهو الرئيس الديني كما انه الرئيس السياسي ، ويتجلى ذلك خاصة في مراسلاتهم التي تعالج أمور الشريعة كالحث على التزام قواعد الاسلام واحكامه في المعاملات وفي الحياة اليومية ودعوة الحكام والولاة الى تطبيق الشريعة والعدل بين الناس والدعوة الى الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه الى غير ذلك من موضوعات ذات علاقة بالدين الاسلامي الحنيف[٤٣] .

ويتضح الطابع الديني الاسلامي فيما أوجدوه من رسوم غدت تقاليد وقواعد في كتاباتهم الرسمية والديوانية ، وبخاصة ما تكون عليه مقدمات المكاتبات وخواتمها من مثل البسملة والتحميد والصلاة على النبي محمد ـــ ص ـــ وآله وصحبه ، والترضية عن الخلفاء أو السادة الرؤساء والترضية عن الامام المعصوم وما تختم به من دعاء وسلام ، كل ذلك يضفي على رسائلهم جواً دينياً ، يضاف اليه ما يعزز انشاءهم وكتاباتهم من نصوص تراثية أو اقتباسات دينية تاتي في حشو رسائلهم حسب مقتضى الحال ، لكنها تاتي بمقدار مقبول وغير طاغ ، ومن أمثلة تلك المراسلات الديوانية التي تعبقت بجو ديني ، رسالة كتبها ابو جعفر بن عطية عن امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الى شيخ ـــ لم يسمه ـــ وجماعة المشيخة بقرطبة :

جاء فيها بعد السلام : « اما بعد فانا نحمد اليكم الله الذي يصل الفتوح لأوليائه بفتوح ، ويلهم الراشدين من عباده الى كل رأي نجيح ، ويقرّب للمتقربين بالتوبة النصوح ، كلّ آمٍ شاسع ومأمول نزوح ..... ، ونشهد أن ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة من علم وحدانيته على جلاء من آياته ووضوح .... ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى صلاة يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح ، ونستنزل ببركتها على جنابه الانضر كل سحاب سفوح ، وعلى آله الاكرمين وأصحابه الظافرين من هداه بحظ ربيح ... ونصل الرضوان المستدام على ما وجب الله الاقتداء به والائتمام ، الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بامر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح ..[44] » وبعد ذكر المكان الذي كتبت فيه الرسالة يعود الكاتب ليشير الى رسالة وردت الى الخليفة من جماعة المشيخة بقرطبة وفيها ــ كما يفهم من حشو الرسالة ــ بيعة ، فيقول الكاتب ...« وبفضله ــ جلّت قدرته ــ ما استفاض ببركة هذا الامر المبارك من نور قدسيّ وخير معنويّ وحيّ ، وما قرنه بيمنه من امل قصيّ ، ولجبه من شديد قسيّ ويسمعه أولياءه من نبأ انسي ..... واستمسك الراشدون منه بعروة لا تنفصم واعتصموا بما لا ينجي من دعوته الربانية ويعصم ، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكص المتاخر والالدّ الخصم ، » وهكذا يستمر الكاتب في جوهر موضوعه داعياً أبناء قرطبة الى التمسك بالعروة الوثقى والى طاعة الله ونبيه ومهديه « ... وعضوا على طاعة الله ونبيه ومهديه بالنواجز عضا مسكباً لاباحتها مفيدا واشهدوا الله تعالى على التزامها والدخول تحت إحكامها » . ويؤكد على التمسك بامر المهدي « فهو سبب النجاة والخلاص ، والمأمن من نوائب الانتكاس والانتقاص » فهذه الرسالة بموضوعها وجوها ولغتها لا تخرج عن الجو الديني ، ولكنها تتمتع بأسلوب جميل مسجع محبب ، ولغة سليمة سلسة قادرة على الوصول الى المتلقي بيسر وسهولة .

ومثال آخر في استخدام التراث الديني وشواهد التاريخ الاسلامي خلال كتاباتهم السلطانية وبخاصة موضوعات الجهاد والحرب ، رسالة كتبها ابن عيّاش لامير المؤمنين الناصر تتضمن اعتذاره عن الهزيمة التي حلت به في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ، جاء فيها « ... كان بين المسلمين وبين أعدائهم يومٌ ذو كواكب نازعت فيه المواكب على المواكب ، وموقف نرجو أن يراه الله لنا وان يقبل فيه عملنا ، اشتد فيه الكفاح وأرخصت فيه الارواح ، لكن أراد الله فكانت العاقبة المطلقة هي لاهل الاسلام والايمان .... هي الحروب قضى الله ان تكون سجالاً ، وان يجعل الله فيها لكل قوم مجالاً ، كذلك كانت في زمن النبي ــ ص ــ والوحي غضّ نضير ، وجبريل من السماء الى الارض في كل وقت سفير ، وكذلك كانت في زمن الخلفاء رضي الله عنهم ، كل ذلك ليعلم الشاكر والصابر عنهم .... فما كان الله ليترك المؤمنين حتى يأخذ أعداءهم أخذاً وبيلاً ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ... »[45] فقد استخدم الكاتب الايات القرآنية بمعانيها كما انه أشار الى تاريخ النبي والخلفاء من بعده وما تعرضوا له في حروبهم من اخفاقات وهزائم في بعض الاحيان ، لكنها كانت هزائم تعقبها انتصارات للمسلمين .

٢ . ولا يقف اعتماد الكتاب على مصدر واحد هو الثقافة الدينية في بناء رسائلهم وترصينها وسبك أسلوبها ، بل كانوا ينهلون من الثقافة الادبية والتاريخية كذلك ، فيضمنون مراسلاتهم شعراً وأمثالاً وأقوالاً مقتبسة وحوادث واخباراً تاريخية معروفة وغيرها . وقد اشار القلقشندي الى تقاليد ذلك ورسومه في المشرق والمغرب . حيث قال : « وأما الشعر فيورده حيث يحسن ايراده ، ويمنعه حيث يحسن منعه ، وليس كل مكاتبة يحسن فيها ايراد الشعر ، بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب اليه »[46] ، ثم قرر انه لا يتمثل بالشعر في المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة اليهم ممن هم دونهم ولكن « الملوك والخلفاء اذا كتبوا الى من ضاهاهم في أبهة الملك وقاربهم في علو الرتبة فانه لا يمنع التمثل بأبيات الشعر فيها ، تطريزاً للنثر بالنظم . وجمعاً بين جنسي الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده »[47] ، ولكننا في الاندلس والمغرب نجد ان المكاتبات الرسمية لن تتحرج من التمثل بالشعر بل انّ بعضها تجاوز ذلك فكان كله شعراً ــ كما ذكرنا سابقاً ــ أو جزء كبير منه شعراً . بغض النظر عن الجهة التي خوطبت بالرسالة ومستوى المخاطب والمخاطب فمن ذلك رسالة وجهها الخليفة عبد المؤمن بن علي الى أهل اشبيلية ليزف اليهم بشرى فتح مدينة (المهدية) سنة ٥٥٤ هـ . حيث جاء في آخر الكتاب قطعة شعرية تتكون من اثني عشر بيتا يعتقد انها من نظم أمير المؤمنين نفسه وأولها :

ولما قضينا بالمشارق أمرنا ... وتمّ مراد الله في كل مطلب[48]

ومنه ما كتبه السيد الامير ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن امير اشبيلية يستنجد بوالده ويدعوه للقدوم اليه

للقضاء على فتنة ابن مردنيش وقد ضمن رسالته شعراً من نظم الاستاذ أبي العباس ابن سيد المالقي وأولها :

هو الامر أمر الله ليس له ردّ يؤيده أيد ويسمو به جَدّ[49]

ومجموع الأبيات خمسة عشر بيتا حسب رواية ابن صاحب الصلاة ، وكان جواب أمير المؤمنين رسالة طويلة فيها شعر على وزن الابيات اللاتي تضمنتها رسالة ولده وقافيتها ولا يعرف من هو كاتب الرسالة او ناظم الشعر . وأول هذه الابيات التي يصل عددها الى خمسة وثلاثين بيتا قوله :

تسنى لاهل الحق نيل مرادهم وطاب لهم فيما يرومونه[50] الورد

وفي رسالة ابن سعيد الأب التي كتبها الى عبد الواحد الموحدي ملك المغرب مهنئاً له بالخلافة حين بويع بها بمراكش ، تضمين لشعرٍ من نظمه ومن نظم غيره من الشعراء[51] ، وفيها اقتباس من التراث الأدبي والتاريخي . مثل قوله : « خليفة له النفس المُضرية ، الاراء العَمرية ، والفراسة الإياسية ، ولا ينبئك مثل خبير »[52] .

وفي الرسالة التي وجهها كاتب الخلافة أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي الى مخدومه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي مستعطفاً اياه اثناء محنته ، كثير من الاتكاء على التراث الادبي والتاريخي والديني واستحضار لمخزون حافظته وعلومه سخرها كلها لخدمة هذه الرسالة التي كانت شفيعه ورسوله الى الخليفة وقد ختمها بشعر رقيق جميل مؤثر في الاستعطاف[53] .

والرسالة بجملتها عبارة عن تذكير بأحداث تاريخية تشير الى عصيان اصحابها ونكرانهم وكفرهم ولكن أبا جعفر يشير الى انه لو كان واحداً منهم واقترف عظائم اعمالهم المنكرة او كان قد تحمل ذنوب الدنيا كلها وكتب له ان يأتي حضرة الامام المهدي المعصوم لائذاً وعائذاً لكان ذلك كافياً لسماع عذره وغفران خطيئاته وذنوبه (وأن يمسحها ويعفو عنها) ولكن هذه الرسالة كانت صرخة في واد فلم تنفع ولم تشفع ، ورسالته تذكرنا برسالة ابن زيدون الجدية التي كتبها هو الاخر من السجن الى ابن جهور من حيث الاسلوب واللغة ومن حيث استخدام التاريخ وحوادثه واستحضار ثقافته العامة للوصول الى غرضه الذي هو العفو .

ومثله يكثر ابو المطرف بن عميرة في استخدام التراث في بعض رسائله ، منها رسالته التي كتبها نظماً ونثراً لأحد الرؤساء بشاطبة والتي جاء فيها بكثير من الامثال والاعلام التي تحتاج الى ثقافة تراثية واسعة لفهمها ومعرفة مدلولاتها[54] .

٣ ـ وامتازت الرسائل الرسمية لهذه الفترة بسمات شكلية مظهرية تعنى باللفظ من حيث جرسه وصوته ، ومن حيث توافق الوحدات الصوتية وتناسق مقاطعها حتى ليغدو نثرهم قريباً الى الشعر وقد يبالغ بعضهم فيلتزم ما لا يلزم أو يلتزم حرفاً واحداً يتكرر في كل مفردات رسالته . ويحلو لبعضهم ان يحقق براعة في صوره النثرية عن طريق استخدام وسائل بلاغية عديدة من جناس أو طباق او تشبيه او استعارة او كناية او غيرها . وكل ذلك يكون مقبولاً ومعقولاً في حالة استخدامه كالملح في الطعام ، ولكنهم كانوا أحياناً يتزيدون منه حتى يغدو جميل نثرهم قبيحا وحسن كلامهم مشوها ، ولطيفه ثقيلا ممجوجا .

وكثيرة هي الرسائل الرسمية التي تعتمد السجع والمحسنات اللفظية الاخرى في موروث فترتنا . من ذلك رسالة كتبها ابو عبد الله بن عيّاش في نزول الناصر على المهدية براً وبحراً واسترجاعها من ايدي الملثمين حيث شبه المدينة بعروس تزف الى فارسها ، وكان مهرها رؤوس المقاتلين الشجعان ، وحناؤها دماءهم ، « ... ولما اجتلينا منها عروسا ، قد مدّ بين يديها بساط الماء ، وتوجت بالهلال وقرطته بالثريا ووشحت بنجوم السماء والسحب تسحب عليها أردانها فترتديها تارة متلثمة ، وطوراً سافرة .... خطبناها فارادت التنبيه على قدرها ، والتوفير في اعلاء مهرها ، ومن خطب الحسناء لم يُغله المهر ، فتمنعت تمنع المقصورات في الخيام ، وأطالت إعمال العامل في خدمتها وتجريد الحسام ، الى أن تحققت عظم موقعها في النفوس ، ورأت كثرة ما ألقى لها من نثار الرؤوس ، جنحت الى الاحصان بعد النشوز ، ورأت اللجاج في الامتناع من قبول الاحسان لا يجوز ، وامتعته على رغم رقيها بعناقها ورشف رضابها ، فبانت معرّساً ، حيث لا حجال الا من البنود ولا خُلوق الا من دماء ابطال الجنود »[55] .

ولا يخفى ما في الرسالة من جمالية سواء في التصوير والتشبيه او في استخدام المحسنات اللفظية من الجناس والطباق لاضفاء روعة وبهاء اضافيين الى جمالية الصورة .

ونموذج ثان تمثله قطعة من رسالة لابي جعفر بن عطية كتبها عن أبي حفص عمر اينتي في موقعة الماسي : « فتح بهر الانوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للاماني

النائمة جفونا وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر إستغراقاً ، فلا تطيق الالسن لكُنْهِ وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشتات الطلب والادب ، وتقلب في النعيم أكرم مُنقلب ، وملأ دلاء الأمل الى عقد الكرب ... الخ »[٥٦] ، وهكذا يستمر في سجماته متنقلاً من حرف الى حرف ، يبني عليه ما أسعفته القريحة من سجمات قد تطول وقد تقصر .

وليس من قاعدة ثابتة في سجعهم ، ولكنهم بشكل عام كانوا يكثرون من السجمتين او الثلاث ، ويقلون في الاكثر من ذلك ، وهي الحالة الاخيرة تبدو على نثرهم ظلال الثقل والتكلف .

وفي النموذجين السابقين نلاحظ السجمات المزدوجة والثلاثية والخماسية ، اما الرباعية فمثاله ما جاء في رسالة الأمير الاعلى أبي يعقوب الى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي .

« ... ان من الواجب الحتم والمفترض الجزم ، ان يقدر أولًا النعمة بكمالها ، ويعمر خاطره بتفصيل اجمالها ، ويحضر في ذهنه بهجة جمالها ، ويسرح عين اعتباره في مناقل أحوالها ... »[٥٧] .

وقد تصل السجمات في بعض مكاتباتهم الى احدى عشرة سجمة مثل ما جاء في رسالة لابي الحسين بن عياش عن أمير المؤمنين أبي يعقوب في فتنة غمارة ومقتل سبع بن متحفاد . منها « ... مواقف حَيرته وندمه ، كما ان من صدق في الاعتلاق بحبله والتمسك بعصمه ، وركن الى ذراه وروى الى حرمه ، فقد أخذ بالوثيق من عهود نممه ، وارتقى في مرتقى فوزه في سببه المتين وسلمه ، ونصلي على محمد رسوله ونبيه الذي ابتعثه بباهر حكمه ، وممجز كلمه ، فهدى الى نهج الحق وأممه ، ودلّ على سحنته ولُقمه ، وأنار برسالته الجامعة ما غطى من غياهب الضلال وظلمه ، وأبلغها حنيفية ، سمحةً الى عرب الانام وعجمه ... »[٥٨] وبعدها ياتي بسجمتين مختلفتين ثم يعود الى السجمة السابقة نفسها لياتي بثمانٍ متتاليات منها . والملاحظ ان سجماتهم لا تاخذ على العموم توازناً ولا تناسقاً في عدد مفرداتها وفي أحوالها وانما تتفاوت وتتباين بين سجمة وأخرى .

ومن الملاحظ ان الكاتب ابا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش قد استخدم الطريقة السابقة نفسها في احدى رسائله ، وذلك بان ياتي بمجموعة جمل ذات سجمة واحدة ثم ياتي بجملتين بسجمة مغايرة ليعود بعدهما الى سجمته الاولى فيبني عليها عدة جمل قد تزيد من العدد الاول او تنقص ثم يغير النظام بجملتين متوافقتين في سجعهما ولكنهما مغايرتين لما قبلهما وما بعدهما ، ويكرر سجمته الاولى التي بدأ الرسالة بها ... وهكذا ... ومثاله قوله في مقدمة رسالة كتبها عن الامين محمد الناصر الموحدي « الحمد لله فاتح الاعلاق ، ومانح الاعلاق ، ممد هذه الدعوة الامامية من السبع الطباق ، وناصرها في البحار المرتجة الغوارب النازحة الافاق ، الواحد الذي فطر هذه العصابة على التظافر في اعزاز دينه والاتفاق ، وأغناهم في كل موطن ومازق طمنٍ وضربٍ عن السمر العوالي والبيض الرقاق ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه ورسوله الناشيء في أشرف المناسب وأكرم الأعراق ، المنبعث لتغيير السنة الجاهلية ولتتميم مكارم الاخلاق »[٥٩]

وبعد هذه السجمات القافية ياتي الكاتب بجملتين على سجمة مغايرة لما سبق فيقول «« المصطفى على حين فترة من الرسالة ، وعموم من الجهالة والضلالة » وبعدهما يعود الى سجمته القافية السابقة ، فيكمل كلامه بقوله « بالايات الساطعة الوضوح النيرة الاشراق ، الداعي الى الله بالمواعظ المستولية على القلوب والسيوف المستعلية على الاعناق ... الخ » وهكذا يستمر الكاتب الى ما شاءت له قريحته ثم يغير سجمته بسجمة مزدوجة لتغيير النبرة وابعاد الملل الذي قد يولده في نفسه او نفس السامع كثرة تكرار السجع على صوت واحد وحرف واحد .

وفي رسالة اخرى له اتبع أسلوباً آخر في طريقة صياغة الرسالة حيث يعتمد سجمة معينة تكون هي الام او العمود الفقري في هيكل الرسالة ، وتنضوي داخل كل سجمة سجمتان فرعيتان ، وبذلك يخلق الكاتب تسجيماً داخلياً ضمن التسجيع العام للرسالة ، ولكن هذا الاسلوب ليس هو الترصيع الذي أشار اليه الاقدمون لانه يختلف عنه في طريقته[٦٠] . من نماذجه رسالة كتبها ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش عن الامير محمد الناصر الموحدي يقول فيها « الحمد لله الحق بكلماته ، ومبطل الباطل برغم دعاته ، وناصر هذا الحزب في حركاته وسكناته ، ومظهره في مأم يؤمهُ ، وشمتٍ يلمُه ، على عداته ، ومنجده على كل منويّ قريبٍ او قصي ، بصائق عداته ، الواحد الذي قرن النصر المؤزر ، والفتح الميسر ، بعزماته ... الخ »[٦١] ، فقد كانت سجمته الام مبنية على حرف الهاء المسبوق بالتاء والالف ، ولكنه وفي رغبة منه في زيادة الجذب الموسيقي الذي تولده الاصوات المتناسقة المنبعثة عن

السجع أوجد أصواتاً جديدة وجرساً اضافياً بما اوجده من سجمات داخلية هي في النص السابق تتكون من المفردات : يومه ... يلمه ، مثوي قصي ، المؤزر ، الميسر .

وهذا اللون من النثر المسجوع لا يخلو من تصنع وتكلف تبعدانه من السلاسة والانسيابية .

ويحلو لبعض الكتاب ان يظهر مقدرته اللغوية فيتعمد الاتيان بسجماته ملتزمة باكثر من حرف وهو ما يسمى في الشعر « لزوم ما يلزم » ، منه ما جاء في رسالة ابي عقيل عطية بن عطية التي كتبها عن امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي اذ يقول فيها ... « وهم يتدمّمون من اصرارهم ، ويتوسلون بخلوص اعلانهم وإسرارهم ، ويصرحون بأن ما سلف من سلف ، ليس من إعمارهم ، .... ثم صدروا على بركة الله وقد ظفر بالرحمة آئبهم وتائبهم ، وشكرت مواقع النعمة السنتهم وحقائبهم »[١٢] ومن وسائلهم في اضفاء بهاء وجمالية على نثرهم تطعيمه بالمحسنات البلاغية ، والبهارات اللفظية التي تخلق تناغمات صوتية ، او تناسقات في مقاطع الكلام ، او اشارات في ذات القارىء او السامع تخلقها وتحفزها ما تولده المفردات من صور وتشبيهات واستعارات يكون للجناس والطباق والتشبيه وغيرها من أساليب بلاغية معروفة قسط واف في بنائها وتشكيلها ... وبما ان ذوق العصر آنذاك كان يطرب لمثل ذلك ، ويعجب به ، فقد أعطى النثار والكتاب هذا الجانب أهمية خاصة وعناية ملحوظة في اساليبهم ، فلا تكاد رسالة من رسائلهم تفتقر الى تلك الالوان او تخلو من تلك الاصباغ والمجملات البيانية والبديعية . وان استخدامها بمقدار وحسب مقتضى الحال يكون جميلًا ورائعاً ، ولقد اكد ذلك الدكتور ابن شريفة وهو بصدد الحديث عن خصائص نثر أبي المطرف بن عميرة حيث قال « ان خصائص نثره هي على العموم الخصائص ذاتها التي عرفت في النثر الفني منذ القرن الرابع الهجري وظلت تتطور وتتعقد بعد ذلك ، وهي خصائص تقوم على السجع والجناس بمختلف أشكاله وعلى باقي ضروب البديع والوانه »[١٣] .

ومن امثلة تذكية نثرهم بالعناصر البلاغية ، وتحسين جرسه وصوره وشكليته قطعة نستلها من رسالة ابي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش من امير المؤمنين الى الطلبة والاشياخ « ... وعند ذلك تحرك الموحدون على ما جاءت به السنة الحنيفية من الاعداد والارهاب ، عالمين بأن لا عدة ولا مُدة ولا قول ولا صول الا بما يفيض عليهم من خزائن رحمة ربهم العزيز الوهاب ، عائذين بالله من الاعجاب بان يركبوا له طرفاً جامحاً ويقدوا اليه طَرفاً طامحاً »[١٤] ... فالعبارات السابقة تتزين بما ذكرناه من محسنات بديعية بيانية وسجعية ، تحقق لها شيئاً من الجمالية والرونق ، ومن أمثلة استخدامهم للجناس والطباق بكثرة ما جاء في رسالة خلف الغافقي القيتوري عن ابي القاسم العزفي الى ابي اسحاق الموحدي نقتبس منها العبارات التالية في الغرض المذكور « .... والبركات الكفية لبدد الاسلام بالنظم ، ولَشعْث الانام باللم ، والنظر الجميل الذي يفزع له فيظل غرب مزعج الفرع ، ويصرف صرف مُذهل الفم ... وبحسب هذه المقدمات التي صرحوا بها وأشاروا ، وشادوا على أصدق الوفاء وأوفى الصدق ما منها شادوا ، ... وعَكْس على من رامه ورماه من الاعداء رومه ورمايته ... ومرمي مروم من مشرك أو شرّ منه في الأجلاب عليه معه مشترك »[١٥] .

٤ . ومن خواص نثر الموحدين الرسمي ميله الى « الاسهاب والتطويل على عكس ما نرى في الرسائل المرابطية »[١٦] ، وعند الرجوع الى رسائلهم الديوانية تتاكد لدينا هذه الخاصية ، ويتضح ذلك أكثر في رسائل الخلفاء الى الرعية عندما يكون موضوعها في مجالات الاصلاح والنصيحة والدعوة الى الالتزام بشريعة الاسلام او المحافظة على القوانين وتنفيذها . وغير ذلك من توجيهات وتعليمات تصدرها مراكز السلطة[١٧] وبالمقابل فاننا نجد رسالة أميرية تميزت بالقصر والايجاز البلاغي الجميل ، فلم تزد عن سطرين هما عبارة عن تظهير لرسالة وردت الى المركز من الفونسو الثامن ملك قشتالة الى أمير المؤمنين المنصور التي تضمنت سخرية واستخفافاً بالموحدين ، فاثارت حفيظتهم ودفعتهم الى الجهاد لردّ كيد المعتدين . فكانت موقعة الارك التي انتصر فيها المسلمون[١٨] ، اما الجواب فكان ــ كما قلنا ــ تظهيراً للرسالة مختصراً ولكنه بليغ محكم ، اذ أجاب عليه ابن المنصور الأمير محمد الناصر ما نصه « قال الله العظيم : ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع »[١٩] .

فمقتضى الحال ، وطبيعة الظرف ، وأسلوب التحدي والتطاول التى كتبت بها الرسالة كل ذلك فرض نوع الجواب وطريقته ورسمه ، فكان جواباً موفقاً صادقاً معبراً عما جاشت به الصدور وتزاحمت به المشاعر .

هوامش

١ . القلقشندي : صبح الاعشى (تحقيق محمد حسين شمس الدين) ١ / ١٣٥ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ .
٢ . نفسه .
٣ . الصياصي : الحصون .
٤ . القلقشندي : صبح الاعشى ١ / ٨٧ نص منقول عن مقامات الحريري .
٥ . انظر : نفسه ١ / ١٣٩ وما بعدها .
٦ . الاخرق : هو الاحمق .
٧ . القلقشندي : صبح الاعشى ١ / ١٣٩ — ١٤١ .
٨ . أ . لافي بروفانسال : مجموع رسائل موحدية من انشاء الدولة المؤمنية ص ٩٥ وما بعدها . المطبعة الاقتصادية — الرباط ١٩٤١ .
٩ . القلقشندي : صبح الاعشى (٧ / ٣١) ٧ / ٣١ .
١٠ . انظر : نفسه / هامش ٧ / ٣١ .
١١ . ذكر الدكتور عبد الهادي التازي في هامش كتاب « المن بالامامة » أن الموحدين اتفقوا على وضع علامة « الحمد لله وحده » منذ شهر رمضان ٥٦١ هـ ، وذلك على ما يقول ابن خلدون اقتداء بالامام : هامش صفحة ٧٨ .
١٢ . عبد الملك بن صاحب الصلاة : المن بالامامة (تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ص ٢٢٥ ، ط ٣ / دار الغرب الاسلامي بيروت ، لبنان ١٩٨٧ .
١٣ . اندوجر : هي بلدة أندلسية تقع في شمال قرطبة على نهر الوادي الكبير ، وبالاسبانية ANDUJAR (انظر : ابن الخطيب : الاحاطة هامش ١ / ٤٢٢) .
١٤ . لسان الدين ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق محمد عبد الله عنان) ١ / ٤٢٢ طبعة الخانجي — القاهرة ١٩٧٣ .
١٥ . القلقشندي : صبح الاعشى ٧ / ٣٤ .
١٦ . نفسه ٧ / ٣٧ ، وانظر الانموذج الذي ذكره القلقشندي لهذا النوع من المكاتبات في الصفحة نفسها .
١٧ . أ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٩٣ .
١٨ . نفسه ٢٤١ .
١٩ . عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب (تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي) ص ٢٢٥ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ط ١ ١٩٤٩ م — ١٣٦٨ هـ ، ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٧٢ ، ٧٦ .
٢٠ . ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب — قسم الموحدين — (تحقيق الاساتذة محمد ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت ، محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة) ص ١١٥ ط / دار الغرب الاسلامي — بيروت ١٩٨٥ ، ١٤٠٦ هـ .
٢١ . نفسه ١١٥ ، ١١٦ .
٢٢ . المقري : نفح الطيب (تحقيق د . احسان عباس) ٥ / ١٨٧ ، ط . دار صادر بيروت ١٩٦٨ ، ١٣٨٨ هـ .
٢٣ . نفسه .
٢٤ . انظر : خلف الغافقي القبتوري : رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي (تحقيق دكتور محمد الحبيب الهيلة) ص ٤٨ .
٢٥ . نفسه ص ١٠٩ .
٢٦ . نفسه ، ولم يذكر الاسم هنا في الاصل ، ويبدو ان الناسخ أسقطه عمداً ، ولكن الرسالة ، وحسبما هو معروف من أصل الكتاب انها مرسلة من قبل ابي القاسم محمد بن احمد العزفي ملك سبتة .
وانظر رسالة اخرى مماثلة لها في رسومها ، ذكر فيها اسم مرسلها كاملاً ، في كتاب ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٣٠٤ .
٢٧ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٤٤ ، ص ٢٧٧ .
٢٨ . هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الرعيني الاشبيلي ، كان على صلة بالموحدين ، وقد توفي أواخر سنة ٦٠٤ هـ ، (انظر : المن بالامامة هامش صفحة ٢٥٩) .
٢٩ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٥٩ .
٣٠ . نفسه ٢٠١ .
٣١ . ابن محشرة : هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي من اهل بجاية ، وكان كاتباً لعبد المؤمن بن علي في مراكش ، ولد بحدود سنة ٥٤١ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٨ هـ (انظر :
أ . ٣٢ — نفسه ص ١٥٨ ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٥٨ .
٣٣ . المقري : النفح ٢ / ٣٦٢ . وانظر مثال آخر في : القبتوري : رسائل ديوانية ص ١١٥ .
٣٤ . المراكشي : البيان المغرب — قسم الموحدين — ص / ٢٧١ .
٣٥ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ٢٦٣ .
٣٦ . محمد بن ابراهيم بن خيرة المواعيني ابو القاسم من اهل قرطبة وسكن اشبيلية ، وله تواليف ، توفي نحو سنة ٥٧٠ هـ (انظر : ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ، هامش صفحة ٢٢٤) .
٣٧ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٢٢٤ .
٣٨ . القلقشندي : صبح الاعشى ٧ / ٣٠ — ٣١ .
٣٩ . البشير المجذوب : حول مفهوم النثر الفني ص ١٤ الدار العربية للكتاب تونس ١٩٨٢ .

X

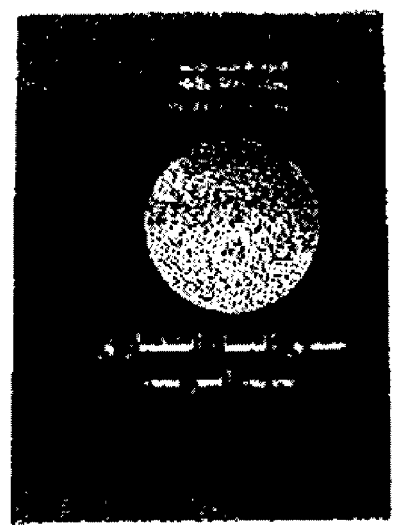
٤٠ . د . شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٣٧ طـ ٤ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
٤١ . محمد بن شريفة : أبو المطرف احمد بن عميرة المخزومي ص ١٨٠ منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـــ الرباط ١٩٦٦ .
٤٢ . نفسه ١٨١ .
٤٣ . انظر : د . حسين نصار ، نشأة الكتابة ص ٩٧ ، طـ ٢ / ١٩٦٦ مكتبة النهضة المصرية .
٤٤ . إ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٣ .
٤٥ . المراكشي : البيان المغرب . قسم الموحدين ص ٢٦٤ .
٤٦ . القلقشندي : صبح الاعشى (تحقيق د . يوسف علي طويل) ٦ / ٢٩٦ .
٤٧ . نفسه ٦ / ٢٩٥ .
٤٨ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٧٣ .
٤٩ . نفسه ٧٦ .
٥٠ . نفسه ٨٠ .
٥١ . انظر الرسالة في : المقري : النفح ٢ / ٣٦٢ وما بعدها .
٥٢ . نفسه ٢ / ٣٦٤ .
٥٣ . انظر الرسالة في : نفسه ٥ / ١٨٤ ، ابن الخطيب : الاحاطة ١ / ٢٦٧ طـ ٢ القاهرة ١٩٧٣ .
٥٤ . ابن سعيد المغربي : القدح المعلى (تحقيق ابراهيم الابياري) ص / ٥٠ طـ ٢ . دار الكتب الاسلامية ٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
٥٥ . ابن الخطيب : الاحاطة ٢ / ٤٨٦ .
٥٦ . ابن الابار : اعتاب الكتاب (تحقيق الدكتور صالح الاشتر ص ٢٢٧ . طبعة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٦١ ، المقري : النفح ٥ / ١٨٧ .
٥٧ . ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ٧٨ .
٥٨ . نفسه ٢٣٤ .
٥٩ . ١ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٤١ .
٦٠ . انظر : ابن شريفة : أبو المطرف ٢١٩ .
٦١ . ١ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٤٨ ـــ ٢٤٩ .
٦١ . نفسه ٨٤ .
٦٣ . ابن شريفة : أبو المطرف ٢١٨ .
٦٤ . ١ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ٢٣١ .
٦٥ . انظر الرسالة في : القبتوري : رسائل ديوانية ص ١١٥ ـــ ١٢١ .
٦٦ . ابن شريفة : ابو المطرف ١٨١ .
٦٧ . انظر مثلًا : ابن القطان : نظم الجمان (تحقيق الدكتور محمود علي مكي ـــ الرباط ص ١٥٠ ـــ ١٦٧ ، رسالة طويلة لابن عطية اورد فيها اطاراً عاماً لسياسة الدولة وأوامرها وتوصياتها وتوجيهاتها لابناء الاندلس .
وكذلك : إ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ١٢٦ ـــ ١٣٨ في الغرض نفسه .
٦٨ . انظر : علي ابن ابي زرع : الانيس المطرب ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة دار المنصور ـــ الرباط ١٩٧٣ .
٦٩ . نفسه ٢٢١ والآية من سورة النمل رقم ٣٧ .

المصادر والمراجع

١ . ابن الابار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) .
اعتاب الكتاب : تحقيق الدكتور صالح الاشتر بمة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١ .
١٩٧٣ . المنسوب خطأ لابن ابي زرع
٢ . ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني (ت ٧٧٦ هـ) : الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، طبعة الخانجي ـــ القاهرة ١٩٧٣ .
٣ . ابن سعيد المغربي : ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد ، (ت ٦٨٥ هـ) اختصار القدح المعلى : تحقيق ابراهيم الابياري طـ / ٢ دار الكتب الاسلامية ١٤٠٠ هـ ـــ ١٩٨٠ م .
٤ . ابن صاحب الصلاة عبد الملك : المن بالامامة : تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ، دار الغرب الاسلامي بيروت ـــ لبنان ١٩٨٧ .
٥ ـــ ابن عبد الرحيم ، ابو محمد صالح : الانيس المطرب ، مطبعة دار المنصور للطباعة ـــ الرباط ١٩٤٣ ، ونسب للكتاب خطأ الى ابن أبي زرع
٦ . ابن عذاري المراكشي : ابو العباس احمد بن محمد (كان موجوداً سنة ٧٠٦ هـ) : البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، قسم الموحدين ـــ تحقيق الاساتذة (محمد ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة) دار الغرب الاسلامي ـــ بيروت ١٩٨٥ ـــ ١٤٠٦ هـ .
٧ . ابن القطان : نظم الجمان (جزء منه) تحقيق الدكتور محمود علي مكي ـــ الرباط .
٨ . إ . ليفي بروفنسال ، مجموع رسائل موحدية من انشاء الدولة

المؤمنية ، المطبعة الاقتصادية ـ الرباط ١٩٤١ .
٩ . البشير المجذوب : حول مفهوم النثر الفني ، الدار العربية للكتاب ـ تونس ١٩٨٢ .
١٠ . حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية ، طـ / ٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .
١١ . شوقي ضيف / الفن ومذاهبه في النثر العربي ، طـ / ٤ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
١٢ . القبتوري : خلف الغافقي : رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٧٩ ـ ١٣٩٩ هـ .
١٣ . القلقشندي : أبو العباس احمد بن علي بن احمد (ت ٨٢١ هـ) ، صبح الاعشى في صناعة الانشا / الجزء الاول والسابع ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، طبعة دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧ ، الجزء السادس : تحقيق الدكتور يوسف علي الطويل .
١٤ . محمد بن شريفة : أبو المطرف احمد بن عميرة المخزومي ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط ١٩٦٦ .
١٥ . المراكشي : عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ) / المعجب في تلخيص اخبار المغرب / تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي .
مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩ م ـ ١٣٦٨ هـ .
١٦ . المقري : احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) ، نفح الطيب : تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٩٦٨ .

• • • •





الجهاد في خطابة صدر الأسلام

ناهي ابراهيم العبيدي
الجامعة التكنولوجية ـ هندسة البناء والانشاءات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

موضوع هذا البحث هو « الجهاد في خطابة صدر الاسلام » ونعني به جهاد الكلمة المؤمنة الصادقة المؤثرة في النفس التي صدحت بها حناجر اولئك الرجال العظام في ميادين الجهاد إبان غزوات الرسول (ﷺ) ، وحروب الرده ، والفتوحات الاسلامية . تلك الكلمة التي عبّر فيها الخطباء المجاهدون عن انتمائهم الحقيقي الى الاسلام وايمانهم القوي به ، والتضحية في سبيله . ويأتي في المقام الاول منهم النبي محمد (ﷺ) ، وخلفاؤه رضوان الله عليهم ، والقادة والأمراء والمقاتلون .

لقد كانت الخطابة يومذاك وسيلة المجاهدين في استنهاض الهمم والدفاع عن الدين ، وإرهاب الاعداء ، وجمع كلمة المؤمنين ، بل كانت بحق عماداً وسنداً للرسالة التي أمنوا بها ، وسبباً من أقوى الاسباب في تحقيق اهدافهم العظيمة وغاياتهم النبيلة . لذلك فإن الحديث عن أثر خطبة الجهاد في عصر الرسالة هو إبراز لأهمية الخطابة ، وتأكيد لأثرها في حث المؤمنين الصابرين من أبناء شعبنا وأمتنا على مواصلة الجهاد ضد قوى الشرك والضلاك التي شنّت عدوانها اللئيم على قطرنا المجاهد ، وتسعى الآن بكل الوسائل الى خلخلة الإيمان وإضعافه في نفوس المجاهدين ، ومنعهم من تحقيق رسالتهم الانسانية في الحياة ، التي أستلهموا معانيها ومبادئها من رسالة الاسلام وقيمه السمحاء .

لقد حان الوقت لان تعيش امتنا العربية عيشة كريمة كغيرها من الامم ، ولاسبيل لها الى ذلك إلا بالجهاد العملي الذي أساسه الرغبة في التضحية والحب في الاستشهاد . من هنا جاء هذا البحث ليقدم للمجاهدين المؤمنين صورة ذلك الجهاد العملي الذي مارسه المجاهدون بسيوفهم وألسنتهم في عصر الرسالة .

وقد اشتمل البحث على تمهيد وثلاثة مباحث ، تحدثت في التمهيد عن الخطابة في العصرين الجاهلي والاسلامي : نشأتها ، وانواعها ، ودواعي تطورها وازدهارها في الاسلام . وتكلمت في المبحث الاول عن الجهاد في خطب معارك الاسلام الاولى (في غزوات الرسول (ﷺ) ، وفي حروب الردة) ثم تحدثت في المبحث الثاني عن الجهاد في خطب الفتوحات الاسلامية (في فتوحات الجبهة الشرقية ، وفي فتوحات الجبهة الغربية) أما المبحث الثالث فتحدثت فيه عن الخصائص الفنية لخطب الجهاد في صدر الاسلام .

أرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث ، وأسأل الله أن يوفقنا ، ويجنبنا الخطأ ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

التمهيد

١ ـ الخطابة في العصر الجاهلي

لاريب أن العرب عرفوا فن الخطابة قبل الاسلام بزمن طويل ، إذ كانت الحياة العامة في ذلك العصر تستدعي وجود هذا الفن . فالحياة القبلية وماتستتبعه من منازعات وخصومات وحروب ، وماتؤدي اليه هذه الحروب أحياناً من محاولات لاصلاح ذات البين ونشر السلم بين القبائل المتنازعة . واضطراب الحياة الدينية ومارافق هذا الاضطراب من محاولات للارشاد والدعوة لنبذ عبادة الأوثان . والحياة السياسية وماكانت تفرضه على العرب من صلات سلمية أو حربية بالامم المجاورة لهم ، وصلات افراد المجتمع القبلي بعضهم ببعض ، من تزاوج وتعامل وتنافر وتفاخر ، ومافطر عليه العرب من فصاحة ولسن وحضور بديهة ـ كل اولئك أمور كانت تستدعي معرفة العرب بالخطابة ، بل أن تصيب خطا ما من الرقي[1] .

وبالرغم من أن العرب قد عرفوا الخطابة قبل الاسلام ، وكان لهم نصيب وافر منها ، إلا أنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب من جهة أن الشعر أعلق بالاذهان وأسرع تقلباً في البلاد ، فهو أرفع صوتاً بمفاخرهم ، واكثر إذاعة لمثالب أعدائهم . وتقديم العرب للشاعر على الخطيب ، أو إقبالهم على حفظ الشعر اكثر من اقبالهم على حفظ الخطب ، كان السبب في قلة ماوصل الينا من خطبهم في الجاهلية(٢) ولايعني هذا الإقبال على حفظ الشعر دون النثر أن العرب لم يعتنوا بخطبهم ونثرهم ، بل على العكس من ذلك إنهم اعتنوا بهما غاية الاعتناء . وهذا ماوضحه الجاحظ حين قال : « ماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به العرب من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولاضاع من الموزون عشره »(٣) ولهذا ضاع قدر كبير من خطبهم قبل عصر التدوين « لان الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو في الاصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ، فإذا انقضى المقام حَفِظه مَنْ حَفِظه ، ونَسِيَه من نَسِيَه ، بخلاف الشعر »(٤) الذي ضاع منه قدر قليل . وطبيعي ان يبقى الشعر ويتفوق في بقائه على النثر ، لجريانه على ألسنة الناس ، وسهولة حفظه بسبب وزنه وقافيته .(٥)

ويمكن أن نضيف أن شيوع الأمية ، وبعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه الخطابة وعصر تدوينها ، كانت هي الأخرى سبباً في قلة ماوصل الينا من خطبهم ، ولو كانت العرب أمة كاتبة ، يدونون آثارهم في صحف ، او ينقشون كغيرهم من امم التاريخ في الاحجار ، لاستطاع الناس ان يجدوا من آثار بلاغتهم في المساجلة بالخطب ، والمناقلة بالحوار شيئاً كثيراً ، غير أنك لاتزال تعد كثيراً من اسماء خطبائهم وساداتهم ، ثم لاتجد لهم او لاكثرهم شيئاً من القول مذكوراً .(٦)

ومن ألوان الخطابة التي كانت معروفة قبل الاسلام :

١ ـ المنافرات والمفاخرات :

وقد روت لنا كتب الادب جانباً من هذه المنافرات ، كمنافرة علقمة بن علاثه وعامر بن الطفيل العامريين ، وكان الحكم بينهما هرم بن قطبة الفزاري ، وكان المتنافران يتنافسان على الرياسة في بني عامر ، ويزعم كل منهما أنه أولى من صاحبه ، فيعدد مآثره ومناقبه ، يقول عامر : « والله لانا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصبا » فقال علقمة : لانا خيرٌ منك ليلاً ونهاراً ، ثم تنافرا آخر الامر الى هرم بن قطبة ، فسوى بينهما بأن جعلهما كركبتي البعير ، وحقن بذلك دماء القوم(٧) .

٢ ـ خطب الحث على القتال أو على الاخذ بالثار :

وأشهرها خطبة هاني بن مسعود الشيباني في قومه يحرضهم على قتال الفرس يوم ذي قار(٨) .

٣ ـ خطب إصلاح ذات البين والدعوة الى الصلح وحقن الدماء :

ومن أشهرها خطبة قيس بن خارجة التي قالها إثر حرب داحس والغبراء ، وقد قيل إنه ظل يخطب الى الليل ، وقد سماها العرب « العذراء » لانه كان أبا عُذْرها(٩) . ولم تصل إلينا هذه الخطبة ، شأنها شان كثير من الخطب المشهورة .

٤ ـ خطب الإملان أو الزواج .

وكان يتولاها عادة شريف من رهط الرجل الراغب في الزواج ، فيخطب معدداً مآثر ذلك الرجل ، ويجيبه رجل من رهط المرأة بمثل مقاله . وكتب الادب والسيرة تروي لنا خطبة ابي طالب حين اراد الرسول محمد (ﷺ) الزواج من السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) . وكان لهذا النوع من الخطب أصول وآداب معينة ، والسُنة فيها أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب . وقد ذكر الجاحظ صورة خطبة النساء في الجاهلية وهي :« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ماسألت ، ولنا ماأعطيت » .(١١)

٥ ـ خطب الوعظ والارشاد :

وكان يتولاها من له في قومه منزلة الحكيم الناصح المرشد ، ولعل خطبة قس بن ساعدة التي قيل لنا إنه قالها في سوق عكاظ ، وأن الرسول (ﷺ) رواها عنه .(١٢) هي أشهر هذا الضرب .

٦ ـ خطب المحافل والوفود :

وكانت تلقى عادة في الاسواق والمواسم وفي مجالس الملوك عند وفادة سادة القبائل عليها مفاخرين او مهنئين او معزين او لغير ذلك من الاسباب ، ومن جيد الخطب الحفلية خطبة اكثم بن صيفي التي عزّى بها عمرو بن هند عن أخيه .(١٣)

٧ ـ الوصايا :

وهي في الغالب يوجهها الرجل الى آله او عشيرته عند احساسه بدنو منيته ، ليرشدهم فيها الى الطريق الذي ينبغي ان يسلكوه ، او الاداب التي ينبغي ان يتحلوا بها . ومن اشهر هذه الوصايا وصية عامر بن الظرب العدواني لبنيه(١٤) ، ووصية أكثم بن صيفي لقومه(١٥) ، ووصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم اياس(١٦) .

٦ ـ سجع الكهان :

وعُرف هذا الضرب من الخطابة الجاهلية بهذا الاسم لالتزامه السجع، ولان الذين عرفوا به هم طائفة الكهان الوثنيين في الجاهلية، وكان الناس يفزعون اليهم ليطلعوهم على أمور الغيب، ويفسروا لهم أحلامهم ورؤاهم وكثيراً ماكانوا يحتكمون إليهم في المنافرات. وكتب التاريخ تحدثنا عن منافرة هاشم بن عبدمناف وأمية بن عبد شمس، واحتكامهما الى الكاهن الخزاعي الذي نفر هاشماً على أمية[17].

هذا وتذكر لنا كتب الادب والتاريخ اسماء طائفة كبيرة من الخطباء المشهورين في العصر الجاهلي، منهم: قس بن ساعدة[18] هند بنت الخس المعروفة بالزرقاء[19]، لقيط بن معبد[20] أكثم بن صيفي[21]، ضمرة بن ضمرة المجاشعي[22]، حاجب بن زرارة، قيس بن عاصم[24] كعب بن لؤي[25]، عتبة بن ربيعة[26]، هاشم بن عبدمناف[27]، هاني بن مسعود الشيباني[28]، وغيرهم كثيرون، ولكن جُل هؤلاء لم يصل الينا شيء من خطبهم، وان ماوصل الينا منها يعد قليلاً جداً، وقد اعتبره بعض الباحثين منتحلاً لايمت الى الجاهليين بصلة[29]، ولكن عدم الاطمئنان الى صحته لايفضي بنا الى انكار وجود الخطابة عند العرب قبل الاسلام.

تلك كانت الخطابة وموضوعاتها في العصر الجاهلي، فلما جاء الاسلام وأحدث تغييره الهائل في العرب، كان من الطبيعي ان ينعكس هذا التغيير على الخطابة، اذ اعتمد عليها في إرساء دعوته اعتماداً يكاد يكون كلياً.

٢ ـ الخطابة في العصر الاسلامي

ولاعجب إذا قلنا ان الخطابة في العصر الاسلامي قد توافر لها من دواعي التطور والازدهار مالم يتوافر لها مثل في العصر الجاهلي. ويتفق الباحثون على أن الخطابة في هذا العصر قد حققت رقياً وازدهاراً لم يتحقق لها في أي عصر من العصور، وكان ذلك بسبب عوامل مختلفة[30] يمكن اجمالها بالآتي:

١ ـ القرآن الكريم:

منذ أن نزل القرآن وأعجز العرب ببلاغته أصبح معينا للادباء، ينهلون منه ويقتبسون، ويسعون الى محاكاة اسلوبه. وكان اثره في النثر ابرز منه في الشعر. فكذلك نجد أثره في خطابة هذا العصر واضحا قوياً، سواء من حيث الاسلوب والصياغة، أو من حيث الافكار والمعاني، أو من حيث الصور والأخيلة. هذا فضلا عن اقتباس أيات منه، وتوشيح الخطبة بها، حتى انهم سموا الخطبة التي لم توشح بالقرآن، ولم تزين بالصلاة على النبي (ﷺ) بـ «الشوهاء»[31].

٢ ـ لقد أضافت احاديث الرسول (ﷺ) الى اللغة ثروة من المعاني وثروة من الاساليب التي كانت تعد من النبي (ﷺ) ابتداعاً وابتكاراً، مثل قوله (حمى الوطيس) وقوله (مات حتف أنفه) وقوله (رويدك رفقاً بالقوارير) وفضلاً عن ذلك أنها هذبت اللغة تهذيباً قريباً من تهذيب القرآن، اذ سهل الفاظها، ورق اساليبها، وذهب بالحوشي منها، فكان لكل هذا اثره في الخطابة، هذا من ناحية. ومن ناحية اخرى أن كثيراً من الخطباء كان يستشهد في خطبه بشيء مما أثر عن الرسول (ﷺ) تيمناً بقوله، وتاكيداً على صحة مايدعون.

٣ ـ إن العرب، مع القول بوجود الكتابة بينهم، كانت الامية شائعة بينهم، وفي هذه الحال تصبح الخطابة هي الوسيلة الوحيدة لدعوتهم الى الدين الجديد، واقناعهم به، وايصال شرائعه اليهم.

٤ ـ إن الاسلام عندما جاء أعلى من شان العقل، ورفع من قدره، إذ اتجه الى الاقتاع بالمنطق والحجة، وجعل هذا شرطاً في صحة العقيدة، وهو أصل من أصول الدين مكن الخطابة من أن يكون لها دور بارز يتراجع معه الشعر الذي يخاطب العاطفة لتحل الخطابة محله، ويفسح لها المجال لمخاطبة العقل حتى يدرك كل ماجاء به الدين من أصول تتصل بالعقيدة.

٥ ـ لقد ارتبطت الخطابة بالدين ارتباطاً وثيقاً، فقد كانت في البداية اداة للدعوة الى الاسلام، ثم اتخذت بعد ذلك وسيلة للتشريع ورسم الحدود التي تقوم عليها الدولة في الاسلام، ونظم الحياة في المجتمع الجديد.

٦ ـ إن المجتمع العربي بعد الاسلام نال حظاً من الرقي السياسي والاجتماعي، فقد اصبحت تلك القبائل التي كانت تتناحر في الجاهلية أمة واحدة، تخضع لراية واحدة هي الاسلام، ويقودها قائد واحد هو الرسول (ﷺ) ومن بعده خلفاؤه الراشدون، (رضي الله عنهم) ومن ثم دعت الحاجة الى الخطابة لتكون الصلة بين الرعية والنبي (ﷺ) وخلفائه، ثم بين مجتمعات الامصار، وولاتها، والجيوش وقادتها.

٧ ـ إن المواقف التي عاشها المسلمون بعد وفاة الرسول (ﷺ) من جدل حول الخلافة، وارتداد بعض العرب عن الاسلام، ووقوع الفتنة بين المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان (رضي الله عنهم) والخلافات التي ظهرت في زمن الامام علي (رضي الله عنه) كل هذه المواقف ادت الى أن تكون للخطابة مجالها الفسيح الذي جعلها ترقى وتزدهر.

٨ ـ واذا كانت الاحداث الداخلية كلها عاملاً فعالاً في ازدهار

الخطابة في صدر الاسلام ، فان الفتوح الاسلامية التي اتسع نطاقها في زمن الخليفتين عمر وعثمان (رضي الله عنهما) والحياة الحضرية الجديدة التي عرفها العرب ، ولقيام حكومة نظامية لها دستورها وانظمتها ، ثم اختلاط العرب بالامم والحضارات الاخرى ، كان لهذا كله اثره في تطور الخطابة في هذا العصر ، واتسامها بسمات جديدة لم تعرفها من قبل .

٩ ـ ومما أعان أيضاً على تطور الخطابة وازدهارها في هذا العصر نظام الشورى الذي كان سائداً آنذاك ، وهو من أس الحكم الديمقراطي السليم . وقد جاء القرآن الكريم فوضع للمسلمين دستوراً يتبعونه بقوله « وأمْرُهُمْ شورى بينهم »[٣٢] وسار الرسول (ﷺ) على خطة الشورى ، فكان كثيراً مايستشير اصحابه فيما يعرض له من الامور العامة ، شانه يوم أحد ويوم الخندق مثلاً ،[٣٣] وكذلك شان خلفائه من بعده ، فعمر (رضي الله عنه) عندما أراد الخروج على رأس جيش لقتال الفرس خطب بالمسلمين واستشارهم في الامر .[٣٤]

١٠ ـ وفضلاً عن ذلك كله ان العرب كانوا أهل لسن وفصاحة ، وكانوا يجيدون القول اعداداً وارتجالاً ، وكانوا بطبعهم قادرين على تصريف وجوه الكلام بصورة تثير الاعجاب ، وتدل على تفتح في الذهن وسلامة في الطبع . والخطابة كما تقوم على الاعداد تقوم على الارتجال ، ومقدرة العرب في الضربين تهيء لها الازدهار والرقي ، وبخاصة حين تنبعث الدواعي وتتعدد الاغراض .

موضوعات الخطابة في هذا العصر :

وقبل أن نعرض لموضوعات الخطابة في هذا العصر لابد من الاشارة الى أن الاسلام قد قضى على بعض ضروبها التي كانت معروفة في العصر الجاهلي لزوال دواعيها ، وعدم توافقها مع مبادئه وتعاليمه ، فمن الوان الخطابة التي قضى عليها الاسلام (المنافرات والمفاخرات) لاتصالها بطبيعة الحياة الجاهلية ، والروح القائمة على العصبية القبلية ، والتنافر والتفاخر بالانساب والتنابز بالالقاب . ومع ان هذه المفاخرات قد انقرضت تماماً بمجيء الاسلام ، إلا أنها عادت الى الظهور ، ولكن في صور اخرى ، مثل صور المفاخرات التي كانت تحدث في مجالس الرسول (ﷺ) حين كانت تقدم عليه وفود القبائل ، من ذلك مفاخرة بني تميم للرسول (ﷺ) حين قدم عليه وفدهم ، وكان خطيبهم ثابت بن قيس بن الشماس وشاعرهم الزبرقان بن بدر . وانتهت المفاخرة باعتناق وفد تميم للاسلام[٣٥] .

ومن الانواع الاخرى التي انقرضت في هذا العصر (سجع الكهان) وذلك لإتصاله بالوثنية التي قضى عليها الاسلام . وقد ظهر في هذا العصر ضرب من السجع قصد به محاكاة القرآن الكريم ، وهو هذا السجع الذي جرى على السنة المتنبئين والدعاة امثال مسيلمة الكذاب وسجاح التميمية .[٣٦]

أما بشان موضوعات الخطابة التي ابقاها الاسلام وطورها فهي :

١ ـ الخطب الدينية :

وقد شملت العقائد ، والدعوة الى الاسلام ، والتشريع بما فيه من تبيين الحدود واقامة معالم الحلال والحرام ، والواعظ والارشاد بما فيه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وحث على مكارم الاخلاق ، وتبشير وانذار ، مثل خطبة الرسول (ﷺ) بمكة[٣٧] عندما نزل قوله تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[٣٨] وموعظته في أول جمعة بالمدينة[٣٩] ، وخطبته في فتح مكة[٤٠] وخطبته في حجة الوداع[٤١] ، ومثل مواعظ الخلفاء الراشدين والصحابة (رضي الله عنهم اجمعين) التي كانوا يقولونها في مناسبات مختلفة .

٢ ـ خطب الحث على الجهاد :

مثل خطبة رسول (ﷺ) يوم بدر الكبرى[٤٢] ، وخطبة ابي بكر (رضي الله عنهم) حين عزم على تنفيذ وصية الرسول (ﷺ) بتوجيه الجيوش لفتح الشام[٤٣] ، وخطبة عمر (رضي الله عنهم) حين ندب الناس لفتح العراق وبلاد فارس[٤٤] وخطبة الامام علي (رضي الله عنه) في أهل الكوفة[٤٥] ومثل خطب امراد الجيوش والقواد ورجال الحرب في المعارك التي خاضوها ضد الفرس والروم إبان الفتوحات الاسلامية . هذا وسوف يكون مدار حديثنا في الفصول القادمة على هذا النوع من الخطب إن شاء الله .

٣ ـ خطب المحافل والوفود : مثل خطبة عطارد بن حاجب بين يدي الرسول (ﷺ)[٤٦] وخطبة الاحنف بن قيس بين يدي عمر (رضي الله عنه)[٤٧] .

٤ ـ خطب السياسة وبيان منهج الحكم : مثل خطب الخلفاء عند توليهم الخلافة[٤٨] ، وخطب المهاجرين والانصار في سقيفة بني ساعدة[٤٩] .

٥ ـ المناظرات : مثل المناظرات التي قامت بين الامام علي (رضي الله عنه) وانصاره من جانب ، وبين الخوارج من جانب آخر[٥٠] .

٦ ـ خطب الاملاك او النكاح : مثل خطبة بلال التي قالها عندما خطب على امرأة من قريش[٥١] .

٧ ـ الوصايا : مثل وصية ابي بكر لعمر (ضي الله عنهما) حين عهد اليه بالخلافة من بعده[٥٢] ووصية عمر (رضي الله عنه)

لسعد بن ابي وقاص حين وجهه الى العراق عند ابتداء أمر القادسية [٥٣] ، ووصية المثنى بن حارثة الشيباني للمسلمين في يوم البويب[٥٤] .

والآن ، وقد عرضنا موضوعات الخطابة الاسلامية وطابعها العام ، مقارنة بموضوعاتها قبل الاسلام ، ينبغي أن نشير الى أشهر الخطباء العرب في عصر صدر الاسلام ، ويأتي في المقدمة منهم مثلهم الاعلى الرسول محمد (ﷺ) وخلفاؤه من بعد ، ابو بكر وعمر وعثمان وعلي (رضوان الله عليهم اجمعين) والصحابة الاخرين والقادة الميدانيين ، من امثال خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وابو عبيد بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، والمثنى بن حارثة الشيباني ، وثابت بن قيس ، ومن النساء عائشة والخنساء ، وغيرهم كثيرون . هذا وسوف نقف عند بعض خطبهم في الصفحات القادمة .

المبحث الاول

الجهاد في خطب معارك الاسلام الاولى

كتب على المسلمين الجهاد[٥٥] ، منذ أن بشر الرسول محمد (ﷺ) بالرسالة الاسلامية ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة وصريحة في الدعوة الى الجهاد ، من مثل قوله تعالى : (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ)[٥٦] وقال : (يَاأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[٥٧] وقال : (فَلَاتُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)[م٥٨] وقال : (يَاأيُّها النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِم وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[٥٩] قال : (وَمَنْ جَاهَدَ فَإنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[٦٠] وقال : (تُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأمْوَالِكُم وَأنفُسِكُم ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[٦١] وقال : (وَقَاتِلُوهم حَتَّى لاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإنِ انْتَهَوا فَلَا عُدْوَانَ إلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)[٦٢] وقال : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أخْبَارَكُمْ)[٦٣] وقال : (وَأعِدُّوا لَهُم مَااسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم)[٦٤] وقال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[٦٥] وقال : (إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّاً كَأنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)[٦٦] وقال : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٦٧] وقال : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[٦٨] وقال : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإنَّ اللهَ على نصرهم لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ، إلَّا أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)[٦٩] وقال : (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأمْوَالِكُمْ وَأنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُم إن كُنتُمْ تَعْلَمُون)[٧٠] وقال : (ولاتَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتٌ بَلْ أحْيَاءٌ ولكِن لاتَشْعُرُونَ)[٧١] وقال : (وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أمْوَاتاً بل أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[٧٢] .

وانطلاقاً من هذه الايات البينات شرع رسولنا الكريم (ﷺ) يحرض المؤمنين على الجهاد في جُلِّ خطبه واحاديثه النبوية . فمن ابي سعيد الخدري ، قال : قال رجلٌ : أيُّ الناسِ أفضلُ يارسول اللهِ ؟ قال : « مؤمنٌ يُجاهِدُ بنفسِهِ ومالِهِ في سبيل اللهِ ، قال : ثمّ من ؟ قال : رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ في شعبٍ من الشّعاب يَعْبُدُ ربَّهُ ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شرّهِ »[٧٣] عن ابي هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) : «والذي نفس محمد بيده لوَدِدْتُ أنْ أغزوا في سبيل اللهِ فأُقتل ، ثُمَّ أغزوا فأُقتَل ، ثم أغزوا فأُقْتَلُ »[٧٤] وعن عبدالله بن عمر ان رسول الله (ﷺ) قال : « رباطُ يوم خيرٌ من صيام شَهْرٍ وقيامه »[٧٥] .

وحين تدعو الايات القرآنية ، والسُنَّةُ النبوية ، الى حقيقة الجهاد وضرورته ، فهي إنما تدعوا الى الخير كله ، سواء الجهاد في سبيل الله تعالى أو الجهاد في سبيل الحق والواجب والوطن او الجهاد في سبيل اصلاح ذات انفسنا . ويجب ألا يفهم من فرض الجهاد في سبيل الله ، أنه من أجل قتل المشركين والكافرين ظلماً وعدواناً ، او اكراههم على أن يكونوا مسلمين ، أو من أجل مطمح في غزو ، يراد به التوسع الاقليمي ، أو من أجل الحصول على الغنائم ، فذلك أبعد مايكون عن رسالة الاسلام التي ماجاءت الا لخير الانسانية ، ونشر الاخوة والسلام بين الناس جميعاً[٧٦] . ويؤكد ذلك قول الله تبارك وتعالى : (لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)[٧٧] .

ومن أجل تسليط الاضواء على الدور الذي لعبته خطب الجهاد في معارك الاسلام الاولى ، نبدأ أولاً بغزوات الرسول (ﷺ) ثم ننتقل بعد ذلك الى حروب الردّة .

١ ـ في غزوات الرسول (ﷺ)

والى جانب هذه الآيات وهذه الاحاديث التي أحالت الصحابة الى أبطال خُلقوا للجهاد في سبيل الله ، أبطال لايخشون الموت ولايرهبونه ، وقفت الخطابة في عصر صدر الاسلام تناصر المسلمين ، وتشدُّ أزرهم ، وتحثُّهم على الجهاد حيثما كانوا ، فاحتضنها الاسلام وشجعها ، واتخذها الرسول (ﷺ) أداته في نشر دعوته ، واعلان مبادئه ، وعونه في استنهاض همم المسلمين ، وإرهاب المشركين ، وهذه الحقيقة

تؤكدها خطب الرسول (ﷺ) وخطب اصحابه (رضوان الله عليهم) في ميادين الجهاد . فيوم تهيأ المسلمون لقتال المشركين ببدر الكبرى ، خطب النبيّ محمد (ﷺ) يومئذ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال وهو يامرهم ، ويُرغّبهم في الاجر :

« أمّا بعد ، فإني أحثكم على ماحثّكم الله عليه ، وأنهاكم عمّا نهاكم الله عنه ، فإنّ الله عظيمٌ شانه ، يامر بالحق ، ويُحبُّ الصّدق ، ويُعطي علي الخير أهله ، على منازلهم عنده ، به يُذكرون وبه يتفاضلون ، وإنّكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق ، لايقبل الله فيه من أحدٍ إلّا ما ابتغى به وجْهه . وإنّ الصبر في مواطن البأس ممّا يُفرّج الله به الهمّ ، ويُنجّي به من الغمّ ، وتُدركون به النجاة في الاخرة . فيكم نبيّ الله يُحذركم ويامركم ، فاستحيوا اليوم أن يطّلع الله عزّ وجل على شيء من أمركم يمقُتكم عليه ، فإنّ الله يقول : (لَمَقْتُ اللهِ أكبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أنْفُسكُمْ)[٧٨] أنظروا الى الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم بعد ذلّةٍ ، فاستمسكوا به يرضَ ربّكم في هذه المواطن أمراً ، تستوجبوا ـ الذي وعدكم به من رحمته ومغْفرته ، فإنّ وعده حقٌ وقولهُ صدقٌ ، وعقابهُ شديدٌ . وإنما أنا وأنتم بالله الحيّ القيّوم ، اليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لي وللمسلمين »[٧٩] .

ومضى رسول الله (ﷺ) حتى اذا كان دُوَيْن بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش لقتاله ، فجمع أصحابه واستشارهم ، هل يقدم على حرب قريش ونزالها أو يحجم ؟ فقام أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فقال وأحسن ، ثم قام عمر (رضي الله عنه فقال وأحسن ، ثم قال :

« يارسولَ اللهِ ، إنّها قريش وعزّها ، والله ماذلّت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لاتسلم عزّها ابداً ، ولتقاتلنّك فاتّهب لذلك أهبته ، واعد عدّته »[٨٠] .

ثم قام المقدادبن عمرو أحد المهاجرين ، فقال : « يارسول الله ، امْضِ لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : (اذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ، إنَّا هَهُنا قَاعِدُون)[٨١] . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحقّ ، لو سرْت بنا الى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه ، حتى تبْلُغه » فقال له رسولُ الله (ﷺ) خيراً ، ودعا له به »[٨٢] .

وتمثلت الخطب بكثير من المعاني التي كانت تدور على ألسنة المجاهدين في ذلك اليوم ، وهم يعبّرون عن التزامهم بالدفاع عن الرسالة ، وتحقيق المطامح المشروعة التي جاءت بها ، مؤكدين صلابة العقيدة التي كانت تتجسّد في القول والفعل ، وفي استجابة الانصار لدعوة الرسول (ﷺ) مايشير الى هذا التوجه الصادق حين وقف سعد بن معاذ ، يبين ايمان الانصار ، او التفافهم حول قائدهم ونبيهم ، فقال :

« والله لكأنك تريدنا يارسول الله ! قال : أجَلْ ، قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عُهُودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق ، ان استعرضت[٨٣] بنا هذا البحر فخضْتَه لخضناه معك ، ما تخلف منّا رجلٌ واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ! إنا لَصُبُر عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ! لعل الله يريك منّا ماتقرّ به عيْنك ؛ فسرْ بنا على بركة الله »[٨٤] .

وسُرّ الرسول بقوله ، وتوجه الى القوم ، فقال لهم : « سيروا على بركة اللّه وأبْشروا ، فإنّ قد وَعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم »[٨٥] .

وسار رسول الله (ﷺ) مع جنده من المهاجرين والانصار حتى نزل بماء بدر ، وأقبلت قريش بصناديدها ورجالها في جيش كثيف يبلغ أضعاف جيش المسلمين ، والتقى الجمعان ، ونهض النبي (ﷺ) الى اصحابه يحرضهم ويحثهم ويستنهضهم قائلًا : « والّذي نَفْسُ مُحمدٍ بيده ، لايُقاتلُهم اليوم رَجُلٌ ، فيُقْتَلُ صابراً محتسباً ، مُقبلًا غير مُدْبِرٍ ، إلا أدْخَلَهُ اللّهُ الجنة »[٨٦] .

فاثارت هذه الكلمات حمية عمير بن الحمام الانصاري ، وكانت في يده تمرات ياكلهنّ ، فقال : « بَخٍ بَخٍ[٨٧] ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة ، إلا أن يقْتلني هؤلاء ! » ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتل[٨٨] وهو يقول :

رَكْضاً إلى الله بغيْرِ زادِ   إلّا التُّقى وعَمَلِ المَعادِ
وَالصَّبْرِ في اللهِ على الجهادِ   وكُلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفادِ
غَيْرُ التُّقى والبرِّ والرَّشادِ[٨٩]

وهجم أصحاب رسول الله (ﷺ) على الفئة الضخمة الباغية ، يقتلونهم ، ويحتزون رؤوسهم ، ويأسرونهم ، حتى ولّوا الادبار وهم صاغرون ، وقد قتل مَنْ قتل ببدرٍ من أشراف قريش ورؤسائهم[٩٠] ومضت فلول المشركين تئنُّ من هول المعركة ، وارتفع الصياح والعويل والنحيب في كل بيت ، وأجمعت قريش أن تعود لحرب محمد واصحابه ، ومازالت تعدّ لذلك ، حتى خرجت ونزلت بجوار أحد قرب المدينة[٩١] .

ولما علم الرسول (ﷺ) باجتماع قريش في أحد لقتاله ، جمع اصحابه واستشارهم في الخروج من المدينة لملاقات المشركين بعدما قصّ عليهم رؤيا رآها ، وفيها بقر تُذبح ، وكان

رأيه ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، فابى قوم من الصحابة الا الخروج منهم حمزة بن عبدالمطلب ، وسعد بن عُبادة ، والنُعمان بن مالك بن ثَعْلَبَة ، وغيرهم . وقد وقف بعضهم خطيباً بين يدي رسول الله (ﷺ) ، ليعلن عن رغبته الملحّة في قتال المشركين لينال احدى الحسنيين ، فقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري :

« يارسول الله ، نحن والله بين إحدى الحُسنَيين – إما يُظفّرنا الله بهم فهذا الذي نريد ، فيُذِلّهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلّا الشريد ، والاخرى يارسول الله ، يرزقنا الله الشهادة ، والله يارسول الله ، ما أبالي أيهما كان ، إنَّ كُلّاً لفيه الخير »[٩٢] .

وخطب حمزة بن عبدالمُطّلب (رضي الله عنه) فقال : « والذي أنزل عليك الكتاب ، لاأطعمُ اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة » . وكان يقال كان حمزة يوم الجمعة صائماً ، ويوم السبت صائماً ، فلاقاهم وهو صائم .[٩٣]

وخطب إياس بن أوس ابن غتيك : « يار سول الله ، نحن بنو عبد الاشهَل مِن البقر المُذبّح ؛ نرجو يا رسول الله أن نُذَبَّحَ في القوم ويُذبَّح فينا ، فنصير الى الجنّة ويصيرون إلى النار ، مع أنّي يا رسول الله لا أحبّ أن ترجع قُرَيْش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمّداً في صياصي يَثْرِب وآطامها فيكون هذا جُرأة لقريش ، وقد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن عرضنا لم نزرع ، وقد كنّا يا رسول الله في جاهليّتنا والعرب ياتوننا ، ولا يطمعون بهذا منّا حتى نخرج إليهم باسيافنا حتى نذبهم عنا ؛ فنحن اليوم أحَق إذ أيّدنا الله بك ؛ وعرفنا مصيرنا ، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا »[٩٤] .

وخطب آخرون غيرهم[٩٥] فخاف عليهم رسول الله (ﷺ) فلمّا أبَوا إلّا الخروج رسول الله (ﷺ) الجمعة بالمسلمين ، ثم وعظهم وأمرهم بالجِدّ والجهاد ، وأخبرهم أنَّ لهم النصر ما صبروا .[٩٦]

وعندما تقابل الجمعان ، قام رسول الله (ﷺ) فخطب الناس فقال : « يا أيّ الناس ، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاع التناهي عن مَحارمه ، ثم إنكم اليوم بمنزل أجْرٍ وذُخرٍ لِمَن ذكر ي عليه ثم وطّن نفسه له على الصّبر واليقين والجِدّ والنشاط ، فإنّ جهاد العدوّ شديدٌ ، شديد كرْبُه قليلٌ من يَصبِر عليه إلّا من عزم الله رُشْدَه ، فإنّ الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالهم بالصّبْر على الجهاد ، فالتمسوا بذلك ما وعدكم الله .. »[٩٧] وهيَ خطبة طويلة رائعة ، وقد اجتزنا منها هذا المقطع على سبيل الاستشهاد بها .

ونشب القتال في ذلك اليوم ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزم اعداء الله وولّوا مدبرين . ولما رأى الرماة هزيمة الكفار نزلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله بحفظه ، فجاز منه المشركون وأحاطوا بالمسلمين ، فاكرم الله من أكرم منهم بالشهادة وهم سبعون بينهم حمزة بن عبد المطلب ، وخلص المشركون الى رسول الله فجرحوه وكسروا رباعيته ، وقد صرخ الشيطان باعلى صوته بأن محمداً قد قتل . فاقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع قد سُقط في ايديهم ، فجعل يصيح :

« يا معشر الانصار ، إليّ ، إليّ ، أنا ثابت بن الدَّحْداحة . إن كان محمّدٌ قد قُتل ، فإنّ الله حيّ لا يموت فقاتِلوا عن دينكم ، فإنّ الله مُظْهِرُكم وناصركم »[٩٨]

فَثَابتٌ في خطبته الموجزة هذه عبّر عن رسوخ العقيدة الثابتة في قلبه وضميره ، واصراره على القتال دفاعاً عن دين الله حتى وإن قُتل الرسول (ﷺ) ، لانه مؤمن بان الله حي وغيره يموت ، وان الله سينصر المسلمين ويذل المشركين . فنهض اليه نفر من الانصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، فقاتلوا حتى قُتلوا ، وصبر الرسول (ﷺ) على الرغم من جراحه أصابت وجهه الكريم ، صبر مع صحابته حتى انقشعت الغمرة .[٩٩]

ولما فرغ الرسول (ﷺ) من عمرة القضاء وعاد الى المدينة ، بعث جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف لحرب الروم في الشام ، وجعل قيادته لزيد بن حارثة ، ثم قال : إن اصيب زيد فالقيادة لجعفر من ابي طالب ، فإن اصيب خلفه عبدالله بن رواحة . ومضوا حتى نزلوا معان ، فبلغهم ان هِرَقْل امبراطور بيزنطة نزل مدينة مآب من أرض البلقاء ، في مائة الف من الروم . فلما بلغ ذلك زيداً واصحابه أقاموا في معان يومين ينظرون في أمرهم . وقال نفر : نكتب الى رسول الله (ﷺ) ونخبره بعدد عدوّنا ، فإمّا أن يمدّنا برجال ، وإمّا أن يامرنا بأمرٍ نتمضي له . ووقف عبدالله بن رواحه قبل بداية المعركة يشجّع المسلمين على الصبر والثبات . لِقَلَقِهِم من عدد الروم فقال :

« والله ماكُنّا نُقاتل الناسَ بكثرة عَدَدٍ ، ولا بكثرة سلاحٍ ، ولا بكثرة خيولٍ ، إلّا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به . انطلقوا ! والله لقد رأيتُنا يومَ بَدْرٍ مامعنا إلا فَرَسان ، ويومَ أُحد فرسٌ واحدٌ ، وإنّما هي إحدى الحسنيين : إمّا ظهورٌ عليهم فذلك ماوَعَدَنا الله ووعدنا نبيُّنا ، وليس لوعده خُلْفٌ ، وإمّا الشهادة فَنلحقُ بالاخوانِ نُرافقهم في الجنان »[٩٩] .

فهزّت هذه الخطبة مشاعر المسلمين ، وزحفوا الى العدو ، وقد امتلأوا حماسة وحميّة ، وكل منهم يودّ لو لقى مصرعه حتى

تكتب له الشهادة ، وهكذا تمضي الخطابة في غزوات الرسول (ﷺ) تحث المسلمين على حمل الرسالة والدفاع عنها ، حتى غدا الجهاد من ابرز موضوعاتها .

٢ . في حروب الردّة

واشتدت الامور ، وتعاظمت الخطوب ، بعد وفاة الرسول (ﷺ) إذ ارتدت اعداد كبيرة من قبائل العرب عن الاسلام ، وتعرّضت الرسالة الى خطر كبير كاد يودي بها ، لولا عناية الله وحفظه لها ، ووقفة الصحابة الابرار الذين ثبتوا على اسلامهم ، ودافعوا عنها بأرواحهم واموالهم والسنتهم . وكان من بينهم اولئك المجاهدون الخطباء الذين واكبوا احداث الردة ، وشاركوا في معظم معاركها ، فقاتلوا المرتدين بسيوفهم ، وخطبوا المؤمنين على الصبر والثبات وجمع القلوب وتوحيد الصفوف على نصر الله . وكان على رأسهم الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الذي وقف يومذاك ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال مخاطباً المسلمين :

« الحمد لله الذي هدى فكفى ، وأعطى فاغنى ، إن الله بعث محمداً (ﷺ) والعلم شريد ، والاسلام غريب طريد ، قد رث حبله ، وخلق عهده ، وضل أهله منه ، ومقت الله اهل الكتاب فلايعطيهم خيراً لخير عندهم ، ولايصرف عنهم شراً لشر عندهم ، قد غيروا كتابهم ، وألحقوا فيه ماليس منه ، والعرب الامنون يحسبون أنهم في منعة من الله لايعبدونه ولايدعونه ، فاجهدهم عيشاً ، وأضلهم دينا ، في ظلف من الارض مع مافيه من السحاب ، فختمهم الله بمحمد ، وجعلهم الامة الوسطى ، نصرهم بمن اتبعهم ، ونصرهم على غيرهم ، حتى قبض الله نبيه (ﷺ) فركب الشيطان مركبه الذي أنزله عليه ، وأخذ بأيديهم ، ويغى هلكتهم (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُم عَلَى أَعْقَابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِين)[١٠٠] إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم ، ولم يكونوا في دينهم ـ وإن رجعوا إليه ـ أزهد منهم يومهم هذا ، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا ، على ماقد تقدم من بركة نبيكم (ﷺ) وقد وكلكم الى المولى الكافي ، الذي وجده ضالّاً فهداه ، وعائلاً فاغناه (وَكُنْتُم عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم منها)[١٠١] والله لاأدع ان أقاتِل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ، ويوفي لنا عهده ، ويقتل من قتل منا شهيدا من اهل الجنة ، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه ، قضاء الله الحق ، وقوله الذي لاخلف له (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ)[١٠٢] ثم نزل » [١٠٣].

فابو بكر (رضي الله عنه) في خطبته المذكورة آنفاً ذكر المسلمين بسالف عهدهم ، وفضل الله والاسلام والرسول عليهم ، ثم وضعهم امام واقع من الامر ، وهو أمر الله ، فاقسم أن يقاتل في هذا الامر الى أن ينجز الله وعده ، ويوفي عهده ، ومادام القتال في أمر الله ، وقد وعد ، فلاشك في الانجاز ، فالنصر واقع ، ومن يُقتل أو قُتل من المسلمين فهو شهيد من أهل الجنّة ، ومن بقي منهم وعمل صالحاً ، فهو خليفة الله في أرضه . هذا وعده الحقُّ ، وقضاؤه المبرم ، وحُكْمُهُ الذي لايتخلّف . وهكذا يكون الترغيب في الجهاد الذي دعا اليه الاسلام وحثّ عليه [١٠٤].

وعندما أرتدت معظم القبائل العربية عن الاسلام ، حاول نفر منها أن يدعي النبوة ، فتبعه خلق كثير من مختلف القبائل ، من امثال مسيلمة الكذاب في بني حنيفة ، وطليحة الاسدي في بني أسد ، وسجاح التميمية في بني تميم . وقد امتنع هؤلاء المرتدون عن دفع الزكاة ، واجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الاسدي ، وبعثوا وفوداً الى أبي بكر (رضي الله عنه) فقال : « لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه » فردّهم ، فرجعوا الى أقوامهم واخبروهم بصنيع الصدّيق (رضي الله عنه) وحدّثوهم عن قِلّةِ المسلمين بالمدينة ، واطمعوهم فيهم . وعلم ابو بكر (رضي الله عنه) بذلك فخطب المسلمين بمسجد المدينة يحثهم على قتالهم :

« إنَّ الارْضَ كَافِرَةٌ [١٠٥] وقد رأى وَفْدُهم منكم قِلَّةً ، وإنّكم لاتَدْرُونَ أليلًا تُؤْتَوْن أم نهاراً ، وأدْناهم مِنْكم على مايريد ، وقد كان القوم يأمُلون أنْ نُقْبِلَ منهم ونُوادِعَهم ، وقد أبينا عليهم ، فاعِدّوا واستَعِدّوا »[١٠٦] .

وكانت هذه الخطبة إيذاناً بنشوب القتال مرة اخرى بين المسلمين والمشركين وهم سائر القبائل التي اعلنت بتمنّت وجبروت ردّتها عن الاسلام ، فدارت معارك كثيرة شملت انحاء عديدة من الجزيرة العربية ، منها يوم ذي القصّة ، والبُطاح ، وجُؤاثا ، واليمامة ، وصنعاء ، وقد انتصر المسلمون في جميع هذه المعارك ، وتمكنوا من اخضاع المرتدين فيها الى كلمة الاسلام وسلطانه [١٠٧].

على ان هذه الردّة وماصاحبها من حروب كان لها أثر واضح في الخطابة يومذاك . فقد هبّ الخطباء من كل حَدَبٍ وصوب يبينون خطل الردّة ، ويهاجمون المتنبئين ، ويحثّون المسلمين على الثبات وعدم الارتداد . ففي اليمامة دعا أثمامة بن أثال) قومه الى عدم اتباع مسيلمة وتصديقه ، فقال :

« إيّاكم وأمراً مُظْلِماً لانور فيهِ ، وإنّهُ لَشَقاءٌ كتبه الله ـ عزّ وجل ـ على مَنْ أخذ بهِ مِنْكم ، وبَلاءٌ على مَنْ لم يأخُذْ بهِ منكم

يابني حنيفة »[108] .

ولما لم يستجب بنو حنيفة الى دعوة ثُمامة هذه ، واصرّوا على ارتدادهم توجّه اليهم خالد بن الوليد ، فنزل على كثيب يشرف على اليمامة ، فضرب به عسكره ، فاصطدم المسلمون والكفار ، فكانت جولة ، وانهزمت الاعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد ، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله ، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ، ويقولون : ياأصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم ، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الارض الى أنصاف ساقيه ، وهو حامل لواء الانصار بعدما تحنّط وتكفن[109] وخطب المسلمين فقال :

« يامعشر المسلمين ، أنتم حزْبُ الله وهم أحزاب الشيطان ، والعزّة لله ولرسوله ولاحزابه ، أروني كما أريكم »[110].

وخطب زيد بن الخطاب في ذلك اليوم فقال محرّضاً المسلمين على القتال : « لاوالله لاأتكلّم اليومَ حتّى نهزمَهم أو ألقى الله فاكلّمه بُحجتي ! عضّوا على أضراسكم أيُّها الناس ، واضربوا في عدوّكم ، وامضوا قدُماً »[111] .

وهذه الخطب على رغم قصرها ، وانها شبيهة بالارجاز التي يرتجزها المقاتلون في سوح الوغى ، استطاعت ان تلهب حماس المسلمين يومذاك ، فاصروا على جهاد المرتدين « فرتوهم الى مصافّهم حتى أعادوهم الى أبعد من الغاية التي حيزوا اليها من عسكرهم »[112].

وفي البحرين وقف العلاء بن الحضرمي خطيباً يحثُّ المسلمين على مطاردة المرتدين الفازين الى دارين ، فجمعهم وقال :

«إنّ الله قد جمع لكم أحزابَ الشياطين وشُرّدَ الحرب في هذا البحر ، قد أراكم من آياته في البّر لتعتبروا بها في البحر ، فانهضوا الى عدوّكم ، ثم استعرضوا البحر إليهم ، فإن الله قد جمعهم »[113] .

فاثارتَ هذه الخطبة حميّة المسلمين ، فتناخوا فيما بينهم حتى اقتحموا البحر ، فاجازوا الخليج العربي بإذن الله يمشون على مثل رَمْلة مَيْثاء ، فوقها ماء يغمرُ أخفاف الإبل ، وإنّ مابين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفُن البحر في بعض الحالات ، فالتقوْا بها ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وقهروا المرتدين واحتازوا غنائمهم ، ثم رجعوا ، فعبروا الى موضعهم الاول[114].

وهكذا كانت الخطابة تؤدي دورها الجهادي في معارك الاسلام الاولى ضد المشركين والمرتدين ، وتعبّر بصدق عن عظمة أولئك الرجال الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وجاهدوا في سبيله بالسنتهم ، فكانت خطبهم في ميادين الجهاد واناشيد نصر ، واهازيج فرح خالدة ، تغنى بها المجاهدون الخطباء ، وخلدها التاريخ بالرغم من ضياع الكثير منها ، وخلّد ابطالها وفرسانها ، فكانت بحق ملاحم بطولية خالدة .

المبحث الثاني

الجهاد في خطب الفتوحات الاسلامية

وبعد أن قضى الاسلام على حركة المرتدين ، واصبحت القبائل العربية كلها تدين بدين الاسلام ، انطلقت جحافل الفتح الاسلامية لتلبي نداء الواجب المقدس الذي كتبه الله لها خارج الجزيرة العربية ، قال تعالى : « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم فِي سَبِيلِ الله »[115] فاخذ سيول الجيوش الفاتحة تتدفق على العراق والشام ، وأخذ الجهاد يتجلى في أعظم معارضه وصوره ، في الرجال والنساء اللائي كن يشهدن المعارك محرّضات محمسات ، بينما كان الشعراء والخطباء الفرسان يدوّون كالنحل باشعارهم وخطبهم الحماسية[116] وبغية تلمس دور الخطابة في الفتوحات الاسلامية ، يحسن بنا أن نعرض لهذا الدور في كل جبهة على حدة .

١ . في فتوحات الجبهة الشرقية

لقد دارت معارك ضارية على امتداد هذه الجبهة الطويلة ، شنها المسلمون على الاكاسرة ، فاستمد امراء الجيوش والقواد ورجال الحرب الخطابة ، يلهبون مشاعر الجند ويشعلون حماسهم ، ويمنونهم النصر العاجل ، والفوز الآجل[117] فخالدين الوليد بعد أن أمره الخليفة ابو بكر (رضي الله عنه) بالتوجه نحو العراق لقتال الفرس ، ارتفع صوته في ذلك اليوم ، فخطب في الناس يحضضهم على الجهاد في سبيل الله ، فقال :

« الحمدُ للّهِ ، واللّهُ أهلُهُ ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُهُ وَرَسُولُهُ ، أما بَعْدُ : فإنّ خليفةَ رسُولِ الله ـ ﷺ ـ كتبَ إلينا يَحضُّنا على طاعةِ ربِّنا ، وجهادِ عدوِّنا وعدوّ الله ، وبالجهادِ في سبيلِ الله أنجزَ الله دَعْوَتَنا ، وجمع كلمتنا وامنيتنا ، والحمدُ لله ربّ العالمين ، ألا واني خارج ومعسكر وسائر ـ إنْ شاء الله ـ ومُعَجِّلٌ ، فمن أراد ثوابَ العاجِل والآجلِ فَلْيَنْكَمِش »[118]

وتوجه خالد بن الوليد نحو العراق ، وخاض المسلمون بقيادته سلسلة من المعارك ، انتهت جميعها بانتصار المسلمين وهزيمة الفرس ، وعقب انتصارهم في وقعة الولجة وقف خالد بن الوليد في الناس خطيباً يحثهم على الجهاد ، وقد أثار في خطبته الى ثراء الارض التي يقاتلون فيها ، فقال :

« الا تَرَوْن الى الطّعام كرفغ[١٢٩] التراب ، وبالله لو لم يلزمنا الجهادُ في الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش ، لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكونَ أولى به ، ونوليّ الجوعَ والإقلال مَن تولاّه ممن اثّاقل عمّا أنتم عليه »[١٢٠]

وتتوقف عمليات خالد بن الوليد بعد وقعة الفراض ، إذ أمره الخليفة ابو بكر (رضي الله عنه) بالسير نحو بلاد الشام ليكون عوناً للمسلمين هناك[١٢١] ، فتولى المثنى بن حارثة الشيباني قيادة جيش المسلمين ، وخاض معركة ضارية ضد الفرس في تلال بلابل ، وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون الى المدائن يقتلونهم ، وأقام المثنى بعد هذه المعركة ينتظر أن تاتيه الامدادات من ابي بكر (رضي الله عنه) لكن انتظاره طال ، وابطأ عليه رد الخليفة ، فخلّف على المسلمين (بشير بن الخصاصية) وخرج متوجهاً الى ابي بكر (رض) فقدم المدينة وقابل الخليفة الراشد وهو على فراش الموت ، واخبره بان الفرصة مواتية لارسال جيش[١٢٢] كبير الى العراق ، فاهتم الخليفة برأي المثنى واقتنع به ، وقال : « عليّ بعُمر » فجاءه فأوصاه أن يندب الناس مع المثنى ، فندب عمر (رضي الله عنه) الناس لحرب الفرس ، فتتابعوا فخطبهم ، فقال :

« إنّ الحجاز ليس لكم إلّا على النُّجعة ، ولايقوى عليه أهلهِ إلّا بذلك ، أين الطُّرّاء المهاجرون عن موعود الله ! سيرُوا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ؛ فإنه قال : (ليُظْهِرَهُ عَلىَ الدِّين كُلِّه)[١٢٣] والله مظهر دينه ، ومعزّ ناصره ، ومولي أهله مواريث الامم . أين عباد الله الصالحون ! »[١٢٤] .

ثم خطب المثنى فقال : « ياأيها الناس ، لايَعظُمنَّ عليكم هذا الوجه ، فإنّا قد تبحبحنا ريف فارس ، وغلبناهم علي خير شقيّ السواد ، وشاطرناهم ، ونلنا منهم ، واجترأ مَنْ قبِلنا عليهم ، ولها ان شاء الله مابعدها »[١٢٥] .

وقد تركت هاتان الخطبتان تاثيراً كبيراً في نفوس المجاهدين يومذاك ، فتطوع منهم عدد كبير ، كان في مقدمتهم ابو عبيد بن مسعود الثقفي[١٢٦] .

وفي البويب تقابل المسلمون والفرس ، فوقف المثنى على الرايات راية راية ، يحضض المسلمين ، ويامرهم بامره ، ويهزّهم باحسن مافيهم تحضيضاً لهم ، ولكلهم قال :

« إني لأرجو الا تؤتي العربُ اليومَ من قِبَلكم ، والله مايَسرُّني اليوم لنفسي شيء وهو يسرُّني لعامتكم »[١٢٧]

وقُتِل الفرس المشركون في تلك الوقعة شر قتله ، وتبعهم المسلمون الى الليل ، ومن الغد الى الليل ، ومال المثنى على الذين ارادوا ان يستقتلوا من منهزمة يوم الجسر ، فخاطبهم بقوله :

« اين المستبسل[١٢٨] واصحابه ، انتدبوا في آثار هؤلاء القوم الى المشيب ، وابلغوا من عدوّكم ماتغيظونهم به ، فهو خيرٌ لكم واعظمُ أجـراً (واسْتَغْفِروا الله إنّ الله غَفُورٌ رَحيم)[١٢٩] »[١٣٠] .

وانتدب المثنى الناس لملاحقة فلوس الفرس المذعورة في تلك الوقعة الى المسيّب ، فخطب جرير بن عبدالله في قومه بجيله يحثهم على ذلك فقال :

« يامعشر بَجيلة ، إنّكم وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء ، وليس لاحدٍ منهم في هذا الخُمسِ غداً من النَّفَل مثل الذي لكم منه ، ولكم ربُع خمسه نفلا من أمير المؤمنين ، فلا يكونن أحدٌ أسرعَ إلى هذا العدوّ ولا أشدّ عليه منكم للذي لكم منه ، ونيّة الى ماترجون ، فإنما تنتظرون إحدى الحُسْنَيَيْنِ : الشهادة والجنّة أو الغنيمة والجنّة »[١٣١] .

وبعد البويب قلق أهل فارس كثيراً ، وتذمّروا ، فما بعد بغداد وساباط وتكريت إلّا المدائن ، فشرع يزد جرد ملك الفرس يومذاك بتنظيم الجيش من جديد ، وتعيين قاده له ، وأمر باعلان النفير العام ، وارسال الجيوش الى العراق لمهاجمة المسلمين ، ولما علم الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بامر الفرس واجتماعهم أخيراً على يزدجرد أعلن النفير العام في الجزيرة العربية استعداداً لليوم الفاصل (القادسية) وقال : « والله لاضربَنَّ ملوك العجم بملوك العرب » ثم دعا المسلمين الى اختيار من يقودهم الى الجهاد والقتال لفتح العراق ، فاختاروا سعد بن ابي وقاص ، فاحضره عمر (رضي الله عنه) وعيّنه قائداً عاماً للعمليات الحربية بالعراق ، ووضع أمامه جملة من الوصايا ليفيد منها في مهمته الجديدة[١٣٢] .

وسار سعد بن ابي وقاص بالمسلمين الذين تطوعوا لقتال الفرس ، حتى نزل القادسية من أرض العراق . وعندما تقابل الجيشان . المشركون الفرس على شفر العتيق ، والمسلمون أمام قديس ، والخندق من ورائهم ، وقف سعد أمام جنده ليعظهم ، ويحثهم على الجهاد ، وقد أثار عزائمهم ، وألهب حماسهم بخطبة حماسية مؤثرة ، كان لها وقع كبير على المسلمين ، فارتفعت لذلك معنوياتهم ، وتشجعوا اكثر على القتال ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« إنّ الله هو الحقّ لاشريك له في المُلكِ ، وليس لقوله خلْف ، قال الله جلّ ثناؤه : (وَلَقد كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكرِ أنّ الارْضَ يَرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)[٢٢م١] إن هذا ميراثكم وموعود ربّكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حِجَج ، فانتم تطعمون منها ، وتاكلون منها ، وتقتلون أهلها ، وتجْبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الايّام منكم ، وقد جاءكم منهم

هذا الجمع ، وأنتم وجوهُ العرب وأعيانُهم ، وخيار كلّ قبيلة ، وعزُّ من وراءكم ، فإن تزْهدوا في الدّنيا وترغبوا في الاخرة جَمَعَ الله لكن الدُّنيا والاخرة ، ولايقرب ذلك أحداً إلى أجله ، وإنْ تفشلوا وتَهِنوا وتضعفوا تذهب ريحُكم ، وتُوبِقوا آخرتكم » .[١٣٤]

والتقى الجيشان في حرب ضروس استمرت أربعة أيام وثلاث ليالي ، متصلة الحرب حامية الوطيس ، وقد أدّت الخطابة دورها في هذه المعركة ، فلم يكن القتال يبدأ قبل أن يمر الخطباء والشعراء بين الصفوف يُرغِّبون الناس ، ويقدحون عزمهم ، فينشب أهل الرأي والنجدة القتال ، بينما يشعل الخطباء والشعراء أوار الحماس[١٣٥] .

ففي يوم أرمات ــ وهو اليوم الاول من معركة القادسية ــ أقبل سعد يتخلل الصفوف ويقول :

« أيُّها الناس هذا يوم تجلّى فيه الحليل ، ونزّل فيه النصر جبريل ، اذكروا قصُورَ الجنّةِ وما أعدّ اللّهُ فيها من المنّة ، واعلموا أن يومكم هذا يوم عظيم ، لايقتل فيه الا كُلّ كريم يتكرم بنفسه في مرضاة ربه ، أما والله أنّ أبواب السموات فتحت ، والجنّة لكم أزلفت ، والنارَ أحميت ، وأعمالكم الصالحة إليه رُفعت ، ثم تلا (إليْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطّيبُ ، والعمل الصالح يرفَعُه)[١٣٦] وان الله قد جعل الصبر بمنزلةِ الرأس من الجسد ، وماتنتظرون من الصبر إلّا أحدَ الحسنيين ، إما فرجاً عاجلًا او خيراً آجلًا ، والصّبرُ يدعو الى الطّاعةِ ، والجزعُ يدعو الى المَعْصِيَةِ » .[١٣٧]

فحرّكت هذه الخطبة شعور المسلمين ، وحفزتهم على الجهاد ، فبرز أهل النجدات فانشبوا القتال ، وأندفع الأمراء في خُطبهم ، يحضّون المسلمين على الصبر في الجهاد ، وأن يكونوا كاسُودِ الغاب ، وأن يُسارعُوا الى مَغْفِرةٍ من ربِّهم ، وجنّةٍ عَرْضُها السّمواتُ والارضُ ، أعِدّت لِلْمُتّقِين ، فخطب في ذلك اليوم كل من : عاصم بن عمرو التميمي ، وقيس بن هُبَيْرة الاسَديّ ، وبُشر بن أبي رُهْم الجُهَنيّ ، وربيع بن البلاد السعديّ ، ورِبْعيّ بن عامر ، وطُليحة بن خُوَيْلد الاسدي ، والاشْعثُ بن قيس .[١٣٨]

واستمر القتال في يو أرمات حتى غروب الشمس ، وتمضي الخطابة في اذكاء جذوة الحماس ، وتحرّض المسلمين على القتال طيلة أيام القادسية . ففي يوم عماس ــ اليوم الثالث من المعركة ــ شرع قادة الجيش الاسلامي كعادتهم يشجعون جندهم على الجهاد بأروع الخطب ، فقام قيس بن المكشوح المرادي في المجردة ، فخطب فيمن يليه ، فقال :

« يامعشر العرب ، إنّ الله قد منّ عليكم بالإسلام ، وأكرمكم بمحمدٍ ﷺ ، فاصبحتم بنعمة الله إخواناً . دَعْوَتُكم واحدة ، وأمركم واحد ، بعد إذ أنتم يعدوُ بعضكم على بعض عَدْ الأسد ، ويختطفُ بعضكم بعضاً اختطاف الذئاب ، فانصروا الله ينصركم ، وتنجّزوا من الله فتح فارس ، فإنّ إخوانكم من أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام ، وانتشال القصور الحُمر ، والحصون الحُمر »[١٣٩] .

وتمالت اصوات القادة في ليلة الهرير من يوم عماس ، وكانت خطبهم في تلك الليلة قد فعلت فعلها في إثارة حماس المقاتلين ، وأشْرت بوضوح السُبلَ الكفيلة لتحقيق النصر ، فخطب بُريد بن كعب النّخْميّ ، وكان معه لواء النّخع ، فقال :

« إنّ المسلمين تهيّئوا للمزاحقة ، فاسبقوا المسلمين الليلة الى الله والجهاد ، فإنه لايَسبق الليلةَ أحدُ إلّا كان ثوابه على قدر سَبْقِه ، نافسوهم في الشهادة ، وطيبوا بالموت نفساً ، فإنه أنجى من الموت ، إن كنتم تريدون الحياة ، وإلّا فالاخرة ماأردتم »[١٤٠]

وفَعَلَ الاشعث بن قيس ، وطُليحة الأسدي ، وغالب بن عبدالله اللّيثيّ ، وأهل النّجدات من جميع القبائل مثل ذلك[١٤١] ، فتصاعد حماس المسلمين ، وارتفعت معنوياتهم ، وقاتلوا الفرس بكل قوة ، وبقي القتال مستمراً حتى صباح اليوم الرابع ، وهو يوم القادسية ، الذي قتل فيه رستم ، وهُزم جيشه شرَّ هزيمة .[١٤٢]

واستمرت الخطابة تجوب ميادين الجهاد في جبهة العراق ، فارتفع صوتها على لسان سعد بن ابي وقاص في بهرسير ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وجرير بن عبدالله البجلي ، وهاشم بن عتبة ، والقعقاع بن عمرو التميمي في وقعة جلولاء .[١٤٣]

وتواصل جحافل العقيدة الاسلامية انطلاقتها في جبهة العراق من أجل نشر رسالة العدل والحق حتى تدخل بلاد فارس ، فتخوض معارك ضارية مع الفرس المشركين في عُقْر دارهم ، وكانت الخطابة تنتقل مع السيف من خندق الى خندق ، تحث المؤمنين وترهب المشركين أعداء الله ، فيروى ان النعمان بن مُقرّن وقف على الرايات في يوم نهاوند وخطب المسلمين ، فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه :

« قد علمتم ماأعزّكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هَوادِيَ ماوعدكم وصدوزه ، وإنما بقيت أعجازُه وأكارعه ، والله منجزٌ وعده ، ومتبعٌ آخر ذلك أوّله ، واذكروا مامضى إذ كنتم أذلّة ، وما استقبلتم من هذا الامر وانتم اعزّة ، فانتم اليوم عبادُ الله حقّاً واولياؤه ، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظَفَركم وعزّكم ، والذي عليهم في[١٤٤] هزيمتكم وذلّكم ، وقد ترون مَنْ أنتم بإزائه من عدوّكم ، وما أخطرتم وما أخطروا لكم ، فاما ماأخطروا لكم

فهذه الرثة[145] وماترون من هذا السواد ، وأما ماأخطرتم لهم فدينكم وبَيْضتكم ، ولاسواء ماأخطرتم وماأخطروا ، فلايكوننّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم ، واتقى الله عبدٌ صدق الله ، وأبلى نفسه فاحسن البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظرين ، إحدى الحسنيين ، من بين شهيد حيّ مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسير ، فكفى كلُّ رجل مايليه ، ولم يكِلْ قِرْنَه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قِرْنه وقِرْن نفسه ، ذلك من الملازمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكلُّ رجل منكم مسلّط على مايليه ، فإذا قضيت أمري فاستعِدوا فإنيّ مكبّرٌ ثلاثاً ، فإذا كبّرت التكبيرة الاولى فليتهيّأ مَنْ لم يكن تهيّأ ، فإذا كبّرت الثانية فليشدّ عليه سلاحه ، وليتاهب للنهوض ، فإذا كبّرت الثالثة ، فإني حامل إن شاء الله فاحمِلوا معاً ، اللهم اعزّ دينَك ، وانصر عبادَك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك »[146] .

وكان النعمان اول شهيد في نهاوند . ويمضي الجيش العربي الاسلامي بعد هذه الوقعة مُيمِّماً بلاد فارس ، ويحطم كل مقاومة تلقاه في خراسان واذربيجان وارمينية . وفي كل المدن الفارسية الاخرى ، حتى يصل الى حدود الصين ، وكانت الخطابة مرافقةً لجميع الاحداث ، ومناصرةً للسيف العربي الاسلامي في كل الوقائع .

٢ - في فتوحات الجبهة الغربية

وفي الجبهة الغربية - جبهة الشام وشمال افريقية - سحق العرب في عهد أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) الروم سحقاً ذريعاً اضطرهم الى ان يرفعوا ايديهم عن الشام ومصر ، وأخذوا يرفعونها عن افريقية مكرهين مهزومين مقهورين ، حتى إذا ولي الأمويون تقدموا إلى المحيط الاطلسي وعبروا المضيق الى إسبانيا حيث صهلت خيولهم فرسانهم على مشارفها الشمالية . وكان طبيعياً أن يرتفع صوت الخطابة في هذه الفتوحات التي كلفت الجيوش العربية خطوباً شداداً وأهوالاً من المعارك والقتال والصراع والنزال ، وفي كل معركة وكل فتح تتجلى بطولتهم ، وتتجلى امجادهم الحربية ، ويتجلى معها ما نظموه من أناشيد حماسية شعراً كان ام خطابة[147] .

فمنذ اللحظة الاولى التي عزم فيها ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) على توجيه الجيوش لفتح الشام ، جمع ابو بكر (رضي الله عنه) اصحاب رسول الله (ﷺ) في المسجد ، وقام فيهم خطيباً يستشيرهم في ذلك ، ويحثّم على تنفيذ وصية الرسول (ﷺ) له قبل وفاته ، فحمد الله واثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال :

« يا أيها الناس رحمكم الله تعالى ، اعْلَموا أنّ الله فضّلكم بالإسلام ، وجَعَلكم من أمّةِ مُحمّدٍ عليه السلام ، وزادَكم إيماناً ويقينا ، ونَصَركم نَصْراً مُبينا ، وقال فيكم : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً)[148] واعلموا أن رسول الله (ﷺ) كان عول أن يصرف همته الى الشام ، فقبضه الله واختار له ما لديه إلا وإني عازم أن أوجه ابطال المسلمين الى الشام باهليهم ومالهم ، فإن رسول الله (ﷺ) نبانى بذلك قبل موته ، وقال رويت لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك امتي ما رؤي لي منها ، فما قولكم في ذلك ؟ فقالوا : يا خليفة رسول الله مرنا بامرك ، ووجهنا حيث شئت فان الله تعالى فرض علينا طاعتك ، فقال تعالى : (يا ايها الذينَ آمَنوا أطِيعوا الرّسولَ وأولي ٱلأمرِ مِنكم)[149] .

ومن هنا تشكلت ملامح فكرة فتح بلاد الشام وفتح ديارها للاسلام والمسلمين ، وكانت امتداداً لاول صدام جرى بين العرب والروم في عهد النبي (ﷺ) . وقد استجاب الصحابة الكرام لما دعا إليه ولي أمرهم طاعة لله في خليفة رسوله ، ففرح ابو بكر وشرع في كتابة الكتب الى ملوك اليمن وأهل مكة يدعوهم فيها الى الجهاد لفتح بلاد الشام وانتزاعها من أيدي الكفار والطغاة[150] .

ولما تكاملت الجيوش واقامت مجتمعة في المدينة عقد ابو بكر الرايات وأمر القادة ، ثم ذكرهم ، وأوصاهم وودعهم . فانطلق يزيد بن ابي سفيان في ألف فارس حتى نزل الجابية ، ولما تسربت اخبار المسلمين الى هرقل ، جهز جيشاً من ثمانية آلاف فارس ليردّ جيش يزيد عن سبيله . وقبل ان يقع الاشتباك بين الجيشين ، خطب يزيد أصحابه الالف يحرضهم على الجهاد ويتلو عليهم آيات النصر ، فقال :

« إنّ الله وعدكم بالنصر وأيّدكم بالملائكة ، وقالَ الله تعالى في كتابه العزيز الحكيم : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)[151] وقد قال (ﷺ) : (الجَنّةُ تَحت ظلالِ السُّيُوفِ)[152] وانتم اول جند دخل الشام وتوجه لقتال بني الاصفر ، كانكم بجنود الشام ، وإياكم ان تطمعوا العدو فيكم ، وانصروا الله ينصركم »[153] .

فاهاجت هذه الخطبة مشاعر المسلمين المجاهدين ، ودفعتهم الى اخلاص النية في جهاد العدو ، واسترخاص الارواح في سبيل الله . فوقع بين الطرفين قتال عنيف ، خرج منه المسلمون ظاهرين منتصرين ، وولى الروم الادبار ، وركنوا الى الفرار[154] .

وفي بصري رجعت الروم الى عددها وعديدها ، وتظاهروا بالدروع ، وقادوا الجنائب ، وتهيئوا للحملة ، فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك خطب اصحابه يعظهم ، ويحثهم على الجهاد فقال :

« اعلموا رحمكم الله ان رسول الله ﷺ قال : (الجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)[156] وأحب ماقرب الى الله قطرة دم في سبيل الله ، ودمعةٌ جرت في جوف الليل من خشية الله تعالى : (... يُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، ولاتَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُم مُسْلِمُونَ)[157] »[158] .

وحمل شرحبيل وحمل معه المسلمون على جيش الروم ، واقبل خالد بن الوليد بجماعة من أهل العراق مدداً لشرحبيل ، فاعادا ترتيب الصفوف ، ثم كبّر المسلمون وهللّوا للنصر باهازيجهم وخطبهم المدوّية ، حتى كتب الله لهم النصر ، وهزمت الروم شرّ هزيمة ، ودخل المسلمون مدينة بصرى ، فكانت أول مدينة فتحت بالشام[159] .

ومن بصرى واصلت طلائع الفتح الاسلامي زحفها المقدس نحو دمشق ، وخلال هذا الزحف ، خاضت سلسلة من المعارك الضارية ضد الروم[160] ، كان من ابرزها معركة اليرموك الكبرى التي انكسرت الروم فيها انكساراً عظيماً .[161]

وفي هذه المعركة الخالدة كانت الخطابة الجهادية تآزر السيف الاسلامي من موضع الى موضع ، لتثبت أقدام المجاهدين ، وتصبّرهم على القتال على نحو مافعله ابو عبيدة عامر بن الجراح عندما وقف خطيباً امام الصفوف محرّضاً المقاتلين على اخلاص النيّةِ في الجهاد ، فقال :

« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامك ، والزموا الصبر ، فإنّ الصبْر منجاةٌ من الكرب ، ومرضاةٌ للربّ ، ومعمعةٌ للعدو ، فلاتزايلوا صفوفكم ، ولاتنفضوا نسبتكم ، ولاتخطوا خطوة إلّا وأنتم تذكرون الله . ولاتبدأ وهم بالقتال حتى يبدأوكم ، واشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت إلّا من ذكر الله ، ولاتحدثوا أحداً حتى آمركم »[162] .

وخطب بالناس عمرو بن العاص وطمانهم بقوله : « ايها المسلمون غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم ، فامهلوهم حتى اذا ركبوا أطراف الاسنة ، فثبوا إليهم وثبة الاسد ، فو الذي يرضى الصدق ، ويُثيب عليه ، ويمقت الكذب ، ويجزي بالاحسان احسانا ، لقد سمعت ان المسلمين سيفتحونها كِفْراً كِفْرا ، وقصْراً قصْراً ، فلايهولنّكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدُّ تطايروا تطاير أولاد الحَجَل[163] »[164] وعظهم أبو سفيان فقال : « يامعشر المسلمين ، انتم العرب وقد اصبحتم في دار العجم ، منقطعين على الاهل نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله اصبحتم بإزاء عدد كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لاينجيكم من هؤلاء القوم ، ولايبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة ، ألا وإنها سنّة لازمة ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتعاونوا ولتكن هي الحصون »[165] .

وحملت الروم في ذلك اليوم حملةً منكرة ، فصبر لها المسلمون صبر الكرام ، وقاتلوا قتالًا شديداً ، وثبتوا ثباتاً حسناً ، وابتدر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وهو المقدم على زبيد والامير عليهم ، وهم يعظمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية ، وكان يوم اليرموك قد مرّ له من العمر مائة وعشرون سنة الى أن همته الشجاعة ، فلما نظر الى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه :

« ياآل زبيد ، تفرون من اعداء وتفزعون من شرب كاس الردى ، أترضون لانفسكم بالعار والمذلة ، فما هذا الانزعاج من كلاب الاعلاج ، أما علمتم أن الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين ، فإذا نظر اليهم وقد لزم الصبر ثبتوا لقضائه أمدهم بصبره ، فاين تهربون من الجنة ، أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار »[166]

فلما سمعت زبيد كلام سيدهم عمرو بن معد يكرب رجعوا اليه وعطفوا عليه عطفة الابل على اولادها ، فاجتمعوا حوله وهم زهاء من خمسمائة فارس وراجل ، وشدوا على القوم شدة واحدة ، وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة ، فازالوا الروم عن اماكنهم .[167]

ولما رأى خالد بن الوليد أن جموع الروم بدات تتقهقر أمام ضربات المسلمين الموجعة ، شرع يحث المجاهدين للانقضاض على الاعداء ، والرّد على كسرتهم ، فقال :

« ياأهل الاسلام والايمان ، وياحملة القرآن ، وياأصحاب محمد (ﷺ) قد تبينت في الروم الكسرة العظيمة ، ولم يبق عند القوم من الجلد على القتال إلا ما رأيتم ، وقد كسر الله حدتهم ، فردوا على الكسرة ، وشدّوا عليهم الكرّة رحمكم الله ، فو الذي نفس خالد بيده ، إني لارجو ان يمنحكم الله اكتافهم »[168] .

واستمرت معركة اليرموك أربعة أيام على امتداد الأرض والزمن ، شديدة عنيفة يمتور الجيشان فيها القتل والضرب والطعن . فقتل في يومها الرابع الذي يدعى يوم التعوير ـ لكثرة من اصيبت عينه فيه ـ اربعون الفا من الروم او يزيدون على ماذكر المؤرخون .[169]

وانطلقت جيوش المسلمين بعد هذا الانتصار العظيم نحو

المدن العربية الاخرى لتردّها الى الوطن الام ، ففتحت فحل والرقة واجنادين وبيت المقدس ودمشق وحمص وحماة وحلب.[170] وبعد ذلك واصل المسلمون زحفهم الجهادي ففتحوا مصر بقيادة عمرو بن العاص ، وخاضوا سلسلة من الوقائع العنيفة في بابليون وام دنين وعين شمس والكريون والاسكندرية.[171]

وتستمر طلائع الفتح الاسلامي في تقدّمها ، حتى تدخل شمال افريقية ، بعد معارك طويلة دامت اكثر من سبعين عاماً ، ابتداءً من فتح طرابلس سنة ٢٢ هـ بقيادة عمرو بن العاص،[172] حتى تم فتح شمال افريقية بقيادة موسى بن نصير ، وفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ[173] .

ومما تقدم يتبين لنا ان خطب الجهاد في فتوحات الجبهة الغربية كانت أقل من حيث العدد من مثيلاتها في فتوحات الجبهة الشرقية ، ولكن على الرغم من ذلك لم يصل إلينا من جملة خطب الفتوحات الاسلامية مايتناسب وضخامة وقائع هذه الفتوح ، ولعل سبب ذلك أن معظم ماقيل قد ضاع ، وذهبت به عوادي الزمن ؛ إذ لايمكننا أن نتصور ان تحدث هذه الفتوح ، وأن تقع هذه الوقائع ، ولا يكون لها أثر في الخطابة.[174]

المبحث الثالث

الخصائص الفنية لخطب الجهاد

تحدثنا في الصفحات السابقة عن الدور الجهادي للخطابة الاسلامية في غزوات الرسول (ﷺ) وفي حروب الردة ، وفي الفتوحات الاسلامية ، وأوضحنا كيف أنها استطاعت أن تثير حماس المسلمين وتشجعهم على الجهاد في سبيل الله . وبقي بعد هذا أن نقول : إنها امتازت بخصائص فنية مشتركة أسهمت بشكل واضح وفعال في التأثير على معنويات المجاهدين وهم يخوضون غمار المعارك ، فكانت تدفعهم هي الاخرى الى الاستبسال في القتال للظفر بإحدى الحسنيين : إما الشهادة وإما النصر . ويمكن اجمال اهم هذه الخصائص بالآتي :

١ ـ الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية :

لقد كان الاستشهاد بالآيات القرآنية من ابرز مميزات خطب الجهاد في عصر صدر الاسلام ، ويرجع ذلك الى شدة تأثر الخطباء بالقرآن الكريم ، وحفظهم للكثير من آياته ، « فأخذوا من معانيه ، واقتبسوا الكثير من آياته ، وخاصة في المواقف التي تزيد المعنى وضوحاً ، وتضاعف من وقعه وبيانه ، فيكون تأثيره في السامعين أقوى وأشد »[175] . ومن الامثلة على استشهادهم بالقرآن الكريم :

قوله تعالى : (لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)[176] في خطبة الرسول الكريم (ﷺ) يوم بدر.[177]

وقوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُم على أَعْقَابِكم وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِين)[178] في خطبة أبي بكر (رضي الله عنه) بعد وفاة الرسول (ﷺ) .[179]

وقوله تعالى : (لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ)[180] في خطبة عمر (رضي الله عنه) يوم ندب الناس لقتال الفرس[181] .

وقوله تعالى : (ياأيُّها الَّذِينَ آمَنوا أَطِيعُوا اللّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمْرِ مِنْكُم)[182] في خطبة ابي بكر (رضي الله عنه) أيضاً يوم عقد العزم على توجيه الجيوش لفتح الشام[183] .

وقوله تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُون)[184] في خطبة سعد بن ابي وقاص في يوم القادسية.[185]

وقوله تعالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[186] في خطبة سعد أيضاً يوم أرماث[187] .

وقوله تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جميعاً وَلاتَفَرَّقُوا) في خطبة عمرو بن معد يكرب في وقعة جلولاء[189] .

وقوله تعالى : (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)[190] في خطبة يزيد بن ابي سفيان في وقعة الجابية[191] وفي خطبة خالد بن الوليد في معركة اجنادين[192] ، وفي خطبة عبدالله بن جعفر في غزوة المهدية.[193]

ومثلما استشهد الخطباء بالقرآن الكريم ، استشهدوا بالحديث النبوي الشريف ، مثل قوله ﷺ : (الجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوف) الذي ورد في خطبة يزيد بن ابي سفيان المذكورة آنفاً ، وخطبة شرحبيل بن حسنة في غزوة بصرى[194] ، وخطبة عبدالله بن جعفر في معركة سوسة[195] وقوله (ﷺ) : (سَيُفْتَحُ عَلَى أُمَّتي كنوز كسرى وقيصر والتمام على الله) الذي ورد في خطبة سعد بن ابي وقاص في يوم كوثى بالعراق.[196]

٢ . الالفاظ والمعاني :

لقد جاءت الفاظ خطب الجهاد صافية نقية ، وسهلة عذبة ، وخالية من الغريب المستكره ، والساقط الرديء ، وتمتاز عباراتها بالجزالة والقوة والوضوح ، ويعود الفضل في ذلك الى

القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، اللّذين أثّرا فيها تأثيراً كبيراً ، فحظيت الخطابة منهما بالالفاظ والمصطلحات الآتية :

الحمد لله رب العالمين ، أشهد ، الله لا إله إلا هو ، رسول الله ، الجهاد في سبيل الله ، الحيّ ، القيّوم ، إليه المصير ، المسلمون ، يغفر الله ، الرحمة ، المغفرة ، آمنا ، شهدنا ، الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، إحدى الحسنيين ، الجنة ، الشهادة ، الاستشهاد في سبيل الله ، الشهيد ، الاخرة ، حزب الله ، الدعاء الى الله ، عباد الله الصالحين ، استغفر الله ، إن الله غفور رحيم ، امير المؤمنين ، جبريل ، اطيعوا الله ، اطيعوا الرسول ، آمنوا ، الانصار ، المهاجرون ، الجبار ، الايمان ، الله مظهر دينه ، معز ناصره ، فلاتموتن الا وانتم مسلمون ، انصرو الله ينصركم ، أهل الاسلام[١٩٧] ، وغير ذلك من الالفاظ والمصطلحات التي زخرت بها خطب الجهاد .

وحفلت خطب الجهاد ايضاً بالفاظ حماسية قوية كلها لها وقع كبير في نفوس المقاتلين مثل : قاتلوهم ، ثبّتوا الطعان ، جاهدوا ، شدّوا عليهم باسم الله ، صابروهم ، تترّسوا ، الزموا الصبر ، احملوا عليهم[١٩٨] .

أما المعاني فكانت واضحة ودقيقة ، وفيها ابتكار وجدة ، واتساع وإحاطة وعمق وترتيب [١٩٩] وقد استمدت الخطابة هذه الصفات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

نخلص من ذلك الى أن اختيار الخطباء للالفاظ الجزلة والمعاني المألوفة والعبارات الموسيقية لخطبهم ، كان له الاثر الكبير في تأجيج حماسة الجند ، ووقعه البليغ في نفوسهم ، مما دفعهم الى الاستبسال في مقارعة خصومهم ، فكان اثره بحق صنيع الغيث في التربة الكريمة [٢٠٠]

٣ . الايجاز والاطناب :

إنّ مسألة الإيجاز والاطناب في الخطابة الجهادية يحددها الظرف والمناسبة التي تقال فيها الخطابة ، فمن خلال دراستنا لهذا النوع من الخطب وجدنا أن الخطب التي كانت تقال في جموع المسلمين بعيداً عن ساحات القتال ، بعضها يمتاز بالإطناب ، إذ أن الوقت يسمح بإنشاء مثل هذه الخطب ، كخطبة الرسول (ﷺ) بالمدينة قبل وقعة بدر[٢٠١] ، وخطبة ابي بكر (رضي الله عنه) بالمدينة ايضاً بعد وفاة الرسول (ﷺ)[٢٠٢] . وبعضها الاخر يمتاز بالإيجاز؛ إذ أن الوقت قصير وجموع المسلمين في حالة تهيؤ واستعداد للحركة كخطبة عمر (رضي الله عنه) يوم ندب الناس في المدينة لحرب الفرس ، وخطبة خالد بن الوليد عندما أمره ابو بكر (رضي الله عنه) بالتوجه الى العراق لقتال الفرس [٢٠٣] وخطبة عمر (رضي الله عنه) وخطبة المقداد بن عمرو ، وخطبة سعد بن معاذ عند اجتماع الرسول (ﷺ) واصحابه دُوَين بدر [٢٠٤]

أما الخطب التي كانت تقال عند تهيؤ الخصمان استعداداً للمنازلة ، وفي أثناء احتدام القتال ، وبعد انتهاء المعركة ، فمعظمها كانت موجزة ومشتملة على عبارات حماسية قوية ومؤثرة ، ولها ايقاع موسيقى يهز الأسماع ويشدها ، ومن الامثلة على ذلك : خطبة ثابت ابن الدحداحة في اثناء القتال ببدر[٢٠٦] ، وخطبة ثابت بن قيس في ساعات الاشتباك ضد المرتدين باليمامة[٢٠٧] وخطبة المثنى بن حارثة الشيباني عندما وقف على الرايات في يوم البويب [٢٠٨] وخطبة خالد بن الوليد بعد أنتصاره على الفرس في وقعة الولجة[٢٠٩] ، وخطبة سعد بن ابي وقاص عندما تخلل الصفوف في يوم أرماث بالقادسية[٢١٠] ، وخطبة خالد بن الوليد ايضاً عندما رتب الصفوف في وقعة اجنادين[٢١١] ، وخُطب الاشعث بن قيس وغالب بن عبدالله الليثي وأهل النجدات من جميع القبائل في ليلة الهرير [٢١٢] وخطب أبو عبيدة الجراح وعمرو بن العاص وأبو سفيان وعمرو بن معد يكرب الزبيدي عند نشوب القتال بين المسلمين والروم في معركة اليرموك[٢١٣] على اننا وجدنا بعض الخطب قد امتازت بالطول ، مثل خطبة الرسول (ﷺ) عندما تهيأ المسلمون لقتال المشركين في يوم أحد[٢١٤] وخطبة النعمان بن مقرّن حين وقف على الرايات في وقعة نهاوند [٢١٥]

٤ . الاستهلال والختام :

لقد أخبرنا الجاحظ ان أغلب الخطب الاسلامية كانت تبدأ بالحمد والثناء ، وأول من قام بذلك الرسول (ﷺ) فاصبح تقليداً عرفه المسلمون واتبعوه في زمنه وبعد وفاته ، واطلقوا على كل خطبة خالية من الحمد لله والصلاة على نبيّه اسم « البتراء » [٢١٦]

ولو تأملنا النظر فيما وصل إلينا من خطب الجهاد وجدنا أن اكثرها تبدأ بقولهم : احمدوا الله ، يارسول الله ، والله ، والذي أنزل عليه الكتاب ، يامعشر الانصار ، ياقوم ، إن الأرض ، إياكم ، يامعشر المسلمين ، ياايها الناس ، ألا ، إني ، يامعشر بجيلة ، إن الله هو الحق ، يامعشر العرب ، إن المسلمين ، يامعشر كنده ، يامعشر معد ، اعلموا ، إن انتصروا ، ايها المسلمون ، ياآل زبيد ، ياأهل الاسلام ، اين ، إن هذه البلاد ، ياعشيرتاه ، إن عدوكم ، ياهؤلاء ، إن هذا المنزل ، إنا [٢١٧] ياآل هاشم ، ياآل مخزوم ، ياآل حمير ، ياآل أمية ، ياآل غسان ، ياآل لخم ، ياآل جذام ، ياآل طي ، ياآل هذيل ، ياآل ربيعة [٢١٨]

ولعل الذي دفع الخطباء الى افتتاح خطبهم بهذه

الفواتح ، هو رغبتهم في الاختصار والدخول في الموضوع مباشرة من غير تقديم او الابتداء بالحمد والثناء ، إذ أن الجهاد في الظروف الحاسمة يستدعي الابتداء بتلك الفواتح بقصد اثارة الحماس وتنشيط العزائم ، ولذلك كان الخطباء اذكياء في اختيار هذه الابتداءات حتى يكون التاثير بها أقوى وأشد في نفوس المقاتلين . ولايعني ذلك أنهم تركوا الاستهلال المتعارف عليه في خطبهم ، بل وجدت بعض الخطباء يبتدأ خطبته بعد حمد الله والثناء عليه : اما بعد ، ايها الناس ، قد علمتم ، وغيرها ، وبعضهم يبتدأ خطبته بقوله : الحمد لله ، والله أهله ، واشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اما بعد .[٢١٩]

وتفسير ذكر الحمد والثناء والشهادة والصلاة على رسول الله (ﷺ) ان هناك متسعاً من الوقت ، وأن الظروف تسمح باستخدام هذه الابتداءات ، أما ظروف القتال وانشغال المسلمين به فتبيح للخطيب الدخول في الموضوع مباشرة من غير الاستهلال بالحمد والثناء .

أما خواتم الخطب فهي متنوعة وغير محددة ، ومن الامثلة على ذلك قوله : ويغفر الله لي وللمسلمين ، وأعد عدته ، حتى تبلغه ، فسر بنا على بركة الله ، ان كلّا لفيه الخير ، اني احب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف ، إن الله مظهركم وناصركم ، اما انتصار وإما استشهاد ، فاعدوا واستعدوا ، يابني حنيفة ، وامضوا قدماً ، فإن الله قد جمعهم ، من أراد ثواب العاجل والاجل فلينكمش ، عما أنتم عليه ، وهو يسرني لعامتكم ، اين عباد الله الصالحون ، ولها ان شاء الله مابعدها ، قاتلوهم التماس احدى الحسنيين ، الشهادة والجنة والغنيمة والجنة ، والا فالاخرة ماأردتم ، وانصروا الله ينصركم ، ودخول النار وغضب الجبار .[٢٢٠]

غير أن هناك بعض الخطب اختتمت بآي من الذكر الحكيم ، كخطبة ابي بكر (رضي الله عنه) يوم جمع المسلمين بعد وفاة الرسول (ﷺ)[٢٢١] فقد اختتمها بقوله تعالى : (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ)[٢٢٢] وخطبة المثنى بن حارثة الشيباني في معركة البويب .[٢٢٣] فقد اختتمها بقوله تعالى : (وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٢٢٤] واختتم سعد بن ابي وقاص خطبته في وقعة الحيرة[٢٢٥] بقوله تعالى : (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)[٢٢٦] .

ونخلص الى القول إن الاختتام بآي الذكر الحكيم إنما كان يقصُدُهُ الخطباء من أجل التاثير في نفوس المجاهدين .

٥ . السجع :

واذا نظرنا في موضوع السجع وجدنا أن السمة الغالبة في خطب المجاهدين في عصر صدر الاسلام ، هي ترك السجع ، وقد يقع عرضاً في خطبهم ، « من قبيل الطبع والفطرة لا من قبيل الصنعة والتكلف »[٢٢٧] فلم يعد استخدامهم له الا قليلًا ، لانه من صناعة الكهات في الجاهلية ، وقد استخدمه الجاهليون في أغراض لايحبها الاسلام ولايقرها .[٢٢٨] لذلك استهجنه الرسول (ﷺ) وقال لمن استعمله في كلامه : « أسجعاً كسجع الكهان »[٢٢٩] وكذلك رده الخلفاء على ملتزميه ، فقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لصُحار العبدي : « أسجّاعٌ أنت أم مخبر »[٢٣٠] وقال معاوية لعبدالله بن الزبير : « تعلّمتَ أبا بكر السَّجاعة عند الكِبَر »[٢٣١] .

وعلى هذا فإن الخطباء قد تخففوا في هذا العصر من سجع الكهان الذي كان يثقل خطب الجاهليين ، لكونه لايتفق وروح الاسلام وتعاليمه السمحاء التي جاءت للقضاء على البدع الجاهلية ، وإذا ما وقع شيءٌ من السجع في خطبهم ، فقد يضفي عليها رونقاً وزينةً مستحبة ، وهذا النوع نراه في خطب الرسول (ﷺ) وخطب اصحابه (رضي الله عنه)[٢٣٢] . ومن الامثلة على ذلك قوله ﷺ في خطبته يوم بدر الكبرى : « اللَّهُ عظيمٌ شانهُ ، يامرُ بالحقّ . ويحب الصدق .. وإن الصبر في مواطن الباس مما يفرّج الله به الهمَّ ، وينجي به من الغمُّ .. فإن وعده حق وقوله صدق .. إليه الجانا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكّلنا »[٢٣٣] . وقول ابي بكر (رضي الله عنه) في خطبته يوم ندب المسلمين لفتح بلاد الشام « وزادكم ايمانا ويقينا ونصركم نصراً مبينا »[٢٣٤] وقول عمر (رضي الله عنه) في خطبته التي شيّع فيها سعد بن ابي وقاص الى القادسية : « فإمّا الامارات ، فالحياء والسخاء ، والهَيْن واللَّيْن »[٢٣٥] . وقول العلاء بن الحضرمي في خطبته يوم ندب المسلمين في البحرين لقتال المرتدين في دارين : « قد أراكم من آياته في البَرِ لِتَعْتَبروا فيها في البحر » . وقول عمرو بن العاص في وقعة اليرموك : « سيفتحوها كِفْراً كِفْراً وقَصْراً قَصْراً » .[٢٣٦] وقول خالد بن الوليد في خطبته في موقعة اجنادين : « واياكم ان تولوا الادبار فيعقبكم ذلك دخول النار ، واقرنوا المناكب ، ومكنوا المضارب » .[٢٣٨]

٦ . الصور البيانية والمحسنات اللفظية :

لقد حفلت خطب الجهاد بالعديد من الصور البياتية ، ويأتي استخدام الخطباء لها عن غير قصد أحياناً ، وقد برعوا في ذلك واجادوا ، وتمكنوا من توجيه عواطف المجاهدين من خلال تلك الصور المثيرة للخيال ، التي كان لها فعلها الكبير في تجلية المعاني التي طرقوها في خطبهم وتوضيحها ، وقد كانت معظم خطب الجهاد بسبب الحروب واشتداد المواقف ، أي أن الخطباء لم يتفوهوا بها الا بعد حالة من الانفعال الشديد

الذي يثير كوامن النفس ، ويحرك الشعور ، مما يؤدي الى اشتداد الخيال ، فياتي بصور قوية وصادقة ، تُبهر المجاهدين وترغبهم على القتال[٢٣٩] ففي يوم ارمات دافع بنو أسد عن بجيلة وعمّن معها دفاعاً عظيماً ، فخطب الاشعث بن قيس في قومه بني كنده يحرضهم على القتال ، مبيناً وقفة بني أسد الشجاعة وقتالها المستميت في ذلك اليوم ، وباسلوب يعتمد التصوير فقال .

« يامعشر كِنْدة ، لله درُّ بني أسدٍ ، أيَّ فَرْيَ يَفْرُون[٢٤٠] ، وأيَّ هَذٍّ يَهُذُّون[٢٤١] عن موقفهم اليوم ! أغْنَى كلُّ قوم مايليهم ، وأنتم تنتظرون من يكفيكم الباس ! أشْهدُ ماأحسنتم أُسْوَةَ قومكم العربُ منذ اليوم ، وإنَّهم ليُقتلون ويقاتلون ، وأنتم جثاةٌ على الرُّكب تنظرون ! »[٢٤٢] .

وقد برع في هذا التصوير ايضاً خالد بن الوليد في خطبته في معركة اليرموك التي وقف فيها يحرِّض المجاهدين على الاستبسال في القتال واحكام القبضة على الروم ، مصوراً هزيمة الروم وانكسارهم ، فقال :

« ياأهل الاسلام والايمان ، وياحملة القرآن ، وياأصحاب محمد (ﷺ) قد تبينت في الكسرة العظيمة ، ولم يبق عند القوم من الجلد على القتال الا مارأيتم ، وقد كسر الله حدتهم ، فرُدوا على الكسرة ، وشدُّوا عليهم الكرّة رحمكم الله ، فو الذي نفس خالد بيده ، إني لارجو أن يمنحكم الله على اكتافهم »[٢٤٣] .

وعمد الى هذا الاسلوب ايضاً عمرو بن العاص في تصويره الكيفية التي سيتم بها فتح مدينة اليرموك ، والحالة الماساوية التي سينتهي اليها جنود الروم في خطبته التي قال فيها :

« .. لقد سمعت ان المسلمين سيفتحونها كِفْراً كِفْراً وقَصْراً قَصْراً ، فلا يهولنَّكُم جموعهم ولاعددهم ، فإنكم لو صَدَقْتمُ الشَدَّ تطايروا تطاير أولاد الحَجَل »[٢٤٤]

ويتبين من هذه الخطبة أن الصور التي استخدمها الخطباء المجاهدون في خطبهم كانت حسية مستمدة من الواقع المحسوس ، ومفهومة لدى المستمعين . كما زخرت خطبهم ايضاً بالصور البيانية غير المتكلفة ، والبرئية من العيوب ، فكانت في غاية الجودة والحسن[٢٤٥] فمن صور الكناية ، نذكر ماقاله خالد بن الوليد في خطبته في وقعة الدير :

« .. وهذا العدوُّ قَدْ زَحَفَ بِخَيْلِهِ .. وكُونوا مِمَّنْ باعَ نفسَه للهِ عزَّ وَجَلَ »[٢٤٦] ففي العبارة الاولى كناية عن تقدم جيش الروم نحو المسلمين ، وفي العبارة الثانية كناية عن الاستعداد للمواجهة واخلاص النية لله عزَّ وجل .

وماقاله زيد بن الخطاب في خطبته باليمامة : « .. عضُّوا على أضراسكم أيُّها الناس واضربوا في عدوّكم »[٢٤٧] كناية عن التهيؤ والاستعداد بكل قوة لضرب المرتدين .

واستخدم الخطباء المجاهدون المحسنات اللفظية ، ولكن استخدامهم لها كان قليلًا وبصورة فطرية من غير قصد او تكلف ، فكان لها وقعها الجميل في خطبهم ، وتاثيرها القوي في نفوس المجاهدين ، ومن الامثلة على ذلك صورة الجناس الواضحة في خطبة سعد بن ابي وقاص في وقعة الحيرة : « .. وارموا الخيلَ على الخيلِ تنالوا جزيل النيل »[٢٤٨] وهو جناس ناقص اختلف فيه الحرف .

ونرى الجناس الناقص واضحاً في خطبة خالد بن الوليد في اليمامة : « فمن أراد ثواب العاجل والآجل فَلْيَنْكَمُش »[٢٤٩] .

ومن صور الجناس الناقص في نوع الحرف نذكر قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي في معركة اليرموك : « .. ارضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار »[٢٥٠] .

ومن امثلة الجناس الناقص ايضاً قول جرير بن عبدالله البجلي في خطبته يوم جلولاء : « ... حظّاً سَنِيّاً وعيشاً هَنِيّاً انكم الانجاد والامجاد »[٢٥١] .

كما وردت صور من الطباق في بعض الخطب ، نذكر منه ماورد في خطبة طليحة بن خويلد الاسدي في قومه يوم أرمات : « .. شدّوا ولاتصدُّوا ، وكرُّوا ولاتفرّوا »[٢٥٢] .

وجاء الطباق ايضاً في خطبة عقبة بن عامر في وقعة تبسه : « .. فإذا ثبت الأمير ثبت الجيش واذا انهزم الامير انهزم الجيش »[٢٥٣] .

وطابق خالد بن الوليد بين الموت والحياة في أحد خطبه فقال : « .. أتيتكم باقوام هم أحرض على الموت منكم على الحياة »[٢٥٤] .

الهوامش

(١) انظر : الخطابة في عصرها الذهبي : احسان النص (دار المعارف بمصر ١٩٦٣) ٨ .

(٢) انظر : الخطابة عند العرب : محمد الخضر حسين (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ) ١٣ .

(٣) البيان والتبين : ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت عبدالسلام هارون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ م) ٢٨٧/١ .

(٤) صبح الاعشى : أبو العباس القلقشندي (المطبعة الاميرية

بالقاهرة ١٩١٣) ١/٢١٠ – ٢١١ .
(٥) انظر : في ادب الاسلام : محمد عثمان علي (دار الاوزاعي ط ١ ١٩٨٤ م) ٢٢٩ – ٢٣٠ .
(٦) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش (دار المعارف بمصر ١٩٦٥) ١/٥٧ .
(٧) انظر الاغاني : ابو الفرج الاصفهاني (ت عبدالستار احمد فراج ، طبعة الثقافة بيروت ١٩٥٩) ١٦/٢١٦ ، ٢٢٢ .
(٨) انظر : الاغاني (ط الهيئة) ٢٤/٦٩ – ٧٠ .
(٩) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .
(١٠) انظر : البيان والتبيين ١/١١٦ .
(١١) المصدر نفسه ١/٤٠٨ .
(١٢) انظر : العقد الفريد : ابن عبدربه (مطبعة لجنة التاليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٧ م) ٤/١٢٨ ، وصبح الاعشى ١/٢١١ – ٢١٢ .
(١٣) انظر : العقد الفريد ٣/٣٠٧ .
(١٤) انظر : مجمع الامثال : ابو الفضل الميداني (ت ابي الفضل ، دار الجيل بيروت ط ٢ ١٩٨٧) ١/٦٣ .
(١٥) انظر : العقد الفريد ٦/٨٣ .
(١٦) انظر : المصدر نفسه ٦/١١٠ .
(١٧) انظر : السيرة الحلبية : علي بن برهان الدين الحلبي ، دار المعرفة بيروت (د . ت) ١/٧ .
(١٨) البيان والتبيين ١/٤٣ ، ٣٠٨ ، ٣٦٥ .
(١٩) المصدر نفسه ١/٣١٢ .
(٢٠) الاشتقاق : ابو بكر بن دريد (منشورات مكتبة المثنى بغداد ط ٢ ١٩٧٩) ١٦٨ .
(٢١) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .
(٢٢) المصدر نفسه ١/٢٣٨ .
(٢٣) الاغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/٦٩ .
(٢٤) المصدر نفسه ١٤/٦٦ .
(٢٥) البيان والتبيين ١/٣٥١ .
(٢٦) الاغاني (ط دار الكتب) ٤/١٨٧ .
(٢٧) الطبري ٢/٢٥١ ومابعدها (ت ابي الفضل ط ٥ د . ت)
(٢٨) الاغاني (ط الهيئة) ٢٤/٦٩ .
(٢٩) انظر : الخطابة في عصرها الذهبي : احسان النص ٢٢ .
(٣٠) انظر : تاريخ الادب العربي – العصر الاسلامي : د . شوقي ضيف (ط ٩ دار المعارف د . ت) ١٠٦ ومابعدها .
والخطابة اصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب : محمد ابو زهرة (ط ١ مطبعة العلوم بالقاهرة ١٩٣٤) ٤٨ ومابعدها ، والخطابة في عصرها الذهبي : احسان النص ٣٠ ومابعدها ، وفي ادب الاسلام : محمد عثمان علي ٢٣٦ ومابعدها .
(٣١) البيان والتبيين ٢/٦ .
(٣٢) سورة الشورى / الاية ٣٧ .
(٣٣) انظر : الطبري ٣/١١٥ .
(٣٤) المصدر نفسه ٣/٢٧٣ .
(٣٥) المصدر نفسه ٧/١١٥ – ١١٧ .
(٣٦) المصدر نفسه ٣/٢٧٢ – ٢٧٣ .
(٣٧) انظر : الطبري ٢/٣١٩ .
(٣٨) سورة الحجر/الاية ٩٤ .
(٣٩) انظر : الطبري ٢/٢٩٤ .
(٤٠) انظر : الطبري ٣/٦٠ ، وسيرة ابن هشام (ت السقا وآخرون ط ٢ الباب الحلبي) ٤/٥٤ .
(٤١) سيرة ابن هشام ٤/٢٥٠ ، والبيان والتبيين ٢/٣١ .
(٤٢) انظر : المغازي : محمد بن عمر الواقدي (ت . د . مارسدن ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦) ٥٨ .
(٤٣) انظر : فتوح الشام : محمد بن عمر الواقدي (مطبعة حجازي بالقاهرة د . ت) ١/٢ .
(٤٤) انظر : الطبري ٣/٤٤٥ .
(٤٥) انظر : البيان والتبيين ٢/٥٣ .
(٤٦) انظر : سيرة ابن هشام ٤/٢٠٧ ، والطبري ٣/١١٤ – ١١٥ .
(٤٧) انظر : العقد الفريد ١/١١٦ .
(٤٨) انظر : الطبري ٣/٢٢٣ ، ٤/٢١٤ ، وسيرة ابن هشام ٤/٣١١ ، والبيان والتبيين ٣/١٣٨ .
(٤٩) انظر : الامامة والسياسة : ابن قتيبة الدينوري ، وهو المعروف بتاريخ الخلفاء ، تحقيق د . طه محمد الزيني ، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه (د . ت) ١/١٢ – ١٣ .
(٥٠) انظر : الطبري ٤/٥٢ .
(٥١) انظر : البيان والتبيين ١/١١٧ .
(٥٢) انظر : الطبري ٢/٤٥ .
(٥٣) انظر : الطبري ٣/٤٨٣ .
(٥٤) المصدر نفسه ٣/٤٦٥ .
(٥٥) الجَهْد والجُهْد : تقول اجْهَد جَهْدك ، وقيل الجهد المشقة ، والجُهْد : الطاقة . وجاهدوا العدو مجاهدة وجهاداً : قاتله وجاهد في سبيل الله . ونية الجهاد محاربة الاعداء ، وهو المبالغة واستفراغ مافي الوسع والطاقة ، من قولٍ او فعلٍ ، والمراد بالنية اخلاص العمل لله وحده (جمهرة اللغة ٢/٧١ ، تهذيب اللغة ٦/٣٧ ، لسان العرب ٤/١٠٧ – ١٠٩) .
(٥٦) سورة الحج/ الاية ٧٨ .

(٥٧) سورة المائدة/ الاية ٣٥ .
(٥٨) سورة الفرقان/ الاية ٥٢ .
(٥٩) سورة التوبة/ الاية ٧٣ .
(٦٠) سورة العنكبوت / الاية ٦ .
(٦١) سورة الصف/الاية ١١ .
(٦٢) سورة البقرة/الاية ١٩٣ .
(٦٣) سورة محمد/ الاية ٣١ .
(٦٤) سورة الانفال/ الاية ٦٠ .
(٦٥) سورة العنكبوت/ الاية ٦٩ .
(٦٦) سورة الصف/ الاية ٤ .
(٦٧) سورة البقرة/ الاية ٢٤٤ .
(٦٨) سورة التوبة/ الاية ٣٦ .
(٦٩) سورة الحج/ الاية ٣٩ ، ٤٠ .
(٧٠) سورة التوبة/ الاية ٤١ .
(٧١) سورة البقرة/الاية ١٥٤ .
(٧٢) سورة آل عمران/ الاية ١٦٩ .
(٧٣) صحيح مسلم (بشرح النووي ، دار احياء التراث العربي بيروت ط ٣ ١٩٨٤) ٣٤/١٣ .
(٧٤) صحيح مسلم ٢٠/١٣ .
(٧٥) صحيح سنن النسائي (طبعة المكتب الاسلامي في بيروت ١٩٨٨ م) ٦٦٦/٢ .
(٧٦) انظر : الجهاد في الاسلام : محمد اسماعيل ابراهيم (ط ١ دار الثقافة العربية للطباعة ١٩٦٤ م) ٥٧ .
(٧٧) سورة البقرة/ الاية ٢٥٦ .
(٧٨) سورة غافر/ الاية ١٠ .
(٧٩) المغازي : الواقدي (ت . د . مارسدن جونس ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦) ٥٨/١ ،
شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد (تر محمد ابو الفضل طبعة البابي الحلبي ١٩٦٢) ١٢٠/١٤ - ١٢١ .
(٨٠) سيرة ابن هشام ، ٦١٤/١ - ٦١٥ ، الطبري ٤٣٤/٢ ، الاغاني ١٧٦/٤ .
(٨١) سورة المائدة/ الاية ٢٤ .
(٨٢) سيرة ابن هشام ٦١٥/١ ، الطبري ٤٣٤/٢ .
(٨٣) استعرض البحر : أتاه من جانبه .
(٨٤) سيرة بن هشام ٦١٥/١ ، الطبري ٤٣٥/٢ ، الاغاني ١٧٨/٤ .
(٨٥) المصادر السابقة : الصفحات نفسها .
(٨٦) سيرة ابن هشام ٦٢٧/١ ، الطبري ٤٤٨/٢ .
(٨٧) بكسر الخاء واسكانها : كلمة تقال للإعجاب .
(٨٨) سيرة ابن هشام٦٢٧/١ ، الطبري ٤٤٨/٢ .
(٨٩) الطبري ٤٤٨/٢ .
(٩٠) انظر : سيرة ابن هشام ٦٤٦/١ ، والطبري ٤٤٩/٢ .
(٩١) انظر : سيرة ابن هشام ٦٠/٢ ، والطبري ٥٠٢/٢ .
(٩٢) انظر : مغازي الواقدي ٢١١/١ .
(٩٣) مغازي الواقدي ٢١١/١ .
(٩٤) المصدر نفسه ٢١١/١ - ٢١٢ .
(٩٥) انظر : المصدر نفسه ٢١١/١ - ٢١٣ .
(٩٦) انظر : المصدر نفسه ٢١٣/١ .
(٩٧) المصدر نفسه ٢٢١/١ - ٢٢٢ .
(٩٨) مغازي الواقدي ٢٨١/١ .
(٩٩) انظر : المصدر نفسه ٢٨١/١ .
(٩٩) مغازي الواقدي ٧٦٠/٢ .
(١٠٠) سورة آل عمران / الاية ١٤٤ .
(١٠١) سورة آل عمران / الاية ١٠٣ .
(١٠٢) سورة النور / الاية ٥٥ .
(١٠٣) البداية والنهاية : ابن كثير (طبعة السعادة بمصر د . ت) ٣١٢/٦ .
(١٠٤) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ٢٤٣ .
(١٠٥) كافرة : مظلمة .
(١٠٦) الطبري ٢٤٥/٣ ، شرح نهج البلاغة ١٥٣/١٧ ، البداية والنهاية ٣١٢/٦ - ٣١٣ .
(١٠٧) انظر : الطبري ٢٤٤/٣ ومابعدها .
(١٠٨) الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ابن عبدالبر ، ت البجاوي ، طبع مصر ١٩٦٠ ، ٢١٥/١ .
(١٠٩) انظر : البداية والنهاية ٣٢٤/٦ .
(١١٠) الطبري ٢٩١/٣ .
(١١١) الطبري ٢٩١/٣ ، البداية والنهاية ٣٢٤/٦ .
(١١٢) الطبري ٢٩١/٣ .
(١١٣) الطبري ٣١٠/٣ - ٣١١ .
(١١٤) انظر : الطبري ٣١١/٣ ، البداية والنهاية ٣٢٩/٦ .
(١١٥) سورة التوبة/ الاية ٤١ .
(١١٦) انظر : البطولة في الشعر العربي : د . شوقي ضيف (دار المعارف بمصر ١٩٧٠) ٤٣ - ٤٥ .
(١١٧) انظر : الخطابة في عصر صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ١٥١ .
(١١٨) فتوح الشام : محمد بن عبدالله الازدي (تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ١٩٣٠) ٥٦ ، فَلْيَتَكَمّش : فَلْيُسْرِع .

(١١٩) الرغغ : مجتمع التراب .
(١٢٠) الطبري : ٣/٣٥٤ .
(١٢١) انظر : فتوح الشام للازدي ٦٨ .
(١٢٢) انظر : الطبري ٣/٤١٤ .
(١٢٣) سورة التوبة : الاية ٣٣ .
(١٢٤) الطبري ٣/٤٤٥ .
(١٢٥) الطبري ٣/٤٤٥ .
(١٢٦) انظر : الطبري ٣/٤٤٤ ـ ٤٤٥ .
(١٢٧) الطبري ٣/٤٦٥ .
(١٢٨) المستبسل : رجل من المسلمين فر من الزحف يوم الجسر وقد عقد العزم على الاستبسال في المعركة المقبلة (البويب) .
(١٢٩) سورة المزمل/ الاية ٢٠ .
(١٣٠) الطبري ٣/٤٦٥ .
(١٣١) الطبري ٣/٤٦٩ .
(١٣٢) انظر : الطبري ٣/٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ـ ٤٨٣ ، ٤٨٧ .
(١٣٣) سورة الانبياء / الاية ١٠٥ .
(١٣٤) الطبري ٣/٥٣١ ـ ٥٣٢ .
(١٣٥) انظر : شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام : النعمان عبدالمتعال القاضي (الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م) ١٣٢ .
(١٣٦) سورة فاطر/ الاية ١٠ .
(١٣٧) فتوح الاسلام لبلاد العجم وخراسان : محمد بن عمر الواقدي (المطبعة المحروسة بمصر ١٨٩٦) ٢٣ ـ ٢٤ .
(١٣٨) انظر : الطبري ٣/٥٣٢ ـ ٥٣٥ ، ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .
(١٣٩) الطبري ٣/٥٥٤ .
(١٤٠) المصدر نفسه ٣/٥٦٠ .
(١٤١) انظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(١٤٢) انظر : المصدر نفسه ٣/٥٦٣ ـ ٥٦٦ .
(١٤٣) انظر : المصدر نفسه ٤/٩ ، ٢٥ ، ٢٧ ، وفتوح الاسلام للواقدي ٦٢ ـ ٤ ، وفتوح ابن اعثم ١/٢٧٣ ـ ٢٧٦ (طبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الركن ١٩٦٨ م) .
(١٤٤) أخطرتم واخطروا : تراهنتم وتراهنوا وتسابقوا .
(١٤٥) الرّثة : المتاع .
(١٤٦) الطبري ١/١٣١ ـ ١٣٢ .
(١٤٧) انظر : البطولة في الشعر العربي ٥٢ ، ٥٧ .
(١٤٨) سورة المائدة/ الاية ٣ .
(١٤٩) سورة النساء/ الاية ٥٩ .
(١٥٠) فتوح الشام للواقدي ١/٢ .
(١٥١) انظر : فتوح الشام للواقدي ١/٢ .
(١٥٢) سورة البقرة /الاية ٢٤٩ .
(١٥٣) صحيح مسلم ١٢/٤٧ .
(١٥٤) فتوح الشام للواقدي ١/٥ .
(١٥٥) انظر : المصدر نفسه ١/٥ .
(١٥٦) صحيح مسلم ١٢/٤٧ .
(١٥٧) سورة آل عمران /الاية ١٠٢ .
(١٥٨) فتوح الشام للواقدي ١/١٥ .
(١٥٩) انظر : المصدر نفسه ١/١٦ ومابعدها .
(١٦٠) انظر : المصدر نفسه ٢/١٧ ومابعدها .
(١٦١) انظر : المصدر نفسه ١/٩٦ ومابعدها .
(١٦٢) المصدر نفسه ١/١٢٥ .
(١٦٣) الخجل : صغار الإبل واولادها (اللسان ١١/١٤٣ مادة حجل)
(١٦٤) البداية والنهاية ٧/٩ .
(١٦٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(١٦٦) فتوح الشام للواقدي ١/١٢٧ .
(١٦٧) انظر : فتوح الشام للواقدي ١/١٢٧ .
(١٦٨) المصدر نفسه ١/١٢٨ .
(١٦٩) انظر : المصدر نفسه ١/١٣٥ ـ ١٣٨ .
(١٧٠) انظر : المصدر نفسه ١/١٣٨ ومابعدها .
(١٧١) انظر : المصدر نفسه ٢/٣٠ ومابعدها ، والطبري ٤/١٠٤ ومابعدها .
(١٧٢) انظر : فتوح مصر واخبارها : ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم (طبع في مدينة ليدن ١٩٢٠ ، واعادت طبعة بالاوفسيت مكتبة المثنى ببغداد) ١٧١ .
(١٧٣) انظر : الطبري ٦/٤٦٨ .
(١٧٤) انظر : شعر الفتوح الاسلامية ١٦٥ .
(١٧٥) الفروسية في أدب القرن الاول الهجري : عبادة حرز حبيب (رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاداب بجامعة بغداد ١٩٨٣ م) ٣٦٦ .
(١٧٦) سورة غافر/ الاية ١٠ .
(١٧٧) أنظر : الخطبة في المبحث الاول .
(١٧٨) سورة آل عمران /الاية ١٤٤ .
(١٧٩) أنظر : الخطبة في المبحث الاول .
(١٨٠) سورة التوبة/ الاية ٣٣ .
(١٨١) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(١٨٢) سورة النساء/ الاية ٥٩ .
(١٨٣) أنظر : الخطبة في المبحث الثاني .

(١٨٤) سورة الانبياء/ الاية ١٠٥ .
(١٨٥) أنظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(١٨٦) سورة فاطر/ الاية ١٠ .
(١٨٧) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(١٨٨) سورة آل عمران /الاية ١٠٣ .
(١٨٩) أنظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(١٩٠) سورة البقرة/ الاية ٢٤٩ .
(١٩١) أنظر : فتوح الشام للواقدي ١/٥ .
(١٩٢) أنظر : المصدر نفسه ٢٧/١ .
(١٩٣) انظر : فتوح افريقية لابي عبدالله محمد بن عمر الواقدي ، مطبعة المنار بتونس ١٩٦٦ م ١٢/١ .
(١٩٤) انظر : الخطبة في فتوح الاسلام للواقدي ٤١ ، والحديث في مسند ابن حنبل (طبعة قرطبة) ٢١٠/١ .
(١٩٥) انظر : فتوح افريقية ١٠١ .
(١٩٦) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(١٩٧) انظر : الخطب التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
(١٩٨) انظر : الخطب التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
(١٩٩) انظر : الخطب التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
(٢٠٠) انظر : البيان والتبيين ٨٣/١ ، والفروسية في ادب القرن الاول الهجري ٣٦٠ .
(٢٠١) انظر : الخطبة في البحث الاول .
(٢٠٢) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
(٢٠٣) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢٠٤) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢٠٥) انظر : هذه الخطب في المبحث الاول .
(٢٠٦) انظر : الخطبة في البحث الاول .
(٢٠٧) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
(٢٠٨) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢٠٩) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢١٠) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢١١) انظر : فتوح الشام للواقدي ٢٧/١ .
(٢١٢) انظر : الطبري ٥٦٣/٣ - ٥٦٦ .
(٢١٣) انظر : فتوح الشام للواقدي ١٢٥/٢ والبداية والنهاية ٩/٧ .
(٢١٤) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
(٢١٥) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢١٦) البيان والتبيين ٦/٢ .
(٢١٧) انظر : الخطب التي تم الاستشهاد بها في هذا المبحث .
(٢١٨) انظر : خطبة عقبة بن عامر في غزوة تبسه في فتوح افريقية للواقدي ص ١٠٩ .
(٢١٩) انظر : الخطب التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث .
(٢٢٠) انظر : الخطب التي تم الاستشهاد بها في هذا البحث ،
(٢٢١) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
(٢٢٢) سورة النور/ الاية ٥٥ .
(٢٢٣) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢٢٤) سورة المزمل/ الاية ٢٠ .
(٢٢٥) انظر : فتوح الاسلام للواقدي ٢٠ .
(٢٢٦) سورة الاعراف/الاية ١٢٦ .
(٢٢٧) النثر الفني واثر الجاحظ فيه : عبدالحكيم بلبع (طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ م) ١١٨ .
(٢٢٨) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ٤٥٧/١ ، والفروسية في أدب القرن الاول الهجري ٣٦٠ .
(٢٢٩) كتاب الصناعتين : ابو هلال العسكري (ت علي البجاوي وابي الفضل ابراهيم ، طبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٧١) ٢٦٧ .
(٢٣٠) الطبري (ط ٤ ت ابي الفضل د . ت) ١٨٢/٤ .
(١٣١) البيان والتبيين ٣٠١/١ .
(٢٣٢) انظر : الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ٤٢٧/١ .
(٢٣٣) انظر : الخطبة في المبحث الاول
(٢٣٤) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢٣٥) الطبري ٤٨٥/٣ .
(٢٣٦) انظر : الخطبة في المبحث الاول .
(٢٣٧) انظر : الخطبة في المبحث الثاني .
(٢٣٨) فتوح الشام للواقدي ٣١/١ .
(٢٣٩) انظر : الفروسية في أدب القرن الاول الهجري ٣٦٢ .
(٢٤٠) الفري : الامر المظيم ، ويقال فلان يفري اذا كان ياتي بالعجب في عمله .
(٢٤١) الهذ : القطع .
(٢٤٢) الطبري ٥٣٩/٣ .
(٢٤٣) فتوح الشام للواقدي ١٢٨/١ .
(٢٤٤) البداية والنهاية ٩/٧ والخجل : صغار الإبل وأولادها .
(٢٤٥) انظر : الفروسية في ادب القرن الاول الهجري ٣٦٣ ، ٣٦٤ .
(٢٤٦) انظر : فتوح الشام ١٨/١ .
(٢٤٧) الطبري ٢٩١/٣ .
(٢٤٨) فتوح الاسلام للواقدي ٢٠ .
(٢٤٩) فتوح الشام للازدي ٥٦ .
(٢٥٠) فتوح الشام للواقدي ١٢٧/١ .

(٢٥١) فتوح الشام للواقدي ٦٢ ، والفتوح لابن اعثم ٢٧٣/١ .
(٢٥٢) الطبري ٥٣٩/٣ .
(٢٥٣) فتوح افريقية ١٠٩ .
(٢٥٤) الطبري ٣٤٤/٣ .

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ابن عبدالبر ، أبو عمر يوسف بن عبدالله (٤٦٣ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٠ م .
٣ ـ الاشتقاق : ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن (٣٢١ هـ) تحقيق عبدالسلام هارون ، ط ٢ منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٩ م .
٤ ـ الاغاني : الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦ هـ) طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ ، وطبعة الهيئة ١٩٧٤ ، ونسخة اخرى بتحقق عبدالستار احمد فراج ، طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ م .
٥ ـ الامامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) : ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) تحقيق د . طه محمد الزيني ، الناشر مؤسسة البابي الحلبي وشركاه (د . ت) .
٦ ـ البداية والنهاية : ابن كثير عماد الدين أبو الفداء الدمشقي (٧٧٤ هـ) طبعة السعادة بمصر (د . ت) .
٧ ـ البطولة في الشعر العربي : د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر (د . ت) .
٨ ـ البيان والتبين : الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ م .
٩ ـ تاريخ الادب العربي ـ العصر الاسلامي : د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ط ٩ (د . ت) .
١٠ ـ تاريخ الرسل والملوك : الطبري ابو جعفر محمد بن جرير (ت . ٣١٠ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ٥ دار المعارف بمصر (ت . د).
١١ ـ تهذيب اللغة : الازهري ، ابو منصور محمد بن احمد (٣٧٠ هـ) تحقيق عبدالسلام هارون ، الدار المصرية ١٩٦٥ م .
١٢ ـ جمهرة اللغة : ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن (٣٢١ هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، (حيدر أباد الدكن) ، ١٣٤٥ هـ .
١٣ ـ الجهاد في الاسلام : محمد اسماعيل ابراهيم ط ١ دار الثقافة العربية للطباعة ١٩٦٤ م .
١٤ ـ الخطابة أصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب : محمد أبو زهرة ، مطبعة العلوم بالقاهرة ط ١ ١٩٣٤ م .
١٥ ـ الخطابة عند العرب : محمد الخضر حسين ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ .
١٦ ـ الخطابة في صدر الاسلام : د . محمد طاهر درويش ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م .
١٧ ـ الخطابة في عصرها الذهبي ، احسان النص ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .
١٨ ـ السيرة الحلبية في سيرة الامين المامون انسان العيون : علي بن برهان الدين الحلبي ، دار المعرفة بيروت (د . ت) .
١٩ ـ السيرة النبوية : ابن هشام ، أبو محمد عبدالملك بن هشام (٢١٨ هـ) تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ط ٢ البابي الحلبي (د . ت) .
٢٠ ـ شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد ، عبدالحميد هبة الله المدائني (٦٥٥ هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، طبعة البابي الحلبي ١٩٦٢ م .
٢١ ـ شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام : النعمان عبدالمتعال القاضي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م .
٢٢ ـ صبح الاعشى : القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (٨٢١ هـ) المطبعة الاميرية القاهرية ١٩١٣ .
٢٣ ـ صحيح سنن النسائي : ابو عبدالرحمن بن شعيب (٣٠٣ هـ) صحح احاديثه محمد ناصر الدين ، طبع المكتب الاسلامي ، ط ١ بيروت ١٩٨٨ م .
٢٤ ـ صحيح مسلم بشرح النووي : أبو الحسن مسلم بن الحجاج (٢٦١ هـ) دار احياء التراث العربي ط ٣ بيروت ١٩٨٤ م .
٢٥ ـ الصناعتين : ابو هلال العسكري الحسن بن عبدالله (٣٩٥ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، طبعة البابي الجلبي ، مصر ١٩٧١ م .
٢٦ ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه ، احمد بن محمد الاندلسي ، تحقيق احمد امين وآخرون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٧ م .
٢٧ ـ الفتوح ، ابن اعثم الكوفي (٣١٤ هـ) مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، الهند ١٩٦٨ م .

٢٨ ـ فتوح الاسلام لبلاد العجم وخراسان : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) المطبعة المحروسة بمصر ١٨٩٦ .
٢٩ ـ فتوح افريقية : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) مطبعة المنار تونس ١٩٦٦ م .
٣٠ ـ فتوح الشام : الازدي محمد بن عبدالله (١٦٥ هـ) تحقيق عبدالمنعم عامر ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ١٩٣٠ م .
٣١ ـ فتوح الشام : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) مطبعة حجازي بالقاهرة (د . ت) .
٣٢ ـ فتوح مصر واخبارها : ابو القاسم عبدالرحمن الحكم (٢٥٧ هـ) ليدن ١٩٢٠ ، مكتبة المثنى بغداد .
٣٣ ـ الفروسية في ادب القرن الاول الهجري : عبادة حرز حبيب ، رسالة ماجستير غير منشورة في آداب بغداد ١٩٨٣ م .
٣٤ ـ في ادب الاسلام : محمد عثمان علي ، دار الاوزاعي ط ١ ١٩٨٤ م .
٣٥ ـ لسان العرب : ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١ هـ) دار صادر بيروت (د . ت) .
٣٦ ـ مجمع الامثال : الميداني ، ابو الفضل احمد بن محمد (٥١٨ هـ) دار الجيل بيروت ط ٢ ١٩٨٧ م .
٣٧ ـ مسند احمد بن حنبل : احمد بن محمد الامام (٢٧٦ هـ) طبع مؤسسة قرطبة ـ الاندلس (د . ت) .
٣٨ ـ المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي الشريف : لفيف من المشرقين ، دار الدعوة استنبول ١٩٨٦ .
٣٩ ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٦٤ م .
٤٠ ـ المغازي : ابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) تحقيق د . مارسون ، اكسفورد ١٩٦٦ م .
٤١ ـ النثر الفني واثر الجاحظ فيه : عبدالحكيم بلبع ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ م .

• • • •

لغة الشعر عند ابي تمام

د . نعمة رحيم العزاوي

كلية التربية (ابن رشد) - جامعة بغداد

التمهيد

ابو تمام والجديد :

لم يكن ابو تمام اول من اتجه بالشعر العربي وجهة جديدة ، فقد سبقه الى هذا شعراء ، ابرزهم بشار بن برد ومسلم بن الوليد اللذان ظهر في شعرهما مالم يعهد النقاد ، واللغويون منهم بوجه خاص ، من سمات في اللفظة المفردة والجملة . فاما بشار فقد اراد ان يفتح للشعراء باب التصرف في اللغة فاستحدث صيغاً ، وابتكر مشتقات لم ترد في كلام العرب ، فانكرها اللغويون عليه ، وعدوها من اخطائه . قال بشار :

والآن اقصر عن سمية باطلي ... واشار بالوجلى عليّ مشير

وقال :

على الغزلى مني السلام فربما ... لهوت بها في ظل مخضرة زهر

فطعن الاخفش في هذين البيتين وقال : « لم يسمع من الوجل والغزل (فَعَلى) ، وانما قاسهما بشار ، وليس هذا مما يقاس ، وانما يعمل فيه بالسماع » .[1]

واما مسلم بن الوليد فهو « اول من حاول ان يجعل من الشعر ابداعاً جمالياً في الالفاظ » [2] وقد قال عنه ابن قتيبة : « اول من الطف في المعاني ورقق في القول » .[3] فالناظر في شعر بشار ومسلم بن الوليد واجه فيهما ملامح جديدة تشير الى ان الشعر العربي بدأ يدخل في عهد جديد ، فارق فيه ما عرف من قيم تعبيرية ظلت متوارثة عدة قرون . وقد اقر النقاد لهذين الشاعرين بانهما رائدان لما صار يعرف في القرن الثالث بالشعر المحدث . فبشار قيل عنه : إنه « استاذ المحدثين من بحره اغترفوا ، واثره اقتفوا » .[4]

والذي يدلنا على ان بشاراً شق للشعر العربي طريقاً جديدة ، هو ان الاصمعي فضله على مروان بن ابي حفصة « لان مروان اخذ بمسالك الاوائل ، سلك طريقاً كثر سلاكه فلم يلحق بمن تقدمه ، وان بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه احد فانفرد به ، وأحسن فيه » .[5]

لقد اختلفت نظرة بشار الى الشعر ، فحين سئل : « بم فقت اهل عصرك ، وسبقت اهل عصرك ، قال : لانّي لم أقبل كل ما تورده عليّ قريحتي ، ويناجيني بهطبعي ، ويبعثه فكري ، ولا والله ماملك قيادي الاعجاب بشيء مما آتي به » .[6] وفي هذا القول « ما يشير الى ان الشعر في رأي بشار فن ، فلا يكفي ان يعبر الشاعر طبيعياً ، بل المهم هو كيفية تعبيره ، فالطبع بذاته لا يتضمن قيمة شعرية بالضرورة وانما يجب اخراجه فنياً ، وفي هذا القول ما يشير ايضاً الى ان بشاراً يرى ان الشعر بحث مستمر ، ومن هنا لا يعجب الشاعر بما انجزه ، ذلك انه ماخوذ بما لم ينجزه بعد » .[7]

ولم يكن ابو تمام ليختلف عن بشار في نظرته الى الشعر ، فقد كان شاعراً جانب (الطبع) واعتمد على (الصنعة) في شعره ، اذ كان يعتقد ان الشعر فن ، وان الفن لا يواتي صاحبه اذا ارسل نفسه على سجيتها ، واخذ ما يطفو على سطح خاطره ، بل لابد له لكي يكون الفن فناً ان يبذل جهداً ، وان يشقى شقاءً ما ، حتى يستوي له الفن ، ويواتيه منه مايرضيه .[8]

وكما كان بشار غرضاً لسهام اللغويين ومن تابعهم من النقاد ، فلم يثنه ذلك عن المضي في طريق التجديد ، كذلك لقي جديد ابي تمام إعراضنا عنه ، وطعنا عليه ، لقد حار اللغويون والنقاد المحافظون في شعره ، فلم يقبلوا عليه ، ولم يسيغوه ، وما سبب ذلك الا لان اللغويين الفوا شعر القدماء ، فذللت لهم سبله ، ووضحت امامهم معالمه ، اما شعر ابي تمام فقد كان جديداً عليهم ، وكانت هذه الجدة سبب حيرتهم فيه ، واعراضهم عنه . وقد تنبه الصولي لذلك ، فقال محللاً اسباب اعراض اللغويين عن الشعر الجديد وشعر ابي تمام خاصة : « أما ما حكي عن بعض العلماء في اجتناب شعره - اي ابي تمام - وعيبه ، ولا اسمي منهم احداً لصيانتي لاهل العلم جميعاً ، وابقائي عليهم ، وحياطتي لهم ، فلا تنكر ان يقع ذلك منهم .

لان اشعار الاوائل قد ذللت لهم ، وكثرت لها روايتهم ، ووجدوا أئمة قد ماشوها لهم ، وراضوا معانيها ، فهم يقرؤونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها ، واستجادة جيدها ، وعيب رديئها ، والفاظ القدماء وإن تفاضلت فانها تتشابه ، وبعضها آخذ برقاب بعض ، فيستدلون بما عرفوه منها على ما انكروه ، ويقوون على صعبها بما ذللوه ، ولم يجدوا في شعر المحدثين في عهد بشار أئمة كائمتهم ولا رواة كرواتهم ، الذين تجتمع فيه شرائطهم ، ولم يعرفوا ماكان يضبطه ويقوم به ، وقصروا فيه فجهلوه وعادوه ».[٩]

ولكن شعر ابي تمام لم يعدم في القرن الثالث الهجري بعض اللغويين الذين تفاوتت احكامهم فيه بين الاستحسان والاستهجان ، من هؤلاء اللغويين التوزي الذي سئل عن شعر ابي تمام فقال : « فيه ما استحسنه وفيه ما لا اعرفه ولم اسمع بمثله ».[١٠] ومنهم ايضاً ابو حاتم السجستاني الذي قال عنه الصولي : « أنشد ابو حاتم شعراً لابي تمام فاستحسن بعضه واستقبح بعضاً ».[١١]

وهناك لغويون قبلوا شعر ابي تمام ، واذنوا له في دخول كتبهم ومصنفاتهم ، ومن هؤلاء المبرد الذي عده ابن سنان الخفاجي من المتسامحين الذين قبلوا الشعر الجديد عامة ، ولم يروا تفضيل القديم عليه.[١٢] وما كتابه (الروضة) إلا دليل على تسامح المبرد ، فقد قصره على شعر المحدثين.[١٣]

ثم رزق الشعر الجديد عامة وشعر ابي تمام خاصة في القرن الثالث الهجري نقاداً غير اللغويين المتسامحين ، اقبلوا عليه ، واحسنوا درسه ، وكان هؤلاء النقاد هم الكتاب والادباء الذين تلمذوا لائمة اللغة والنحو ، وأفادوا منهم ، ولكنهم لم يرثوا عنهم نظرتهم للجديد ، بل اقبلوا عليه ، وعُنوا به اشد عناية ، ونقدوا عناصره ، فنوهوا بالمقبول منها والمرذول ، فاستحقوا لذلك ان يكونوا العلماء بالشعر ، البصراء بجوهره . قا الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالايام والانساب ، فلم اظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب ».[١٤]

وجاء ابن قتيبة فعزز الرأي القائل بوجوب الاهتمام بالجديد ، ونبذ التعصب للقديم ، وقال : « ... ولانظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتاخرين منهم بعين الاحتقار لتاخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، واعطيت كلًا حظه ، ووفرت عليه حقه ».[١٥] ثم انحنى باللوم على من كان من علماء عصره « يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولاعيب له عنده الا انه قيل في زمانه او انه رأى قائله ».[١٦] وعُني ابن المعتز بالشعر المحدث فدرسه والف فيه . وعلى ذلك فان اتجاهاً جديداً في درس الادب ونقده ، قد بدأ يظهر وتتضح ملامحه ، وان النقاد أحسوا بوجوب الالتفات الى الشعر الجديد ، وتقويمه ، ووضع الاسس التي تصلح للمفاضلة بين منشئيه . اما اللغويون فقد شرعوا يتركون ميدان النقد ، وان لم يودعوه ، بعد ان تصدى الادباء والكتاب لهذه المهمة . وما ان جاء القرن الرابع حتى خفتت الحماسة للشعر القديم ، وتضاءلت ، واصبح اكثر النقاد مجمعين على التسليم بانه لا فضل لقديم على محدث ، ولا لمحدث على قديم إلا بالاجادة.[١٧]

الاستخدام الفنيّ للغة :

من الواضح ان اللغة تستخدم ضربين من الاستخدام ، الاستخدام العاديّ ، وبه تنقل الافكار من المتكلم الى السامع ، وأن على الانسان ان يلتزم في حديثه العاديّ لغة الجماعة ، ويخضع لما تتبع هذه اللغة من نظام في اصواتها ومفرداتها وتراكيبها واساليبها ، كما يتقيد بمدلولات الالفاظ ، فلا يحيد عن شيء من ذلك ، ليضمن للغته ان تؤدي عنه مايريد . ولو حاول فرد ان يخرج في حياته عن النظام اللغوي للجماعة ، بان يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، لما وجد من يفهم حديثه ، ويصبح للجماعة ان تسخر منه ، وتصفه بالشذوذ والمروق.[١٨]

غير ان الذي يحدث في ميدان الحياة العملية لا يصح في عالم الشعر والادب ، فاذا تقيد الفرد العادي في حياته العامة بلغة الجماعة ، وخضع لنظامها وقوانينها ، وجدنا الشاعر يتمتع بقدر كبير من الحرية الفنية في استخدام اللغة . فمع التزام الشاعر بقواعد اللغة واصولها ، ومع رعايته لقوانينها فهو حر – بحدود ما يبدع – في استخدام هذه اللغة ، ويملك من امرها ما لا يملك الانسان العادي من امر لغته .

ان لغة الشعر لا تقتصر على نقل الافكار فقط ، بل هي الى جانب تاديتها هذه الوظيفة الاساسية ، غاية بنفسها ، او هي اداة الخلق الفني ، لا تلتزم احياناً الاطار اللغوي الشائع . ولو اتبع الشاعر التركيب اللغوي الاعتيادي لكان كلامه نوعاً من التقليد البحت ، او شكلًا من اشكال الكلام الذي يفتقر الى الاساس الاول الذي يبني عليه اي خلق ادبي ، وهو رؤية الفنان الذاتية ، وقدرته الخاصة على صياغة اثره الفني في صورة جديدة ، تدهش القارىء ، وتلفت ، انتباهه الى عبقرية الشاعر في تعامله مع اللغة .

فاللغة عند الشاعر الحق – في بعض الاحيان – تتخذ اشكالًا غير التي يتداولها الناس ويتواصلون بها ، فلا نجد فيها الفاظاً كثر استخدامها حتى بليت ، وامحت معالمها ، وبهتت ظلالها ، فلم تعد تقدر على تحريك او اثارة . ولاتحكم تلك اللغة غالباً علاقات وارتباطات عامة الفها الناس ، وسكنوا اليها ، حتى استحالت الى مايشبه الاصطلاحات الجامدة . ان مهمة

الشاعر احياناً في اقامة علاقات جديدة بين الالفاظ ، وابتداع سياق لغوي مملوء بالايحاء.[19]

ياتي الشاعر المبدع الى الكلمة ، وهي اداة عادية ، فيجعلها تدل دلالة غير مالوفة ، واول ما يلجا اليه ليجعل الكلمة العادية غير عادية هو ان يستعملها بارتباط غير مالوف.[20] وكان ابو تمام مولعاً لهذا النحو من التصرف في اللغة . وسياتي بيان ذلك .

اولا : لغة الشعر عند ابي تمام من منظار نقدي

١

المفردات

لقد عرض النقدا لغة ابي تمام على ضربين من المقاييس ، فنظروا في لغته في ضوء مقاييس الجودة والرداءة ، فحكموا لبعض مفرداته وتراكيبه بالجودة ، وحكموا على اخرى بالرداءة . ونظروا في لغته مرة اخرى في ضوء قواعد اللغة وقوانينها ، فحكموا على بعض مفرداته وتراكيبه بمخالفة تلك القواعد والقوانين ، وسنشير في هذا البحث الى ما تمخض عنه كلا النظرين من نتائج واحكام بادئين بما اسفر عنه نقد لغة ابي تمام في ضوء مقاييس الجودة والرداءة ، وعاطفين على ذلك بما نجم عن النظر في لغته بمقتضى مقاييس الخطأ والصواب .

الصيغة او البناء :

من المعروف ان الذوق العربي يستحلي اللفظ القليل الاحرف ، فيديره في الكلام ، ويكثر منه في الاستعمال ، كما يستثقل اللفظ الطويل ، وينفر منه . واللفظة العربية لا تزيد في اقصى حالات طولها على سبعة احرف ، اما المفردات التي تزيد حروفها على ذلك فقد عدوها دخيلة ، او مقحمة مصنوعة ، لم ينطق بها العرب .

وقد نظر النقاد الى صيغة الكلمة او بنائها ، واتخذوه مقياساً من مقاييس الجودة والرداءة ، او المفاضلة بين المفردات . فاشترط ابن سنان الخفاجي ان تكون الكلمة الفصيحة « معتدلة غير كثيرة الحروف ، فانها متى ما زادت على الامثلة المعتادة المعروفة قبحت ، وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة ».[21] وبمقتضى هذا المقياس عاب ابن سنان على ابي تمام قوله :

فـلاذربيجـان اختيـال بعـدمـا كـانـت معـرس عبـرة ونكـال
سمجتْ ونبهنا على استسماجها مـاحـولهـا من نضرة وجمـال

فقال : « فقوله : فلاذربيجان كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها ، وهي غير عربية ، ولكن هذا وجه قبحها . وكذلك قوله في البيت الثاني : استسماجها رديء لكثرة الحروف ، وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الالفاظ الى الشاذ النادر ».[22] وعاب ابن سنان ايضاً قول ابي تمام :

أبلَـهُ باستمـاعكـهُ محـلّاً يفوت علوه الطرف الطموحا

فقال : « فليس يقبح قوله (باستماعكه) خفاء ، لكثرة الحروف على ماذكرناه لا غير ».[23] وعاب ابن سنان كذلك قول ابي تمام :

العيس تعلم ان حوباواتها ريح اذا بلغتك ان لم تُنْحر

فقال ابن سنان : « وحوباواتها كلمة طويلة ».[24] ويخالف ابن الاثير ابن سنان في هذا المقياس من مقاييس نقد الالفاظ ، فقد ذهب الى ان الطول لا يوجب دائماً قبح اللفظة ، واستدل على ذلك بان في القرآن الكريم الفاظاً طوالاً ، وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى (فسيكفيكهم الله) وقوله : (ليستخلفنهم في الارض) ، وانتهى ابن الاثير الى ان الطول الناجم عن الزيادة على الاصول غير قبيح في بعض الاحيان ، اما الطول الناجم عن كثرة الحروف الاصول فهو قبيح . وعلى هذا الاساس استنكر ابن الاثير كلمة (جحمرش) و (صهصلق) ، وهما من الخماسي المجرد ، ولم يستقبح كلمة (فسيكفيكهم) وكلمة (ليستخلفنهم) لان الطول فيهما ليس اصلاً وانما هو طارىء عليها بسبب حروف وضمائر لحقت بهما ، وهما أصلاً من البناء الثلاثي.[25]

ومما يتعلق بهذا المقياس ان الكلمة تحسن احياناً اذا كانت مفردة ، فاذا جمعت او ثنيت قبحت ، واستحقت الاطراح . ومن الامثلة على ذلك ان كلمة (اخدع) وردت في بيتين فكانت في احدهما مستملحة رائعة ، وكانت في الاخرى ثقيلة مستكرهة . قال الصمة بن عبد الله :

تلفت نحـو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتاً واخدعا

وقال ابو تمام :

يادهر قوم من اخدعيك فقد اضججت هذا الانام من خرقك

فعلق ابن الاثير على البيتين بقوله : « الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من الثقل على السمع والكراهية في النفس اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة والايناس والبهجة ، وليس سبب ذلك الا انها جاءت

موحدة في احدهما مثناة في الاخر ، وكانت حسنة في حال الافراد مستكرهة في حالة التثنية ، والا فاللفظة واحدة ، وانما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى » .[٢٦]

واذا كانت (اخدع) جاءت معيبة في شعر ابي تمام لانها وردت مثناة فيه ، فان كلمة (صوف) عابها بعض النقاد لانها جاءت مفردة في قول ابي تمام :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا   فكأنما لبس الزمان الصوفا

نقل ابن الاثير عن بعض النقاد انهم عابوا كلمة (الصوف) ، وذكروا ان سبب عيبها وقوعها مفردة في شعر ابي تمام ، على حين وقعت مجموعة في قولة تعالى : (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها وأوبارها واشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين) .[٢٧] فرد ابن الاثير على عائبي لفظة ابي تمام رداً مقنعاً ، لانه كشف عن موطن العيب في الكلمة فرده لا الى كونها مفردة او مجموعة ، وانما لانها جاءت مجازية في نسبتها الى الزمان .[٢٨]

وعاب عبد القاهر الجرجاني كلمة اخرى لابي تمام بسبب صيغتها او وزنها ، فقد استحسن هذا الناقد الفعل (حاك) الذي استعمله البحتري في قوله :

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق   وحاك ما حاك من وشي وديباج

ولكنه استقبح ان يورد أبو تمام اسم فاعل منه فيقول :

انا الغيث غادي نسجه خلت انه   خلت حقب حرس له وهو حائك

فذهب عبد القاهر الى ان لفظة (حائك) في غاية القبح والركاكة ، والذي قاله البحتري (وحاك ما حاك) حسن .[٢٩]

الغريب :

لقد عاب النقاد الغرابة في المفردات ، وعدوها مخلة بفصاحة الكلام ، واذا استثنينا اللغويين الذين شجعوا الغريب ، رغبة في جمع اللغة ، وبحثاً عن الشاهد ، فان اكثر النقاد انحازوا الى السهولة ، وظل ذلك ديدنهم . ومما لفت نظر النقاد في شعر ابي تمام غرام هذا الشاعر بالغريب ، وجريه وراء النادر من الصيغ والكلمات ، فعابوا ذلك عليه ، غير ان الامدي لم يعب الغريب دائماً ، بل كان يعيبه اذا ابتدأ الشاعر قصيدته به ، او اكثر منه في القصيدة الواحدة ، وجعله متجاوراً متلاحقاً ، لا ينفصل بعضه عن بعض بالفاظ واضحة سهلة . وكان الغريب ـ عدا ذلك ـ نوعين عند الامدي : الغريب الذي يقرب على الحضر وحدهم ، والغريب الذي يغرب على البدو أنفسهم ، وسمى هذا الضرب من الغريب بالوحشي . وقد سمح الشاعر بان ياتي بالضرب الاول استعانة به ، او اظهاراً لثقافته اللغوية ، على الا يكون في ابتداء القصيدة ، والا يتجاوز او يتلاحق . وقد تجلىّ موقف الامدي هذا في تعليقه على الالفاظ الغريبة التي ضمها احد مطالع ابي تمام وهو

قَدْكَ اتئبْ أربيتَ في الغُلواء

قال الامدي : « وزاد هذه الالفاظ هجنة انها ابتداء قصيدة » .[٣٠] وقال في موضع آخر : « وأما قوله (قدك اتئب اربيت في الغلواء) فانها الفاظ صحيحة فصيحة من الفاظ العرب ، مستعملة في نظمهم ونثرهم ، وليست من متعسف الفاظهم ، ولا وحشي كلامهم ، ولكن العلماء بالشعر انكروا عليه ان جمعها في مصراع واحد ، وجعلها ابتداء قصيدة ، ولم يفرق بينها بفواصل » .[٣١] وقال حيناً آخر « فمن شان الشاعر الحضري ان ياتي في شعره بالالفاظ العربية المستعملة في كلام الحاضرة ، فان اختار ان ياتي بما لا يستعمله اهل الحضر فمن سبيله ان يجعله من المستعمل في كلام اهل البدو دون الوحشي الذي يقل استعمالهم اياه ، وان يجعله متفرقاً في تضاعيف الفاظه ، ويضعه في مواضعه ، فيكون قد اتسع مجاله بالاستعانة به ، ودل على فصاحته وعلمه ، وتخلص من الهجنة » .[٣٢]

ومن غريب مفردات ابي تمام قوله :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه   بلا طائر سعد ولا طائر كهل

الذي علق ابن سنان عليه قائلاً : « فان كهلاً ها هنا من غريب اللغة ، وقد روي ان الاصمعي لم يعرف هذه الكلمة ... وقد قيل ان الكهل الضخم . وكهل لفظة ليست قبيحة التأليف ولكنها وحشية غريبة ، لا يعرفها مثل الاصمعي » .[٣٣]

وعاب ابن سنان على ابي تمام كلمة (صهصلق) ووصفها بالوعورة ، وكانت قد جاءت في قوله :

صهصلق في الصهيل تحسبه   أشرج حلقومه على جرس[٣٤]

ولم يلفت الغريب في شعر ابي تمام نظر الامدي وابن سنان وحدهما ، بل لفت نظر ابن الاثير كذلك ، فوقف عند قوله :

قد قلت لما اطلخمّ الأمرّ وانبعثت   عشـواء تاليـة غُبْسـاً دهاريسا[٣٥]

وعلق عليه قائلاً : « فلفظة اطلخم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في انها غريبة وانها غليظة في السمع ، كريهة على الذوق ، وكذلك لفظة دهاريس » .[٣٦]

ومن غريب ابي تمام قوله :

كم من دم يُعجزُ الجيش اللُّهام اذا   بانوا ستحكم فيه العِرْمِسُ الأُجُدُ

يريد ان الجيش كان يعجز عن قتل هذا المحب ، فقتلته العرمس الأجد ، اي الناقة القوية الموثقة الخلق ، لانها حملت محبوبته .

ومن المفردات التي تعد نادرة وغريبة جمع ابي تمام (الوحيد) على (وحاد) في قوله :

كان في الاجفَلى وفي النَّقرى عُرْ ... فُـك نَضْر الـوحـاد

قال المعري : « الوحاد جمع وحيد مثل كريم وكرام ، يقول : كان عُرفك نضراً في العموم والوحاد » .[٣٧]

تلاؤم اللفظ والمعنى :

وهذا مقياس اخر احتكم نقاد ابي تمام اليه ليعرفوا جودة مفرداته او رداءتها ، والنقاد اذ يطلقون كلمة (المعنى) فانما يريدون بها في الغالب (الغرض) او (المقصد) او مايريد المتكلم ان يثبته او ينفيه من الكلام .[٣٨] والمعنى بهذا الاستخدام يرادف عندهم (الفكرة) العامة المجردة التي يتفنن المنشيء في صوغها ، ثم يستخلصها المتلقي من مجموع ما قاله الشاعر[٣٩] ومن هنا جعل النقاد ان من مقاييس جودة الكلمة ان تلائم المعنى الذي تكفلت هي وما يجاورها بابرازه والتعبير عنه . وقد كان الجاحظ من اوائل النقاد الذين قرروا ملاءمة اللفظ للمعنى في مواضع كثيرة من كتبه ، منها قوله : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء ، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل »[٤٠] وقال ابن طباطبا : « وللمعاني الفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها »[٤١] . ولم يخرج قدامة عن ذلك حين قال : « ولما كان المذهب في الغزل انما هو الرقة واللطافة والشكل والدماثة ، كان مما يحتاج فيه ان تكون الالفاظ لطيفة مستعذبة ، مقبولة غير مستكرهة ، فاذا كانت جاسية كان ذلك عيباً . الا انه لما لم يكن عيباً على الاطلاق امكن ان يكون حسناً ، اذ كان قد يحتاج الى الخشونة في مواضع مثل ذكر البسالة والنجدة والباس والرهبة » .[٤٢]

واما ابن سنان الخفاجي فقد رسَّخ هذا المقياس من مقاييس نقد المفردة الشعرية فرأى ان على الشاعر « الا يعبر عن المدح بالالفاظ المستعملة في الذم ولا في الذم بالالفاظ المعروفة في المدح ، بل يستعمل في جميع الاغراض الالفاظ اللائقة بذلك الغرض ، في موضع الجد الفاظه وفي موضع الهزل الفاظه »[٤٣]

وفي لغة ابي تمام مفردات تخرج عن هذا المقياس النقدي ، من ذلك انه نقل الفاظاً من مجالها الذي تستعمل فيه ، وساقها في مجال آخر يستدعي الفاظاً اخرى ، تكون الصق به ، واكثر تآلفاً معه . فلفظتا (يهذي) و (محموم) اللتان وردتا في قول ابي تمام مادحاً :

مازال يهذي بالمكارم دائبا ... حتى ظننا أنـه محمـوم

مجالهما الذم ، فاذا استعملهما ابو تمام في معرض المدح ، ونعت بهما من يمدحه ، فقد صدم بذلك الذوق العام ، وخرج عما الف هذا الذوق من الفاظ كريمة ، تناسب المديح ، وتنسجم مع شعور المادح ، وهو شعور اعجاب واكبار في الغالب .[٤٤]

وكلمة (شيطان) لا موضع لها بين الكلمات التي درج الشعراء على ان ينعتوا بها ممدوحيهم ، فاذا استعملها ابو تمام صفة لاحد ممدوحيه فقال :

وتشقى الحروب منه حين تغلي ... مـراجلها بشيطـان رجيم

فانه يعاب بذلك ويعد مجانباً للفظ الجيد او المختار .[٤٥]

ومما يعد من الالفاظ موضوعاً في غير موضعه ، ومنقولاً الى مجال المدح ، وهو بمجال الهجو الصق ، قول ابي تمام مادحاً :

سعى فـاستنزل الشرف اقتسـاراً ... ولـولا السعي لم تكن المساعي

الذي علق عليه الامدي قائلاً : « قوله (سعى فاستنزل الشرف اقتسارا) ليس بالمعنى الجيد ، بل هو عندي هجاء مصرح به ، لانه اذا استنزل الشرف فقد صار غير شريف ، وذلك أنك اذا ذممت رجلاً شريفاً ، شريف الاباء كان ابلغ ما تذمه به ان تقول : قد حططت شرفك ووضعت من شرفك ، وقد وكد بقوله (اقتساراً) » .[٤٦]

وقوله يمدح الافشين في وقعة هزم بها بابك ، فيشبه الافشين بالتينين ، وما سمع احد من الشعراء شبه به ممدوحاً .[٤٧]

ولَّى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ ... حث النجاء وخلفه التينين

وقول ابي تمام مادحاً ايضاً :

يأبا جعفر جُعلت فداكا ... فاق حسن الوجوه حسنُ قفاكا

و (القفا) من الالفاظ التي تستعمل في الذم ، وليست من الفاظ المدح .[٤٨]

ومن الالفاظ التي لا تليق بالغزل كلمة (ملطومة) التي جاءت في قوله :

ملطومة بالورد أطلق طرفُها ... في الخلق فهو مع المنون مُحكَّمُ

وقد علق الامدي على هذا البيت قائلاً : « وقوله (ملطومة بالورد) يريد حمرة خدها ، فلم لم يقل : مصفوعة بالقار ويريد سواد شعرها ، ومخبوطة بالشحم يريد امتلاء لجسمها ، ومضروبة بالقطن يريد بياضها ؟ ان هذا لاحمق ما يكون من اللفظ وأسخفه وأوسخه » .[٤٩]

ومن ذلك قوله في الغزل ايضاً :

إن تضرعتُ بنطـق فحُمَـاداهُ السكـوتُ

فكلمة (حُمأداه) اي غايته « وهي لفظة كريهة في

معرض النسيب كان يمكنه ان يضع موضعها (قصاراه) »[٥٠]

الدقة :

ومن مقاييس نقد الالفاظ (الدقة) ، واللفظ الدقيق عند النقاد هو الذي يؤدي المعنى المراد ولا يصلح غيره لان يوضع موضعه ، ولا شك في أن الوقوع على اللفظ الدقيق مهمة صعبة لا يقدر عليها الا من عرف اللغة معرفة واسعة ، ووقف على ما بين المفردات من فروق دقيقة . وقد أحس اللغويون منذ وقت مبكر بصعوبة هذا الامر ، فندبوا أنفسهم لتاليف الكتب الخاصة بالالفاظ ، وأودعوا تلك الكتب مابين الالفاظ المتقاربة من فروق ، مثل (الالفاظ الكتابية) للهمذاني ، و (الفروق اللغوية) للعسكري و (فقه اللغة) للثعالبي وغير ذلك .[٥١]

ومع ان ابا تمام واسع الاطلاع على اللغة ، لم يختر اللفظ الدقيق حين قال :

ديمه سَمْحة القياد سكوبٌ مستغيث بها الثرى المكروبُ

ذلك لان « الثرى لا يستغيث بالديمة ، ولا يتلهف الى مائها ، إلا اذا كان جافاً يابساً ، واذا كان كذلك فهو ليس ثرى وانما هو تراب »[٥٢]

وأخطأ أبو تمام اللفظ الدقيق في قوله :

ضعفت جوانح من اذاقته النوى طعم الفراق فذم طعم الملقم

قال الامدي : « قوله (ضعفت) دعاء عليها ، اي أضعف الله جوانح من اذاقته النوى طعم الفراق فذم طعم الملقم ، والجوانح هي الاضلاع الصغار في الصدر ، التي تلي الفؤاد ، الواحدة جانحة ، فكأنه يدعو عليه ان تضعف عن حمل حرارة الشوق ، وحرق الفراق ، ان كان صاحبها قد ذاق طعم الفراق وعلم مرارته فذم طعم الملقم . و (ضعفت) كلام ضعيف في هذا الغرض جداً ، و (أضعف الله) لو كان استقام له ان يقولها أحسن وابلغ من (ضعفت) . وعلى أنه كلام لا يشبه بعضه بعضاً ، و (حواس) ههنا أحسن والبق وأشبه من (جوانح) لانه ذكر الطعم فكانت الحواس مع الطعم لفظاً يشبه لفظاً ، ومعنى يشبه معنى »[٥٣] ثم قال : « واظنه لو استوى له ذكر الحواس في البيت لما عدل عنه »[٥٤].

ولم تكن (الخد) هي الكلمة الدقيقة في قول ابي تمام :

لو صحح الدمع لي أو ناصح الكمد للقا صحبتاك الخد والكبد

وقد علق عليه الامدي قائلاً : « وهذا بيت صالح وليس بالجيد ولم يستو له ان يقول (العين والكبد) لانهما مؤنثتان فكان يقول : (صحبتاك) ، فجعل مكان (العين) (الخد) ، لانه مذكر ولان كثرة البكاء تؤثر فيه ، وتذهب بلحمه ، وذهاب العين بالبكاء اخص من ذهاب الخد . ولو قال : (صحباك العين والكبد) لكان ذلك سائغاً ، ولو كانتا مؤنثتين لان هذا يجوز فيما ليس لتانيثه حقيقة »[٥٥].

ولم تكن (ألفته) هي اللفظة الدقيقة في قول ابي تمام ايضاً :

ملَّكته الصِّبا الولوع فـالـف ـتْهُ قعُود البلى وسؤر الخطوب

قال الامدي : « وقوله (ألفته) ليس هذا موضع (ألفته) لان معنى (ألفته) صادفته ، واذا كانت الريح هي التي حلت بالربع فوجه الكلام (جعلته) لو استوى له ، لا (ألفته) ، واذا لم يستقم له (جعلته) ولا ما هو في معناها نقض البيت باسره ، وبناه بالفاظ أخر . وكأنه اراد ان يقول : قعود البلى وهدفاً للخطوب ، او غرضنا للخطوب ، اي تقع به ابداً وتصيبه ، فلم ينتظم له الوزن »[٥٦].

واخطأ ابو تمام الكلمة الدقيقة في قوله :

عطفوا الخدور على البدور ووكّلوا ظُلَم الستور بنور حُور نُهَّدِ

وثنوا على وشي الخدود صيانة وشي البرود بمسجف ومُمهَّدِ

فقوله : بمسجف وممهد فالمسجف يريد به الحَجَلة وكل ستر مشقوق ، وكل شق منها سجف ، والمهد الوطاء الذي يوطأ تحت المرأة ، واذا كان الامر كذلك فكيف يعطف (الممهد) على (السجف) الذي ذكر انهم ثنوه على وشي الخدود ؟ وقد حاول الامدي ان يجد لابي تمام عذراً في عطف (الممهد) على (السجف) فقال : « فان قيل يكون محمولاً على قول الشاعر :

ورأيت زوجـك في الـوغى متقلـداً سيفـاً ورمحـاً

والرمح لا يتقلد ، وقول الاخر : (وزججن الحواجب والعيونا) والعيون لا تزجج ، وانما اراد ذلك متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً ، واراد هذا وزججن الحواجب وكحلن العيون ، قيل : متقلد السيف هو حامله ايضاً فحسن ان يعطف الرمح على السيف لانهما جميعاً محمولان ، وكذلك زججن وكحلن هما جميعاً زينة فحسن عطف احدهما على الاخر . والممهد لا يشرك الستر في شيء من تغطية الوجه ولا صيانته ، ولا بنيت الفاظ البيت الاعلى ستر الخدود بالستور ، ولا يتعلق الممهد بالمعنى باضمار لفظ ولا غيره »[٥٧].

الإفادة :

و (الافادة) مقياس آخر من مقاييس نقد الالفاظ ، يرجع اليه النقاد لبيان جودة الكلمة او رداءتها . ونعني بـ(الافادة) ان تفيد الكلمة معنى جديداً لم تفده الكلمات الاخرى ، فيكون لها تبعاً لذلك قيمة واضحة في السياق ، لا ان تكون مقحمة فيه ، لا تسهم في اغنائه ، ولا تضيف جديداً اليه .

وبهذا المقياس حكم النقاد على طائفة من مفردات ابي تمام، فرأوا انها زائدة، او حشو يمكن اسقاطه من الكلام، دون ان يختل معناه. ويبدو ان النقاد فرقوا بين الكلمات المقحمة في الشعر فسموا ما يقع منها في اثناء البيت (حشواً) وسموا ما يقع منها قافية (استدعاء)، وهما من عيوب الشعر.[58]

ومن الالفاظ التي عدت حشواً في شعر ابي تمام قوله:

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى
والليل اسود حالك الجلباب

فقوله: « الدجى حشو لان في القسم الثاني ما يدل عليه ».[59]

ومن الالفاظ التي عدت (استدعاء) في شعر ابي تمام قوله:

كالظبية الأدماء صافت فارتعت زهر العرار الغض والجثجاثا

وقد نقده العسكري فقال: « ليس في وصف الظبية انها ترتعي الجثجاث فائدة وسواء رعت الجثجاث او الثلام او غير ذلك من النبت، واذا قصد نعت الظبية بزيادة حسن قيل انها تعطو الشجر لانها حينئذ ترفع رأسها فيطول جيدها وتظهر محاسنها ».[60] وكان قدامة قد عرض لهذا البيت ايضاً فعابه لورود كلمة (الجثجاث) فيه زائدة استدعتها القافية.[61]

ومما عُد حشواً في شعر ابي تمام قوله:

جنبت نداه غدوة السبت جنبة فخر صريعاً بين ايدي القصائد

قال ابن سنان: « ان قوله: « غدوة السبت حشو لايحتاج اليه ولا تقع فائدة في ذكره، ومن ذا الذي يؤثر ان يعلم اليوم الذي اعطى الممدوح فيه أبا تمام ».[62]

وارى ان هذا تجن من ابن سنان، فاذا كان هو لا يهمه اليوم الذي قابل فيه الشاعر الممدوح، فان ذلك اليوم يعني ابا تمام، وقد يكون عنده يوماً مشهوداً لا ينساه، لانه حظي فيه بلقاء كان قد عقد عليه امالاً، وحدث به النفس طويلاً. واذا علمنا ان الشعراء كان يحجبون بابواب الممدوحين اياماً، يتعوضون فيها لالام شتى،[63] ادركنا مبلغ اهمية اليوم الذي يؤذن فيه للشاعر في لقاء الممدوح.

ومما عيب على ابي تمام بسبب ما عده بعض النقاد كلاماً غير مفيد قوله:

تغدو الرياح سوافياً وعوافيا فتضيم مغناها وليس تضيمها

قال الامدي: « وقوله: فتضيم مغناها يعني الرياح انها تضيم المغنى وليس يضيمها، وهذا ايضاً معنى ليست له حلاوة، ولا يقود الى فائدة لان المعلوم ان الارض لا تضيم الريح ».[64]

وارى ان الامدي ليس على حق في عده قول ابي تمام (وليس يضيمها) لغواً لافائدة فيه، لان الشاعر اراد بهذا ان يشير الى جبروت الريح، وطغيانها على المغنى، وقيام المغنى ازاءها عاجزاً ذليلاً، يتلقى ضيمها له، ثم يقصر عن دفعه، او النيل من سببه.

ومما عيب على ابي تمام من مفردات فرضتها القافية، ولم تأت لاغناء المعنى، او اضافة جديد اليه قوله:

مهاة النقا لولا الشوى والمآبض وإن محض الاعراض لي منك ماحض[65]

قال الامدي: « وقوله: والمآبض عيّ منه ولكنة واراد القافية ».[66]

وقريب من هذا الباب، اي اجتلاب الالفاظ لاقامة القافية او الوفاء بالوزن، ان تقسر الكلمة على مكانها لسبب آخر هو تحقيق فن من فنون البديع التي اغري بها ابو تمام، وجعلها غايته وبغيته. من ذلك قول ابي تمام:

فاضحى الفلا قد جدّ في بَرْي نَحْضه
وكان زماناً قبل ذلك يلاعبه

قال الامدي: « وقوله يلاعبه لفظة ضعيفة المعنى، وانما جاء بها من اجل قوله: (جدّ) في بري نحضه، ليطابق بين الجد واللعب، اي ان الفلا جد في اخذ لحمه في سحبنا هذا السير، فجعل مكان هذا القول (وكان زماناً قبل ذلك يلاعبه) على مذهبه في عشق الطباق الذي لابد له من ان ياتي به، وان حصل المعنى معه ضعيفاً ركيكاً وربما محالاً ».[67] وقوله:

فاسلمْ سلمت من الآفات ما سلمتْ سِلامُ سلمى ومهما أورق السَلَمُ

قال الامدي: « فان هذا من كلام المبر سمين، وقد عابه عبد الله بن المعتز ببعض هذه الابيات في كتاب البديع، جاء بها في قبح التجسيس ».[68]

الاشتراك:

نظر النقاد العرب الى المفردات في ضوء مقياس آخر، فذهبوا الى ان الكلمة المشتركة المعنى، اي التي تدل على معان عدة، لا تكون جيدة إلا اذا صاحبتها قرينة توضح المقصود بها.[69] وعلق ابن الاثير على قوله تعالى: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون): « ألا ترى ان لفظة التعزيز مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام، وعلى الضرب الذي هو دون الحد، وتلك هو نوع من الهوان، وهما معنيان ضدان، فحيث وردت في الاية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصت معناها بالحسن وميزته عن (كذا) القبيح، ولو وردت مهملة بغير قرينة واريد بها المعنى الحسن لسبق الى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح. مثال ذلك لو قال قائل: لقيت فلاناً فعزرته لسبق الى

الوهم انه ضربه وأهانه ، ولو قال : لقيت فلاناً فاكرمته وعزرته لزال ذلك اللبس » .[٧٠]

ولكلمة (عقل) معنيان : احدهما معروف والاخر الدية ، الا ان استعمالها بالمعنى الثاني قليل ، واليه قصد ابو تمام حين قال :

أعطيت لي دية القتيل وليس لي
عقل ولا حق عليك قديم

وقد عاب ابن الاثير على ابي تمام استعمال كلمة (عقل) دون قرينة تحدد المراد بها ، قال : « فقوله : ليس لي عقل يظن انه من عقل الشيء اذا علمه ، ولو قال : ليس لي عليك عقل لزال اللبس» .[٧١]

ومن المشترك الذي عيب على ابي تمام قوله :

متفجرٌ نادمته فكأنني للدلو او للمرزمَين نديم

قال ابن سنان :[٧٢] « فالدلو ها هنا احد البروج ، ولا اختاره لموافقته اسم الدلو المعروف » وهناك ضرب آخر من الالفاظ المشتركة ، وهي التي اكتسبت مع الزمن دلالة قبيحة ، واصبح النطق بتلك الالفاظ مثيراً لتلك الدلالات في نفوس سامعيها . وقد عاب النقاد هذه الالفاظ ، ونصحوا بالتباعد عنها ، ومن الامثلة عليها (الغائط) التي وردت في قول عمرو ابن معد يكرب :

وكم من غائط من دون سلمى قليل الانس ليس به كتيع

ذلك لانها كانت تعني البطن من الارض ، ثم صارت تطلق على الحدث .[٧٣] وأرى أن عمرو بن معد يكرب غير ملوم على استعمال هذه اللفظة لانها لم تكن في عصره مستعملة بالمعنى المستقبح الذي ذكرناه . وكلمة (الادبار) التي جاءت في قول ابي تمام :

وعزائما في الروع معتصمية ميمونة الادبار والاقبال

كلمة غير مرضية لانها اقترنت بمعنى مكروه .[٧٤]

الاصطلاحات :

ونعني بها الالفاظ التي اصطنعها اهل العلوم المختلفة للدلالة على معانيهم ، وهي الفاظ نقلوها من معانيها المعروفة ، وصاروا يطلقونها على ما استنبطوه من معان ، ووقفوا عليه من حقائق .

وعلى هذا فالمصطلح كلمة « لها معنى لغوي يفهمه الناس عامة ومعنى آخر لا يفهمه الا اهل ذلك العلم » .[٧٥] الذي استعملت فيه الكلمة . فاذا قلنا مثلاً : (فاعل) فان هذه الكلمة « تدل بمعناها اللغوي على من قام بفعل من الافعال ، على حين هي في عرف النحويين الاسم المرفوع المسند اليه فعل على طريقة فعل او شبهه ، ولفظة (الخبر) معروفة بمعناها اللغوي ، وهي في عرف النحويين الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة ، وهكذا الامر في الفاظ العلوم الاخرى » .[٧٦]

وحين نشطت حركة العلوم في العصر العباسي ، ووضعت اعداد كبيرة من المصطلحات في مختلف العلوم تسرب بعض تلك المصطلحات الى لغة الشعر ، وجرت على اقلام المنشئين ، فتصدى النقاد لهذه الظاهرة ، وعابوا غزو الفاظ العلم للغة الادب . وكان حازم القرطاجني قد عرض لهذا الموضوع فانضم الى النقاد الذين يدعون الى تنقية لغة الادب من المصطلحات العلمية فقال : « ان البصراء بهذه الصناعة كابي الفرج قدامة واضرابه قد نص جميعهم على قبح ايراد المعاني العلمية والصناعية والعبارات المصطلح عليها ، ونهوا عن ايراد جميع ذلك في الشعر » .[٧٧] وقال :[٧٨] « ان مستعمل هذه المعاني العلمية في شعره يسيء الاختيار » . ومن هنا عاب ابن سنان قول ابي تمام :

مودة ذهبٌ أثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

« لان الجوهر والعرض من الفاظ اهل الكلام الخاصة بهم » .[٧٩] ومن ذلك قوله :

كم في الندى لك والمعروف من بدع اذا تُصفِّحت اختيرت على السنن

« فقد ذكر البدع والسنن وهما من الفاظ الفقهاء » .[٨٠]

ومن هذا الباب قوله في الخمر :

خرقاء يلعب بالمعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء

« فقد تكلف لذكر الافعال والاسماء كانه من اصحاب النحو » .[٨١] ومنه قوله :

لن ينال العُلا خصوصاً من الفتيان من لم يكن نداه عموماً

« فقد ذكر الخصوص والعموم وهما من الفاظ المناطقة » .[٨٢] ومنه قوله :

فَتى من له شيء يريد حجابه ما بالُ لا شيء عليه حجاب

لقد « عبر عن العدم بكلمة لاشيء وهي من كلام الفلسفة » .[٨٣]

غير ان ابن الاثير خالف النقاد القائلين باستبعاد الفاظ العلوم من لغة الادب ، وقبل الالفاظ التي ردها ابن سنان وغيره ، فقال راداً على ابن سنان : « شذ عنه ان صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة لانها موضوعة على الخوض في كل معنى ، وهذا لا ضابط له يضبطه ،

ولا حاصر يحصره ، فاذا اخذ مؤلف الشعر او الكلام المنثور في صوغ معنى من المعاني واداه ذلك الى استعمال معنى فقهي او نحوي او حسابي او غير ذلك فليس له ان يتركه ويحيد عنه ، لانه من مقتضيات هذا المعنى الذي يقصده ، الا ترى الى قول ابي تمام في الاعتذار :

فان يك جرم عنّ اوتك هفوة   على خطأ مني فعذري على عمد

فان هذا من أحسن ما يجيء في باب الاعتذار من الذنب ، وكان ينبغي له على ما ذكر ابن سنان ان يترك ذلك ولا يستعمله حيث (كذا) فيه لفظتا (الخطأ) و (العمد) اللتان هما من اخص الفاظ الفقهاء . وكذلك قول ابي الطيب المتنبي :

ولقيت كل الفاضلين كانما   ردّ الاله نفوسهم والاعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدماً
واتى فذلك اذ أتيت مؤخرا

فاختلاف النسج اذن احد ما نعي على ابي تمام ، فقال المبرد : « وشعر البحتري احسن استواء ، وابو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذي أعجب الى الاصمعي ، وما أشبه ابا تمام إلا بغائص يخرج الدر والمُخْشلبة »[108]. وبمعنى آخر ان شعر ابي تمام « كان يرتفع احياناً حتى يصل اله ذروة الفن في جودته ، وينخفض احياناً حتى يصل الى الحضيض في رداءته »[109]. وقد اعترف البحتري نفسه بهذه الحقيقة فقال عن ابي تمام : « جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه »[110]. وأقر الامدي بذلك فقال :[111] « جيد ابي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ، ورديه مطّرح مرذول ، فلهذا كان مختلفاً لا يتشابه » ويبدو ان هذه الفكرة ظلت مسيطرة على ذهن الامدي ، فكان اذا ظفر بجيد ابي تمام أشاد به ، واذا وقع على رديئه عابه ، وشنّع عليه .

٣

مجازات ابي تمام

مرّ بنا في التمهيد ان الاستخدام الفني للغة يقتضي ان يستعمل الاديب الالفاظ بارتباطات جديدة ، او ان ينشيء بين الكلمات علاقات لم يتعارفها الناس ، ولم يسكنوا اليها في لغتهم المألوفة ، وأشرنا هناك ايضاً الى ان ابا تمام كان مولعاً بهذا النحو من الاستخدام للغة ، مُغرى بالابتعاد عما ألف الناس ، فكان هذا ابرز سمات مذهبه الجديد ، واهم ما استوقف النقاد ، واثار جدالهم حول فنه .

فاكثر النقاد الذين عرضوا لشعر ابي تمام وقر في نفوسهم ان اللغة تتمثل في مجموعة « الفاظ » وضعها العرب ليعبروا بها عن مقاصدهم واغراضهم ، وهي عندهم نوعان : الفاظ حقيقية وضعت في الاصل للدلالة على مسميات معينة ، فاذا ذكرت تلك الالفاظ تمثلت مسمياتها في الذهن ، والفاظ مجازية انتقلت دلالاتها الاصلية الى دلالات اخرى بينها وبين الدلالات الاولى علاقة . وعلى هذا الاساس فان المتكلم إما ان يستخدم اللغة استخداماً حقيقياً ، واما ان يستخدمها استخداماً مجازياً ، الا ان المفضل في الادب ـ كما مرّ في التمهيد ـ هو الاستخدام الثاني . والمتكلم في كلتا الحالين محكوم في نظر جمهرة من نقاد ابي تمام بالعرف اللغوي ، وليس له ان يخل به ، او يحيد عنه ، فيستعمل الالفاظ في غير ما وضعت له ، او يخرج بها الى دلالات لايوجد بينها وبين الدلالات الاولى ضرب من مناسبة ، او نوع من علاقة . فكما ان الشاعر غير حرّ في الاستخدام الحقيقي للغة ، فلا يحق له ان يغير دلالات الالفاظ ، او يعبر بها عما لم يتقرر في العرف اللغوي ، فكذلك هو غير حر في الاستخدام المجازي ايضاً ، بل « إن عليه ان يرتبط بنوع خاص من العلاقات حددها اسلافه من قبل ، وأي خروج على هذه العلاقات المجازية المحددة سلفاً ، لايعد خروجاً على التقاليد والنظام اللغوي فحسب ، بل يعد خروجاً على قواعد العقل ، وعناصر الواقع الثابتة ايضاً »[112].

ومعنى هذا ان العرب جرت على ان تستعير بعض الالفاظ لتدل بها على معان اخرى غير المعاني المقررة لها ، او الموضوعة بازائها ، وما على المتكلم الا ان يتابعهم في ذلك ، فهم استعاروا « الاسد » للرجل الشجاع ، واستعاروا « النور » للعلم واستعاروا « الحمار » للرجل البليد ، فاذا اراد شاعر ان يستعمل هذه الالفاظ استعمالاً مجازياً آخر ، او يطلقها على معان غير هذه ، رُفض استعماله ، وحُكم عليه بالخطأ ، وعلى هذا عيب قول الشاعر :

بل لو رأتني اخت جيراننا   اذ انا في الدار كأني حمار

لانه استعمل « حمار » ليدل به على صحته ، وتمام قوته ، ففارق العرف اللغوي الذي درج على تشبيه الرجل البليد بالحمار ، او استعارة الثاني للاول .[113]

لقد كانت احدى سمات التجديد في فن ابي تمام هي استخدام الالفاظ على غير النحو المألوف ، وفي غير المجال الذي كانت ترد فيه .

لم يشأ اكثر نقاد ابي تمام ان يبيحوا له الحرية في استخدام اللغة ، ولم يتصوروا « ان طريقة تفكير الشاعر وحالاته الذهنية يمكن ان تفرض عليه استخداماً خاصاً للغة ، من حيث الدلالة والتراكيب »[114]. ولم يروا ان من حق الشاعر ان يندمج بالاشياء المحيطة به « ويعاملها كما لو كانت هي ذاته »[115] فينعتها بما يشاء من نعوت ، ويسقط عليها من

نفسه ما يريد من المشاعر ويستعمل اللغة تبعاً لذلك استعمالاً يتلاءم مع هذه الطريقة ، في تصور الاشياء والاحساس بها . ولا شك في ان هذا النحو من التصور والتفكير يؤدي الى ان تتمحي الحدود بين الاشياء ، وتهتز الفواصل بين العناصر الخارجة عن ذات الشاعر ، ويطلق على هذا الشيء ما اعتاد الناس اطلاقه على الشيء الاخر ، فاذا المعنوي المجرد يعبر عنه بما يعبر به عن المحسوس ، واذا الحيوان ينعت بما ينعت به الانسان ، او العكس .

وكان ابو تمام اشد الشعراء خروجاً على ما هو كائن ، ومتعارف عليه من استعمالات لغوية ، فاعطى نفسه قدراً كبيراً من الحرية في استخدام الالفاظ ، واقامة علاقات جديدة بينها ، وكانت طريقته هذه « فخاً يوقع اللغويين في شراك عدم الفهم » [116] مما جعل الصولي يسخر منهم سخرية مرة ، ويرميهم بالجهل بالجديد .

لقد صدف اللغويون ومن تبعهم من النقاد عن شعر ابي تمام ، لانهم استشعروا في استخدامه للغة غموضاً ، وغرابة لم يعهدوها في الشعر القديم ، فحملوا عليه ، ووصفوه بانه « شاعر عدل عن مذاهب العرب المألوفة الى الاستعارة البعيدة ، المخرجة للكلام الى الخطأ والاحالة » [117].

نظر اللغويون ومن تابعهم من النقاد فوجدوا ان العرب كانت تستعير « المعنى لما ليس هو له ، اذا كان يقاربه او يناسبه ، او يشبهه في بعض احواله او كان سبباً من اسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه » [118] اما ابو تمام فلم يجر في هذه السبيل ، بل كان يضع الالفاظ في غير مواضعها المألوفة ، ويعبر بها عن معان لم تتقرر في العرف اللغوي المأثور ، فجر ذلك عليه اعنف النقد ، ودفع الى التعصب عليه ، والتشهير به .

وقد مثل الامدي هذا الموقف ، وتصدى لحرية ابي تمام في استعمال الالفاظ ، فلم يرض عن عدد من مجازات ابي تمام ، وافرط في تانيب الشاعر عليها ، ولابد من الاشارة الى ان موقفه هذا قد استمر في العصور اللاحقة ، فآمن به عدد من النقاد كالرماني والخطابي والقاضي الجرجاني والعسكري وهم معاصرون للامدي ، وابن سنان وابن رشيق وغيرهما [119].

لقد أرّق الامدي ما وجد عند ابي تمام من جرأة في استخدام الالفاظ لغير ما وضعت له ، واستهانه بالشائع والمألوف من تعابير العرب ومذاهبهم . من ذلك قول ابي تمام :

تحملت مالو حُمّل الدهر شطره
لفكر دهراً اي عبايه أثقل

قال الامدي : « فجعل للدهر عقلاً ، وجعله مفكراً في اي العبائن اثقل ، وما شيء هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة . وكان الاشبه والاليق لما قال (تحملت مالو حمل الدهر شطره) ان يقول : لتضعضع او لانهد ، او لأمن الناس صروفه ونوازله » [120]

وقال ابو تمام :

أنزلته الايام عن ظهرها من   بعد اثبات رجله في الركاب

وقال :

يادهر قوم من اخدعيك فقد   أضججت هذا الانام من خرقك

فلم يرض الامدي ، ومن تبعه من انصار القديم عن هذا (التشخيص) للدهر والايام ونعتهما بما لم يتعارف من نعوت ، ووجدوا في امثال هذه التعابير خروجاً على السنن العربي الموروث ، اذ لم يؤثر عن عربي انه جعل للايام ظهراً او ركاباً ، او جعل للدهر اخدعاً ، واذا كان احد من العرب قد تورط في شيء من هذا ، فلا يحق للمتاخر ان يجاريه فيه ، لان ما يصدر عن العرب على سبيل الندرة او السهو لا يمكن ان يسوغه متاخر [121] او يجعله اصلاً يحتذيه او يستكثر منه [122] كما لا ينبغي « للمتاخر ان يحتذي الاخذ الا للجيد لمختار لسعة مجاله ، وكثرة امثلته » [123].

لقد صدر نقاد ابي تمام من اللغويين ومن تبعهم من المحافظين عن نظرة تكبر القديم ، وتغلو في التعصب له ، وترى في « الاستعمال الجديد للغة خروجاً على الموروث من تقاليدها ومواضفاتها ، ولو انهم لم ينظروا الى الجديد هذه النظرة لقبلوا ما جاء به ابو تمام من استعمالات ، ان فارقت مذاهب العرب ، فانها وفت لما يقتضيه الفن الشعري من اعادة لتشكيل المفردات على النحو الذي تمليه الرؤية الشعرية ، او تفرضه طبيعة التجربة .

ثانياً : لغة الشعر عند أبي تمام من منظار لغوي

لقد اعترف غير واحد من نقاد ابي تمام واللغويين الذين نظروا في شعره بانه « فقيه لغة وناقد الفاظ ، فاذا وقع في الخطا فمرد ذلك الى التسامح الذي ياخذ به نفسه احياناً ، والى كلال الخاطر احياناً اخرى » [124] ولهذا كان الامدي يقول عند ذكر بعض اخطائه : « وليس أبو تمام ممن يذهب هذا عليه ، ولكنه يسامح نفسه في الفاظه ، فيقع في الغلط عند كلال خاطره » [125] وكان المعري يسلّم لابي تمام بمعرفته باللغة « فما عرف أنه خطاه في استعماله للفظة ما ، بل كان يقف موقف ملتمس العذر له » [126] وكان عبد القاهر الجرجاني لا يضيق بدقيق معاني ابي تمام ، ولا بغامض افكاره « وانما شدد نكيره عليه لتعسفه في اللفظ ، لان اللفظ ليس مما يرضي عبد القاهر ، وتعسف ابي تمام في اللفظ يقوده احياناً الى مخالفة النحو ، ومخالفة النحو يعتبرها الجرجاني كبيرة من

الكبائر ، واعتبر الاعجاز كله قائماً على معرفة النحو وفقهه ، وعد النحو وسيلة لمعرفة النظم » .[١٢٧] وكان عبد القاهر يقول : « ان أبا تمام ما أتي من سوء فهمه للنحو ، وقلة معرفته بالعربية ، وانما أتي من تهاونه ، ومن انصرافه نحو تزويق اللفظ ، فألهاه ذلك عن الجوهر ، وشغله بالعرض » . وقال : « وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاجتراء على ابي تمام ، حتى صار ما يُنعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه ، والمنكر لفضله ، واحضر حجة للمتعصب عليه » .[١٢٨]

وسنعرض في هذه الفقرة من البحث طائفة من اراء اللغويين في شعر ابي تمام ومناقشاتهم وسنرى ان بعضها يتعلق بالنحو وبعضها يتصل بالصيغ او الصرف ، واما القسم الثالث فيتناول الدلالة .

١

النحو

الظروف :

اخطأ ابو تمام في استعمال (بين) فقال :

ومشهد بين حكم الذل منقطع صاليه أو بحبال الموت متصل

فقال الامدي : « فقوله : بين حكم الذل ، لو كان حكم الذل اشياء متفرقة لصلح فيها (بين) غير ان حكم الذل والذل بمنزلة واحدة ، وكذلك حكم العز والعز ، فكما لا يقال : بين العز كذلك لا يقال : بين حكم العز ، حتى يقال هذا ، لان (بين) هي وسط بين شيئين . فان قال : ان حكم الذل مشتمل على مشهد الحرب ومن يصلى بها ، فكأنه ذهب بقوله (بين) الى معنى وسط ، أي ومشهد وسط حكم الذل . قيل : وسط لا يحل محل بين ، وبين لا يحل محل وسط ، لانك تقول : البئر وسط الدار ، ولا تقول : البئر بين الدار » .[١٢٩]

حروف الجر :

قال ابو تمام :

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على بانٍ باهل ولم تغرب على عَزَبِ

جاء في النظام : « يقال : بنى على اهله ، ويكرهون : بنى باهله ، وهو خطأ . وكان الاصل فيه ان الداخل على أهله كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله بها ، فقيل لكل داخل باهله : بان » .[١٣٠] وقال المعري : « ولا يمنع القياس دخول الباء في هذا الموضع ، ويكون المعنى : بنى بأهله ، اي من أجلهم ، كما يقال للرجل : خذ هذا بما فعلت ، اي من اجله » .[١٣١] ولكن دفاع المعري هذا لم يقنع ابن المستوفي ، فقال : « واللغة انما يوقف عليها مع السماع ، والاول الصحيح » .[١٣٢]

الاعراب :

اخذ الامدي على ابي تمام قوله :

ثانية في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذهما في الغار

فقال : « معنى هذا البيت ان بابك صار في الصلب جاراً لمازيار ، وهو ثانيه في كبد السماء ، ولم يكن ثانياً لاثنين اذ هما في الغار ، انما هو ثاني اثنين في الصلب ، الذي هو رذيلة ، وليس هو ثانياً لاثنين في الغار ، لان تلك فضيلة . فكان يجب ان يقول في البيت : (ولم يكن لاثنين ثانياً) لانه خبر يكن ، واسمها هو اسم بابك مضمر فيها ، فليس الى غير النصب سبيل في البيت » .[١٣٣]

واخذ الامدي على ابي تمام قوله :

يوم أفاض جوى أغاض تعزياً خاض الهوى بحري حجاه المزبد

فقد قال الامدي : « قال : بحري حجاه المزبد وخفضه ، وكان وجهه ان يقول (المزبدين) صفة للبحرين » .[١٣٤]

وقال ابو تمام :

يا غالباً لا غالبٌ لرزيّة بل الموت لاشك الذي هو غالب

فقال ابو العلاء : « اذا صحت الرواية على هذا اللفظ فقوله (ياغالباً) نداء للذي يرثيه ، واسمه غالب ، وتنوين العلم المنادى محسوب من الضرورات ، والنحويون فيه مختلفون ، بعضهم يختار النصب ، وبعضهم يختار الرفع ، وهذا البيت ينشد نصباً :

ضربت صدرها اليّ وقالت ياعديًا لقد وقتك الأواقي

وبيت الاحوص ينشد على الوجهين :

سلام الله يامطرٌ عليها وليس عليك يامطر السلام[١٣٥]

وقال ابو تمام :

جدير بأن يستحيي الله بادياً به ثم يستحيي الندى ويراقبُهْ

فقال المعري : « يستحيي الثانية رفعها لمكان القافية ، لان لا يمكنه فيها غير ذلك ، ولو جعلها في موضع نصب لكا قد أسكن الياء في موضع التحريك ، وذلك رديء ، والكوفيون يرون ان الناصب اذا لم يصحب الفعل فرفعه جائز . ورفعه (يستحيي) اوكد لرفع (يراقبُهْ) لان المرفوع يكون تابعاً لمثله » .[١٣٦] اما ابن المستوفي فقد خرج رفع (يستحيي) الثانية بقوله : « ولو رفعه على تقدير (ثم هو يستحيي الندى) كان جائزاً » .[١٣٧]

التعدي واللزوم :

قال ابو تمام :

هما أظلما حاليّ ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب[138]

قال ابو العلاء : « جعل (أظلم) ها هنا متعدياً ، وذلك قليل في الاستعمال ، وهو في القياس جائز ، وهو على قياس قال (ظَلِمَ الليل) في معنى (أظلم) . فان ادعى ان (أظلم) هنا غير متعد ، وأن (حاليّ) منصوب كانتصاب الظرف ، فان قوله (اجليا ظلاميهما) يرفع ذلك ، لانه عدّى (أجليا) الى الظلامين » .[139]

التحذير :

قال ابو تمام :

انظر واياك الهوى لا تُمكننْ سلطانه من مقلة شوساء[140]

جاء في النظام : « قال التبريزي : كان النحويون المتقدمون يرون ان إياك ينبغي أن تستعمل مع الواو ، مثل قولهم : اياك وزيداً ، وينكرون مجيئها على غير ذلك ، الا أن تستعمل بـ (أن) كقولك : اياك أن تقوم ، والواو عندهم مُرادة . وكذلك تحذف حروف الخفض معها كقولك : أمرتك أن تفعل ، والمراد بان تفعل ، فان عدمت قبح عندهم الحذف الا في ضرورة الشعر كقوله :

اياك اياك المراء فانه الى الشرّ دعّاء وللشر جالب

واصحاب هذا القول يرون ان الحذف جاز مع (المراء) لانه مصدر لـ (ماريت) فهو مؤد معنى (ان تماري) ، وكذلك الهوى مؤد معنى (ان تهوى) . وأما غير هؤلاء فلا يرون بحذف الواو باساً مع (أن) وغيرها . لانهم يتاولون المعنى اذا قالوا (اياك ان تقوم) على تقدير (احذرك ان تقوم) » .[141]

اضافة (ذو) الى الضمير :

قال ابو تمام :

غدوث بهم أمدّ ذويّ ظلّا واكثر من ورائي ماء واد

جاء في النظام :« وقوله : (ذوي) اضاف (ذوي) الى الضمير ، وذلك قليل ، فاما النحويون فيذكرون أنه لا يجوز » .[142]

يتضح مما تقدم ان ما نسب الى ابي تمام من مخالفة للغة ، او استعمال للاوجه الضعيفة منها ، ليس سببه ـ كما قال الامدي وغيره ـ الجهل بالتعبير الراجح ، او المجمع على صحته ، وانما مبعثه مسامحة نفسه ، او احتفاله بالمعنى على حساب التعبير .

٢

الصّيغ

لقد اخذ الامدي على ابي تمام استعمال بعض الصيغ الصرفية ، من ذلك قوه :

اخي ان الصّبا استمر به سيرُ الليالي فانهجت بُرُدُه

فقال : « أنهجت (بُرُدُه) يريد (برودِه) وفُعُل على تجمع فُعُل » .[143]

وقوله :

ملّكته الصبا الولوع فتاً فته قُعُودُ البلى وشُزُرُ الخطوب

قال الامدي : « قوله (الصبا الولوع) وانما اراد المولعة بالهبوب لانها اكثر الرياح هبوباً ، ولا اعلمه يقال : وَلِعَ بالشيء يولع فهو ولوع ، ولكن قد سمعت وَلَعَ يَلِعُ مثل وزع يزع و وَلُوع بكذا ، واللغة المعروفة أوْلِعت بالشيء فانا مؤلَع والمصدر الوَلوع » .[144]

واخذ عليه غير الامدي في مجال الصيغ قوله :

أجبته معلنا بالسيف منصلتا ولو اجبت بغير السيف لم تجب

قال المعري : « لا يعرف صَلَتَه فانصلت » .[145]

وقوله :

على كل روّاد الملاط تهدمت عريكته العلياء وانضم حالبه

قال المعري : « والعريكة السنام ... وقوله العلياء جاء بها كالمستعارة ، وليس هذا من مواضع العلياء الممدودة ، ولكنه من مواضع العُليا في وزن (الفُعْلى) لانه لو قلت : تهدم سنامه قلت الاعلى ، والفُعلى أنثى الأفعل » .[146]

وقد ياتي ابو تمام بالصيغة على غير المعهود لان القياس يجيزها ، نحو قوله :

حواقلة وأصبية ترامت بهم بيدُ الدخالة والسهوب

قال ابو العلاء المعري : « حواقلة اي شيوخ الواحد حوقل وأصبية جمع صبي على القياس والمستعمل صبية »[147]

وقد يستعمل ابو تمام صيغاً مرجوحة ، غيرها أولى بالاستعمال ، من ذلك قوله :

وأحيا سبيل العدل بعد دُثوره وأنهج سُبل الجود حين تعفّت

قال ابن المستوفي : « أنهج بمعنى أوضح من قولهم طريق نهج اي واضح ، والمعروف نهجت الطريق بغير الف اذا أوضحته ، ولعل أنهج لغة فيه » .[148]

وقوله :

قمر تبسمَ عن جُمان نابت فظللْتُ أرمقُه بعين الباهت

قال ابن المستوفي : « وقوله (باهت) الافصح عندهم (بُهِت) فهو مبهوت وقد حكي (بَهَت) . وقرأ بعضهم

(فَبُهت الذي كفر) » ، ثم قال : « قال الجوهري بَهِت الرجل بالكسر اذا دهش وتحيرٌ وبهُت بالضم مثله ، وافصح منهما بُهِت كما قال جل ذكره (فبهُتَ الذي كفر) لانه يقال رجل مبهوت ولا يقال : رجل باهت ولا بهيت ، قاله الكسائي » .[١٤٩] وقوله :

ضَرَح القذى عنها وشذَّب سيفُه

عن عِيصها الخُرّاب والخُبّاثا

قال ابو العلاء : « الخُرّاب جمع خارب وهو الذي يسرق الابل خاصة ، والخُبّاث جمع خابث ، والمستعمل خبيث . وقد يجوز ان يقال خابث على غير الفعل أي ذو خبث كما يقال : تامر ولابن » .[١٥٠] وقوله :

فَفي كل نجد في البلاد مغائر   مواهبُ ليست منه وهي مواهبه

قال المعري : « يعني بـ (غائر) غوراً ، وكانه على حذف الموصوف ، تقديره (وفي كل نجد ومكان غائر) .[١٥١]

وقد وقف اللغويون امام طائفة مما اورد ابو تمام من صيغ ، فذهبوا الى انها لم ترد عن شاعر قبله ، من ذلك قوله :

بمختبل ساج من الطرف أحور   ومُقْتَبِلٍ صاف من الثغر أشنب

قال المعري : « واذا رويت ومقْتَبَل فهو التقبيل .. والاقتبال من التقبيل معدوم في الشعر العربي القديم » .[١٥٢] وقوله :

مـن المـعْطَيـات الحُسْـن والمؤتيـاتِه

مُجَلْببَةً أو فاضلاً لم تُجَلْبَبِ

قال المعري : « اذا رويت (فاضلاً) فهو فاعل من (الفَضْل) . يقال : امرأة فُضُل اذا كانت في ثوب واحد . وقد يقال : ثوب فُضُل اذا لم يكن على اللابس غيره . فان ثبت انه قال (فاضلاً) وهو يريد (الفضل) فهي كلمة لا تعرف في غير كلام المتقدمين ، وانما المعروف : تفضّلت المرأة اذا كانت فُضُلاً » .[١٥٣]

وقد يورد ابو تمام الكلمة مجموعة ثم يعاملها معاملة المفرد فيثنيها ، من ذلك قوله :

إن الأسنة والمـاذي مـذكَّـرا   فلا الصيامي لها قدر ولا النهب[١٥٤]

قال المعري : « وقوله : مذكرا جعل الاسنة والماذي كالاثنين وان كل واحد منهما يقع على جمع ، وهذا مثل قول الاسود بن يعفر :

ان المنية والحتوف كلاهما   يوفي المخارم يرقُبان سوادي

فجعل الحتوف وهو جمع كالواحد فثنى » .[١٥٥]

ومما تجدر الاشارة اليه في مجال الصيغ ابي تمام شغفه ابي تمام باستعمال المثنى شغفاً واضحاً دون ضرورة .[١٥٦] من ذلك قوله :

تحملت مالو حُمّل الدهر نصفه   لفكر دهراً اي عبايه اثقل

وقوله :

لو أن دهراً ردّ رجع جوابي   أو كفّ من شاويه طول عتابي

وقوله :

أبقي على جولة الايام من كَتِفَيْ   رَضوى وأسيَرُ في الافاق من مثل

وقوله :

فما فضَبْتَا رَضوى ولاركْنُ مُعنِقٍ   ولا الطَودُ من رُكْن ولا أنف يذبلا

باثقل منه وطأة حين يغتدي   فيُلقى وراء الملك نحراً و كلكلا

٣

الدلالة

استعمل ابو تمام كثيراً من الالفاظ في غير ما وضع لها من معان ، فانكر اللغويون ذلك عليه ، لانهم تمسكوا بالمسموع . ولم يرتضوا ان تستعمل الكلمة في معنى غير الذي استعملها فيه العرب الذين يوثق بلغتهم ، ومن هذا الضرب من الاستعمال اللغوي قوله :

ومها من مها الخدور وآجا   ل ظباء يُسرِ غن في الاجال

فقال النقاد : « وهذا مما غلط فيه ابو تمام لان الاجال جمع (إجْل) وهو القطيع من البقر ، يقال : سرب من قطا وسرب من نساء وسرب من ظباء » .[١٥٧]

ولم يرض الامدي عن ابي تمام لانه استعمل (الالتدام) وهو ان تضرب النساء صدورهن في النياحة بمعنى (اللطم) وهو ضرب الخدود . قال ابو تمام :

لها من لوعة البين التدام   يُعيدُ بنفسجا وردَ الخدود

فقال الامدي : « والتدام النساء في النياحة انما هو ضرب الصدور ، واللطم هو ضرب الخدود ، هذا المستعمل المعروف في كلامهم ، فاللطم هو الذي يعيد بنفسجا ورد الخدود لا الالتدام ، لان الالتدام أن تاخذ المرأة جلداً أو نعلاً فتدق به صدرها .. فجعل ابو تمام لطم الوجه لدماً » .[١٥٨] ثم عاد الامدي فقال : « ولعل ذلك يسوغ فان اللدم هو دق الشيء على الشيء » .[١٥٩]

ولم يرض اللغويون عن استعمال ابي تمام الفعل (جُذّ) بمعنى (جُبّ) في قوله :

من نكبة محفوفة بمصيبة   جُذّ السنامُ لها وجُذّ الغارب

جاء في النظام : « فاستعمال (جُبّ) في السنام اكثر من كلامهم في استعمال (جُذّ) وتعدوه الى الظهر ، قال النابغة :
ونمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

ولم يقولوا : بمير أجذ السنام » [١٦٠]
وقد غير ابو تمام مجال استعمال الفعل (فَرِك) فقال :
واذا نعمةُ امرىء فَركَتهُ فأقتَصِرها اليك وأُلهي غرُوبا

فقال المعري : « فَرِكَتْه من (فرك النساء) وهو بغضهن لازواجهن ، وما أخرج الفِرْك من الحيوان الى غيره من الشعراء أحد قبل الطائي . وقوله : فاهتصرها اي اعطفها اليك » [١٦١]
وفات المعري ان ينبه هنا ايضاً على أن أبا تمام نقل (العَرُوب) من وصف للمرأة الى وصف المعنويات ، فقد وصف بها النعمة ، وهذا مذهب عُرف به ابو تمام ـ كما تقدم ـ وهو استعمال الالفاظ بعلاقات جديدة ، لم يالفها الناس .

٤

ظواهر لهجية

كان ابو تمام كثير الاستعمال للغة طيىء التي هي قبيلته [١٦٢] ومن مظاهر هذه اللغة في شعره :
أ) لغة (يتعاقبون فيكم ملائكة) التي نسبت الى قبائل اخرى من اليمن مثل بلحرث « ولكن الحاح ابي تمام عليها يوثق الرأي القائل بانها لغة طيىء » [١٦٣] من ذلك قوله :
وأكيس بمجْدٍ عاد فيه نواله وشاعر قوم عُذْن فيه قصائده

وقوله :
شجا في الحشا ترداده ليس يفتر بـه صُفن أمالي وإنسي لمُطرِ

ب) حذف تاء التانيث التي تلحق الماضي حين يكون فاعله جمعاً غير عاقل كقوله :
كم انجبوا قمراً جلا أفعاله قمراً ومكرُمةً تناغي الفرقدا

ولو قال : (جَلَت افعالهُ) لاستقام الوزن .
ج) استعمال (ذو) الموصولة ، يقول :
أنا ذو عَرَفت فإن عَرَتْك جهالة فانا المُقيم قيامة العُذال

د) وفي شعره من لغة طيىء قوله :
هل أورق المجدُ الا في بني أُدِدٍ او اجتُنى منه لولا طيىء ثمرُ

قال التبريزي : « اذا كان اخر الماضي ياء وقبلها كسرة فـ ـيء تقلبها الفاً فيقولون (اجتُنى) في (اجتُني) و (اقتُذى) في (اقتُذي) ومن العرب من يسكن وهي لغة رديئة ، والاغلب ان يكون الطائي سكن الياء ههنا ولم يستعمل اللغة الطائية » [١٦٤]
هـ) ويقول قوم من طيىء (دفن البناه من المكرماه : موضع قول غيرهم (دفن النبات من المكرمات) فيقول ابو تمام :
إحدى بني بكر عبد مَناهِ بين الكثيب الفرد والأمواهِ
ألقى النصيف فانت خاذلةً أمنية الخالي ولهو اللاهي
المثى

(و) وكان ابو تمام « ذا علم بلهجات القبائل » [١٦٥] فلحن نرى قوله :
تَكلَّتُ قصائدي إن مرّ يومٌ ولما اقض فيه منك نَحْبا
وكنتُ اذن كانت فانّ مثلي اذا ماكان مثلك كان كلبا

فاستعمال ضمير الرفع (انت) بعد الكاف لغة نادرة [١٦٦]

ثالثاً : تعقيب وتقويم

١

لابد من الاشارة الى جملة أمور تميز بها مذهب أبي تمام الشعري ، أولها أنه شاعر جانب (الطبع) واعتمد على (الصنعة) في شعره ، فقد كان يعتقد ان الشعر فن ، وأن الفن لا يؤاتي صاحبه اذا ارسل نفسه على سجيتها ، وأخذ ما يطفو على سطح خاطره ، بل لابد له لكي يكون الفن فناً ان يبذل جهداً ، وأن يشقى شقاءً ما ، حتى يستوي له الفن ، ويؤاتيه منه مايرضيه .
والثاني أنه أخذ بما كان مسلم بن الوليد قد اكثر منه من فنون البديع ، مما عرف بالمحسنات البديعية من طباق وجناس وغيرهما ، فاضاف اليها ماسماه بعض النقاد (التشخيص) او (التجسيم) ، فظهر شعره على نحو لم يالفه النقاد ، ولم يصادفوه في نماذج القدماء من شعراء العربية ، فاستقبحوه واستغثوه ، وهو لم يكن في جملته قبيحاً ولا غثا ، وانما كان (غريباً) حقاً ، وهناك فرق بين (القبح) و (الغرابة) ، ولعل خير ما يمثل مجانبة ابي تمام مذهب مسلم في المحسنات قوله :
كل يوم له وكل أوان خلق ضاحك ومال كئيب

فانت ترى في البيت (طباقاً) بين الضحك والكآبة ، ولكن أبا تمام لم يكتف بمجرد المطابقة بل زاد عليها لوناً آخر هو

(التصوير) أو (التشخيص) اذ جعل الخلق في صورة ضاحك ، وأبرز المال في هيئة شخص كئيب . وقوله :

ألبست فوق بياض مجدك نعمة
بيضاء تسرع في سواد الحاسد

فالبياض والسواد لا يكفيان ابا تمام وهو الصناع الحاذق ، الذي لا ياخذ عفو خاطره ، ولا يغترف من فيض طبعه ، وانما يضيف الى الطباق لوناً جديداً من الفن شغف به ، واكثر منه هو (التشخيص) او (التجسيم) او ما سماه ارسطو « قوة وضع الاشياء تحت العين » .[١٦٧] فعبر عن (غيظ) الحاسد بالسواد وعن (نعمة) ممدوحه بالبياض « ولم يكتف بذلك بل جعل هذا البياض يسرع في السواد وينتشر فيه » .[١٦٨] وقوله :

وأحسن من نَـوْر تفتحه الصبـا   بياض العطايا في سواد المطالب

لقد استخدم الطباق حقاً ، ولكنه لم يكتف به ، بل شفعه بلونين آخرين هما (التشخيص) و (الحركة) فقد مثل العطايا في هيئة شخص اتخذ البياض لوناً ، ومثل المطالب شخصاً آخر اتشح بالسواد ، وجعل احدهما يتحرك في الاخر وينتشر فيه .

ان هذا النمط من التعقيد في تناول مقومات الفن الشعري هو ما امتاز به ابو تمام ، وانفرد به عن استاذه مسلم بن الوليد ومن سبقه من شعراء ، كانوا يعمدون الى الطباق او الجناس على نحو لا إغراق فيه من جانب ، ولا توشية له بلون جديد آخر هو (التشخيص) او (التجسيم) .

والثالث أنه شاعر استجاب لمتطلبات عصره الثقافية والحياتية ، فألم بالوان العلوم التي ظهرت في ذلك العصر ، وأخذ نفسه بثقافة وسعة حتى قالوا عنه انه عالم .[١٦٩] وقد اضاف الى هذه الثقافة ثقافة فنية لا تقل عنها اتساعاً « فقد كان مستبحراً في الرواية » .[١٧٠] وقد اثرت ثقافته العلمية في شعره فظهرت فيه بعض مصطلحات العلوم ، كما سلف به البيان ، وأثرت في شعره ايضاً ثقافته الفنية ، فظهرت في ذلك الشعر أمارات تدل على خبرة واسعة في اللغة ، وتمرس طويل بالاساليب .

وأما النقاد الذين تناولوا شعر ابي تمام ، واكثرهم من المحافظين ، فقد اتسم نقدهم بأمرين :

الاول (الاحتكام الى القديم)

ولا نريد هنا أن نغض من مبدأ الاحتكام الى القديم في اللغة ، ذلك لان وعي الناقد بالتقاليد الادبية التي سبقته وعاصرته أمر محمود ، ومبدأ ضروري ، يعين الناقد على تقويم الجديد ، وميز عناصره ، غير أن الذي يخشى منه هو ان يسرف الناقد في تطبيق هذا المبدأ الى الحد الذي « يحول بين الفنان وبين (كذا) التطور الذي ينشده » .[١٧١]

كانت عودة بعض النقاد الى القديم واستشارتهم اياه في أمر الجديد موقفاً لا مفر منه للناقد الحصيف ، ليستطيع أن يقف على ما حققه المجددون ويفصل فيه ، فيقبل الاصيل ويرفض الزائف . فالجديد لايُعرف الا بعرضه على القديم وموازنته به ، وهذا مبدأ سليم . ولكن الذي تورط فيه النقاد المحافظون هو أنهم لم يرجعوا الى القديم لتعرف العناصر الجديدة ، وتقدير قيمتها ، بل رجعوا اليه ليتخذوا منه مقياساً ، فيقبلوا ما وافقه وسار على نهجه ، ويرفضوا ما خرج عنه ، ولم يلتزم امثلته ، او المعروف المتداول من قيمه وأساليبه .

ومما سوغ لهم هذا الموقف ، وصرفهم عما ينشا عنه من ضرر باللغة والادب ، ايمانهم « بان الشعر والنثر نوعان من الكلام البليغ ، لا شكلان متمايزان من التعبير » .[١٧٢] وقد ذهبوا نتيجة لذلك الى أن دور الكلمات في الشعر لا يتمايز من دورها في النثر ، وان طبيعة استخدامها في كلا الفنين واحدة ، واذ فهموا الامر على هذا النحو لم يمنحوا الشاعر حرية التعامل مع اللغة ، ولم يجيزوا له ان يتعدى اطرها الثابتة ، أو يحطم نسقها المتعارف عليه . وهم بذلك لم يصدروا عن فقه صحيح للفن الشعري ، وما تفرضه التجربة أحياناً من تصرف في اللغة ، واستخدامها استخداماً خاصاً . وبعبارة اخرى ان اولئك النقاد نظروا الى الشعر نظرة بعيدة من طبيعته بوصفه نشاطاً تخييلياً ، من حقه ان تستخدم اللغة فيه على الوجه الذي يتطلبه هذا الضرب من النشاط ، وحاولوا ان يفرضوا عليه نظاماً صارماً لا يسمح باي تجديد أو تغيير . وهذا يعني أنهم تغافلوا عن ان اللغة في الشعر « لغة انفعالية مرنة ، بل أميز ما فيها هو هذه المرونة التي تجعلها متجددة دائماً بتجدد الانفعالات . فالانفعالات الجديدة تستخدم الالفاظ دائماً استخداماً جديداً » .[١٧٣]

وتبعاً لمعيار (الاحتكام الى القديم) او الى ما يسمى (طريقة العرب الاوائل) عاب اسحاق الموصلي ابا تمام وقال له : « يافتى ما أشد ما تتكىء على نفسك ، يعني أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله ، وانما يستقي من نفسه » .[١٧٤] وقد مر بنا في (مجازات ابي تمام) ما انكره النقاد ولا سيما الامدي من بعض المجازات لخروجها عن مذهب العرب الاوائل في الاستخدام الفني للغة ، ونذكر هنا بيته المشهور :

رقيق حواشي الحلم لو أن   بكفيك ما ماريت في أنه برد حلمه

فقال ابن عمار : « هذا هو الذي اضحك الناس منذ سمعوه والى هذا الوقت » .[١٧٥] اما الامدي فلم يكتف بالسخرية من الشاعر ، بل قال : « والخطأ في هذا البيت ظاهر

لاني ما علمت احداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة ، وانما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة » .(١٧٦) ثم ساق عدداً كبيراً من الشواهد على ذلك ، اختارها من شعر الجاهليين والاسلاميين وذكر ان العرب كانوا اذا ذموا الحلم وصفوه بالخفة ، وايد ما ذكره بشواهد كثيرة . ثم اخذ على ابي تمام انه وصف البرد بالرقة ، وقد جرت العادة بوصفه بالمتانة والصفاقة . واستنكر اشد الاستنكار قوله (لو ان حلمه بكفيك) . ثم اقر الامدي بان ابا تمام لم يكن ليذهب هذا المذهب في شعره ، جهلاً منه بالمتعارف من وصف الحلم ، او نعت البرد ، فكثيراً ما جاء في شعره وصف الحلم بالرزانة ، مقتدياً في ذلك بالعرب ، ولكنه كان يجنح في بعض الاحيان الى مغايرة ما تعارف عليه الناس .(١٧٧) وفي « مغايرة ما تعارف عليه الناس » من علاقات بين الالفاظ يكمن الابداع احياناً ، وتبرز شخصية الاديب .

لقد عبر الناس مثل ابي تمام وهم يجدون الحلم مقروناً الى الرزانة ، او موصوفاً بها ، ويجدون البرد مضموماً الى الفلظة او المتانة ، فجاء ابو تمام فلم يشا ان يجري على ما جرى عليه الناس او ان ياخذ بقوالبهم واستعمالاتهم ، فانشا للحلم قريناً آخر ، وابتدع له الفاً جديداً ، وضم اليه كلمة اخرى ، غير التي لصقت به زمناً طويلاً فقال : (رقيق الحلم) وفعل مثل ذلك في تغيير العلاقة بين (البرد) و (المتانة) فقال (رقيق البرد) . ان عمل ابي تمام هذا هو الذي قصدناه حين قلنا ان الاديب يبتعد احياناً ، عن العلاقات المالوفة بين الالفاظ ، وينشيء سياقاً لغوياً جديداً غير الذي سكن اليه الناس ، والفوه .

ثم ان ابا تمام ان خرج عن طريقة العرب في التعبير عن (الحلم) و (الحليم) فانه لم يخالف اهل عصره في ذوقهم اذ « ليس بغريب ان يوصف الحلم في عصر تسوده الحضارة والمدنية كالعصر العباسي بغير ما يوصف به في عصر تسوده البداوة والروح القبلية كالعصر الجاهلي الذي كان يحتكم الى مبدأ القوة في كل شيء حتى لتبدو قيمه الخلقية والاجتماعية منتزعة من هذا المبدأ » .(١٧٨) ولهذا كان من الطبيعي ان يوصف حليم العصر الجاهليّ بإنه الثابت كالطود ويوصف حليم العصر العباسي عصر الحضارة والمدنية بانه الرجل الرقيق الذي لا يواجه مصاعب الحياة الا بوجه باش وثغر مبتسم .(١٧٩) ولا عيب ايضاً في « أن يشبه ابو تمام رقة حلم هذا الرجل برقة البرد ونعومته ، فليس من الضروري ان يكون البرد خشناً صفيقاً على الدوام ... ولا شك أن برد عصر البدواة كان يختلف عن برد عصر الحضارة » .(١٨٠) فبرد عصر البداوة كان ينسج من الصوف ، ولذا شاع وصفه بالمتانة والصفاقة ، « أما برد عصر الحضارة فيبدو انه كان يصنع من أنسجة رقيقة ناعمة تمشياً مع رقة حياة اهل ذلك العصر وترفهم في اختيار الملابس والازياء » .(١٨١)

والثاني (التعصب على ابي تمام) والإفراط في ظلمه ، فقد أخذوا عليه ما لو اتسموا بالنصفة ، لما رأوا أنه معيب ، أو مردود . ومن امثلة مبالغتهم في نقده ، ورد ما لا عيب فيه من الفاظه وعباراته ، وتوقف الامدي عند لفظة (عكاظ) في قوله :

قد عهدنا الرسوم وهي عكاظ   للصِبَا تزدهيك حسناً وطيبا

قال الامدي : « ولو قال : (سوق) لكان أجود من قوله (عكاظ) ، وانما ذهب الى ان عكاظ من اعظم الاسواق التي تجتمع اليها العرب ، وقد كان يكفيه ان يقول (سوق) فيأتي باللفظة المستعملة المعتادة . وان السوق قد تكون عظيمة آهلة ، وعكاظ أيضاً سوق ، فما وجه التخصيص في موضع العموم ، والعموم أجود وأليق ؟ وقد يجوز أن يكون احتذاه على مثال ، والرديء لا يعتبر به ، وعلى ان الوزن لم يمكنه من سوق » .(١٨٢)

لم يكن الامدي مصيباً في عيب كلمة (عكاظ) وتفضيل كلمة (سوق) عليها ، فمما اعتاده الشعراء ان يذكروا في قصائدهم اسماء المواضع والاماكن ، لما لهذه الاسماء من ايحاء ، وما تبعث به من طلال ، فعكاظ تستدعي الى الخاطر ما يعرفه السامع عنها ، وما كان يشاهد فيها ، فيكون ذلك أدعى الى تاثره باللفظة ، وانجذابه نحوها ، اما كلمة (سوق) فكلمة عامة ممسوحة ، لا تتعلق بها ذكريات ، ولا تبعث خيالاً او عاطفة . وقد أشار بعض النقاد المحدثين الى ان معنى اللفظة في الشعر لا يقتصر على المعنى المقابل لها في المعجم « بل يشمل الارتباطات التي تبعثها اللفظة مفردة ومجتمعة مع غيرها . فوظيفة اللفظة في الشعر ليست مجرد الاشارة الى الشيء ، وانما للغة في الشعر مكونات ثنائية وثلاثية ورباعية كما يقول كولرد ؟ » .(١٨٣)

ووقوف الامدي عند قول ابي تمام :

وأقــاحِ منــوّرٌ في بطــاحٍ   هزه في الصباح روض أريض

قال الامدي : « وقوله : (هزه في الصباح روض أريض) ليس بالجيد اللائق ، لان الاقاحي هي من الروض ، والروض انما يهزه ويحركه الندى والنسيم ، لا أن يهز بعضه بعضاً » .(١٨٤)

لقد ذهب الامدي الى (الهز) الحقيقي المادي الذي يسببه النسيم ، وتراه العيون ، وغفل عما قصده الشاعر من هز آخر لاتحسه العيون ، وانما يتمثل للخيال فحسب ، ويتراءى للنفس وحدها ، وهو تمايل خفيّ تبعثه رؤية الازهار بعضها بعضاً ، وهي مطلولة تستقبل الصباح على غصونها ، فتنتشي وتتمايل ، لكانني بالامدي ، وهو يعيب عبارة ابي تمام هذه ، يجهل لغة الشعر ، وتخفى عليه أسرارها .

ولعل من أوضح ما يمثل ظلم بعض النقاد لابي تمام وقوف الامدي عند قوله :

إن الخليفة قد عزت بدولته   دعائم الدين فليعزز به الادب

لقد علق الامدي على هذا البيت قائلا : « دعائم الدين قد توصف بانها ثبتت او تمكنت وأقامت وتوطدت ، فهذا هو اللفظ المستعمل ، الا ترى أنها اذا وصفت بغير هذا الوصف قيل : وهت وسقطت وخرّت ، وهذا ان لم يكن خطأ فليس بالجيد لانه لفظ موضوع في غير موضعه » .[١٨٠]

إن ما قصده ابو تمام بلفظة (عزّت) هو أعمم وأشمل من اللفظ الذي اقترحه الامدي وارتضاه ، فعز الدعائم يعني ثباتها ودوامها وهيبتها وامتناعها على من يرومها بنقض او تهديم . ولعل كلمة (عزّت) اليق بلغة الشعر ، وما تقتضي من اثارة وتحريك خيال . من كلمة (ثبتت) او (رسخت) وغيرهما . وقد أصاب ابن المستوفي في رده الامدي هنا بقوله : « كان الامدي كثير التعصب على ابي تمام ، وهذا الذي ذكره هو على ما ذكره من اوصاف الدعائم حقيقة ، فاما مجازاً فجائز جوازاً حسناً . هذا اذا كانت لفظة (عزت) ضد لفظة (ذلت) ، فان اراد بها الشدة والقوة من قولهم (من عزّ بزّ) ومن التفسير في قوله تعالى (فعززنا بثالث)[١٨١] مخففاً ومشدداً اي قوّينا وشددنا فهو موضوع في موضعه على الحقيقة » .[١٨٢]

ومثل ذلك وقوف بعض النقاد عند قول ابي تمام :

اعانتني ما لخشى الليل مركبار وأخشنٌ منه في الملمة راكبهْ

اذ قال هذا الناقد : « ولم يسمع مركب خشن » .[١٨٨] بل المسموع (مركب وَعْر) . وليست بي حاجة للتعليق على هذا النقد ، فاللغة ليست من الجمود والتحجر بحيث لا تبيح للشاعر ان يستبدل بـ (وعر) كلمة (خشن) .

وقبل أن اختم الكلام على ظلم بعض النقاد لابي تمام ، أود الاشارة الى أن هذا الظلم دعا المرزوقي الى تاليف كتاب سماه (الانتصار من ظلمة ابي تمام) نقل التبريزي في شرحه كثيراً منه ، ومما نقله عبارات المرزوقي في تعنيف اولئك النقاد ، واتهامه لهم بانهم لم يفهموا معاني ابي تمام ، من ذلك قوله : « اعلم ان هذا المنكر لم يفهم عن الرجل ما قاله ، فاخذ ينكر عليه مالم يدركه » ، وقوله : « ولعمري ان اكثر من يذهب عن طرائقه فانما يؤتى من سوء الفهم عنه » .[١٨٩] وقوله غير مرة : « وأنكر بعضهم قول ابي تمام كذا ... وقد ظلم هذا الانسان ابا تمام ظلما مبيناً » .[١٩٠]

٣

وأما اللغويون الذين عرضوا لشعر ابي تمام فقد برزت في ملاحظاتهم عليه ظواهر ثلاث :

الاولى (التقيد بالعرف اللغوي) ، وزاد من صرامة هذا التقيد أن جل اللغويين الذين تصدوا للنظر في شعر ابي تمام كانوا من مدرسة البصرة ، وهي مدرسة لا تحتكم الى الشائع المطرد من كلام العرب ، ولا تقيم وزناً للمحاولات اللغوية الفردية ، لانها تحاول ان تقيم للغة نظاماً شاملًا ، ونسقاً صلباً ، لايمكن تجاوزه ، او الخروج عنه ، وقد اعتمدت في اقامة هذا النظام اللغوي الشامل على اساس من لغة الشعراء القدامى ، بمعنى ان هذه اللغة اصبحت المعيار الاساس الذي يرجع اليه في تقويم شعراء المحدثين ، ومثل هذا المعيار يحتم على اللغوي ان يصم بالخطأ « كل من يخرج في اللغة على ما عرفه الاولون وانتهوا اليه » .[١٩١]

وتبعاً لهذا المعيار اي التقيد بلغة القدامى ، او ما يسمى طريقة العرب الاوائل ، رفض اللغويون كثيراً من الصيغ والعبارات التي ابتعد فيها ابو تمام عن الاطر اللغوية المالوفة . واذا اردنا لغوياً تمثلت في احكامه النظرة المحافظة للغة فهو الامدي ، الذي قدمنا أنه كان تلميذاً مخلصاً للاخفش ، درس عليه ، ورضي منهج البصريين . لقد هدف الامدي الى تجميد اللغة ، واراد لابي تمام أن يسير داخل الاطر اللغوية الجاهزة ، وقد جاء حكمه المشهور « اللغة لا يقاس عليها » دليلًا على شدة محافظته . وواضح أن « مثل هذا الحكم العام يتنافر مع الفهم الصحيح للفن وحركة تطوره المستمرة التي لا تنتهي عند حد ، كما انه لا يؤثر بالضرورة في منهج الناقد الذي قد يهمل في حدود هذه النظرة المحافظة الكثير من الجديد الذي قد يحققه الفنان » .[١٩٢] ومن هنا حكم الامدي على ابي تمام بالخطأ كلما خرج عن تقاليد اللغة والادب .[١٩٣] من ذلك انه عاب على ابي تمام قوله : (لا أنت أنت ولا الزمان زمان) ، ورأى في قوله : (لا أنت أنت) تعبيراً شعبياً ، وانكر أن يقيسه على قول من قال من العرب القدامى (ولا العقيق عقيق) .[١٩٤] « وفي هذا ما فيه من تأثر بالاحتكام الى القديم وحده ، ونظرته الى اللغة القديمة نظرة تقديس » .[١٩٥]

وفي نقد الامدي امثلة اخرى على ما تورط فيه من تعنت وجمود ، نتيجة لتمسكه بان « اللغة لا يقاس عليها » ، ولا ينبغي التجديد فيها ، من ذلك انه نقد ابي تمام :

فانزع الى نخر الشئون وعنبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

قال الامدي : « قوله (يذهب بعض جهد الجاهد) اي بعض جهد الحزن الجاهد اي الحزن الذي جهدك ، فهو الجاهد لك . ولو كان استقام له (بعض جهد المجهود) لكان أحسن واليق ، وهذا أعذب وأظرف . وقد جاء ايضاً (فاعل) بمعنى (مفعول) قالوا (عيشة راضية) بمعنى مرضيّة ، و (لمح باصر) وانما هو (مبصر فيه) واشباه هذا كثيرة معروفة ، ولكن ليس في كل شيء ، وانما ينبغي ان تنتهي باللغة الى حيث انتهوا ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها » .[١٩٦]

وليس على ابي تمام باس اذا استعمل (جاهد) بمعنى (مجهود) لان لاستعماله هذا نظائر كثيرة ، كقولهم (عيشة راضية) بمعنى (مرضيّة) و (نهار صائم) اي مصوم فيه ، ولكن نظرة الامدي الضيقة للغة هي التي دفعته الى عدم الاخذ بالقياس ، ثم تخطئة ما لم يرد عن القدماء .

والثانية (عدم التفريق بين الخطأ والتطور) .

ان كل لغة يعروها مع الزمن شيء من التحول ، وذلك لصلتها الوثيقة باحوال متكلميها ، والعربية على الرغم من تمتعها بقسط كبير من الاستقرار اذا ما قيست بغيرها من اللغات ، لم تتوقف يد التطور عن العمل فيها . ولكن اللغويين نظروا الى التطور الطبيعي على انه خطأ تجب حماية اللغة منه . لقد كان المفروض ان يفرقوا « بين ما هو خطأ وانحراف وما هو توليد وتجديد وتطور فكلاهما حدث جديد في اللغة ، وتبديل في بعض ظواهرها ، ولكن الخطأ تبديل يخالف خصائص اللغة ، وسنن نموها وناموس حياتها وقواعد فطرتها ، ويخل بنظمها .. واما التجديد والتطور فهو تبديل واحداث يجري وفقاً لسننها وينساب مع فطرتها ، وينقاد لقواعدها ، ويوافق روحها وخصائصها » .[١٩٧] وكان على اللغويين ايضاً ان يدركوا ان « اللغة كائن مرموق يستحيل وضعه في وعاء واحد ، او الحكم عليه ليسير في خط محدد » .[١٩٨]

ولعل اهم ما يوضح هذه الظاهرة في نقد اللغويين لابي تمام موقفهم من استعماله بعض الكلمات في غير المسموع من معانيها ، مع ان التطور الدلالي للمفردات ظاهرة لا تسلم منها لغة ، ولا تفتا تعرض للكلمات في جميع العصور . قال ابو تمام :

وصنيعة لك ثيب أهديها   وهي الكعاب لعائذ بك مصرم
جلت محل البكر من معطي وقد   زُفّت من المعطي زفاف الأيم[١٩٩]

فخطاه الامدي لانه استعمل (الايم) بمعنى (الثّيب) . قال الامدي : « الايم هي التي لا زوج لها بكراً كانت او ثيباً ، قال الله عز وجل (وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) أفتراه اراد : أنكحوا الثيبات من النساء دون الابكار؟ انما اراد تبارك اسمه : أنكحوا النساء اللواتي لا أزواج لهن . فالثّيب والبكر والصغيرة والكبيرة ممن لازوج لها تدخل في الاية ، قال الشماخ :

يقر بعيني أن أحدث أنها   وان لم أنلها ايّم لم تزوّج

وهذا هو المعنى المعروف في كلامهم » .[٢٠٠]

وقد علق إحسان عباس على نقد الامدي هذا قائلاً : « إن الالفاظ تنزلق احياناً انزلاقاً يسيراً عما وضعت له بمرور الزمن ، وهذا مبدأ لا يحترمه أمثال الامدي القائلون بالتدقيق » .[٢٠١]

وقال ابو تمام يصف فرساً :

مامقرب يختال في أشطانه   ملآن من صَلَف به وتلهوق

فخطاه الامدي ايضاً لانه استعمل (الصلف) بغير المسموع من معناها . قال الامدي : « قوله (ملآن من صلف به) يريد التيه والكبر ، وهذا مذهب العامة في هذه اللفظة ، فأما العرب فانها لا تستعملها على هذا المعنى وانما تقول : قد صَلِفَت المرأة عند زوجها اذا لم تحظ عنده ، وصَلِف الرجل كذلك اذا كانت زوجه تكرهه ، والصَلِف الذي لا خير عنده » .[٢٠٢]

فتطور دلالة كلمة (الصَلِف) وتغير معناها امر لا باس باقراره ، لان له في العربية نظائر كثيرة ، وهو على ذلك ليس خطأ ، وانما هو من باب التطور ، واكتساب بعض الالفاظ دلالات جديدة .

الثالثة (التعجل في الحكم بالخطأ) .

وهذه ظاهرة طبعت اعمال النقاد اللغويين عامة ، فالعربية لغة واسعة واللغويون عجزوا عن الاحاطة « بكل الكنز اللفظي الحيّ الذي كان مستعملاً اذ ذاك في عالم البادية » .[٢٠٣] واذا كان الامر كذلك فقد كان على اللغويين ان يتريثوا في الحكم بالخطأ على هذا الاستعمال او ذاك ، ولكن الذي حدث غير هذا ، فقد كان بعض اللغويين يتعجلون فيرمون هذا المنشيء او ذاك بالخطأ ، ولو انهم انعموا النظر ، وأمعنوا في الاستقصاء ، لوجدوا في كلام العرب ، والرفيع منه احياناً ما يسند الاستعمال الذي خطؤوه أو استهجنوه . وقد فطن القاضي الجرجاني لهذه الظاهرة فقال : « ولم أستحسن ما يتسرع اليه بعض اصحابنا من التصريح بمخالفة اللغة » .[٢٠٤]

واذا تذكرنا ان ابا تمام « كان مستبحراً في الرواية » ،[٢٠٥] واسع الاطلاع على شعر العرب ، تشهد بذلك اختياراته منه ، أدركنا ضرورة التريث في تخطئته . غير ان الذي يتامل ماوصم به ابو تمام من الخطأ يجد الكثير منه مما يمكن ان يسوّغ بلغات العرب الكثيرة ، التي ربما غابت عمن صرّح بتخطئته .

نقل التبريزي عن المعري في نقده لبيت ابي تمام :

وليست بالعوان العَنْس عندي   ولا هي منك بالبكر الكعاب

انه قال : « وقد عاب بعض اهل العلم هذا البيت بقوله (العنس) وقال : ولم تسمع العنس الا في صفة الناقة ، كانه يذهب الى أنه اراد (العانس) فوضع (العَنس) مكانها . ويجوز ان يكون هذا غلطاً على الطائي ممن عابه ، اذ كان مثله مع أدبه لا يغيب عنه مثل ذلك » .[٢٠٦] ومن ذلك نقدهم كلمة (أغاض) في قوله :

بيوم أفاض جوى اغاض تعزياً   خاض الهوى بحري حجاه المزبد

قال ابو العلاء : « وانما يقال غاض الماء وغاضه غيره ،

ويجوز ان يكون الطائي سمع أغاض في شعر قديم ، وان لم يكن سمع فالقياس يطلقه »[207].

ومن تعجل النقاد بتخطئة ابي تمام ردهم قوله :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا ان تلك ذوابل

قال ابن ابي الاصبع : « وقد غلط الامدي في تغليط ابي تمام في هذا البيت حيث (كذا) زعم انه نفى عن النساء لين القدود ، معتقدا ان الرماح سميت ذوابل للينها ، والمعروف عن اهل اللسان ضد ذلك ، لان العرب تقول : رمح ذابل اذا كان صلب الكعوب ومن ذلك قولهم : ذبلت شفتاه اذا يبستا ، ولا تعرف العرب الذابل الا اليابس الذي جفت رطوبته ، ومن ذلك قولهم : نواة ذابلة اذا جف ماؤها واخذت في اليبس . وابو تمام لايشك احد انه ابصر من الامدي باللغة ، واقعر منه في معرفة اللسان العربي »[208].

وقد كان ابو العلاء المعري اكثر النقاد تحفظاً في تخطئة ابي تمام ، فقد ذكرنا أنه كان يسلم له بمعرفته باللغة وحاول ان يلتمس له العذر بدلًا من ان يصمه بالخطأ . ومن اجل ذلك كثرت في شرح المعري لشعر ابي تمام امثال العبارات الاتية : « ويجوز ان يكون الطائي سمعها في شيء من شعر العرب »[209] و «يجوز ان يكون ابو تمام سمعها في شعر قديم لانه كان مستبحراً في الرواية »[210] وانطلاقاً من هذه النظرة لثقافة ابي تمام اللغوية ، كان الزمخشري - و تبعه الرضي في ذلك - يستشهد بشعر ابي تمام ، ويقول عنه : « انه وان كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه »[211].

الخاتمة

كان هذا بحثاً عرضت فيه للغة شاعر كبير من شعراء العربية ، كانت لغته اهم ما شغل نقاده ، وابرز ما اتسم به مذهبه الشعري الجديد .

وقد تتبعت فيه آراء نقاد ابي تمام في لغته ، واستجليت المقاييس التي احتكموا اليها في استجادة ما استجادوا ورفض مارفضوا منها ، كما اجتهدت في أن أتلمس الجديد الذي تميزت به طريقة ابي تمام في تعامله مع اللغة ، وهي لم تظهر عند شاعر قبله ، فاثارت لذلك جدل النقاد ، وقامت حولها حركة نقدية نشيطة ، ولكنها على كثرة ما انتجت من آراء ، وما أريق فيها من مداد ، لم تستطع استكشاف حقيقة تلك الطريقة ، وبيان مقدار ما حققت للشعر العربي من تطور . ولعلي لا اعدو الصواب اذا قلت ان هذه الطريقة لم يقيض لها ان تفهم ، وتوضع في مكانها من مسيرة تطور الشعر العربي الا في العصر الحديث .

ولم اكتف في هذا البحث بتتبع آراء النقاد ، سواء اكانت صادرة عن منظار نقدي خالص يبحث عن الجيد والرديء ، ام صادرة عن منظار لغوي يميز الصواب من الخطأ ، بل تومتها وأظهرت ما اتسمت به من موضوعية حيناً ، وتعصب ومجانبة للصواب حيناً آخر .

وبعد فارجو ان اكون وفقت لتقديم صورة واضحة للغة ابي تمام ، بما انطوت عليه من جديد رفيع يدل على عبقرية وتفرد ، وما شابها من غث ساق اليه تسامح ابي تمام ، وكلال خاطره احياناً .

الهوامش

(١) الموشح : ٣٨٥ .
(٢) الثابت والمتحول : ١٠٦ .
(٣) نفسه : وينظر مصدره .
(٤) نفسه : وينظر مصدره .
(٥) نفسه : ١٠٦ ، ١٠٧ وينظر مصدره .
(٦) نفسه : ١٠٧ وينظر مصدره .
(٧) الثابت والمتحول : ١٠٧ .
(٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٥١ .
(٩) اخبار ابي تمام : ١٥ ، ١٦ .
(١٠) الثابت والمتحول : ١١٤ وينظر مصدره .
(١١) اخبار ابي تمام : ٢٤٤ .
(١٢) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٤٥ .
(١٣) معجم الادباء : ١٩ / ١٢١ وينظر الحركة النقدية : ٤٥ .
(١٤) العمدة : ٢ / ١٠٥ .
(١٥) الشعر والشعراء : ١ / ٦٢ .
(١٦) نفسه : ١ / ٦٢ ، ٦٣ .
(١٧) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٣٣٢ .
(١٨) اللغة والمجتمع : ٥ ، وينظر : قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٥ .
(١٩) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٥ ، ١٦ .
(٢٠) النقد الادبي (سهير القلماوي) : ٦٧ .
(٢١) سر الفصاحة : ٧٨ .
(٢٢) نفسه .
(٢٣) نفسه .
(٢٤) نفسه : ٧٩ .
(٢٥) المثل السائر : ١ / ١٨٨ وما بعدها .
(٢٦) المثل السائر : ١ / ٢٨٤ .
(٢٧) النحل : ٨ .
(٢٨) المثل السائر : ١ / ٣٨٧ .
(٢٩) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٢٧٩ وينظر مصدره .

(٣٠) الموازنة : ١ / ٢٨٣ .
(٣١) نفسه : ١ / ٤٤٣ .
(٣٢) نفسه : ١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
(٣٣) سر الفصاحة : ٥٧ .
(٣٤) نفسه : ٦٣ . الصهصلق من الاصوات الشديد . والشرج : ضم .
(٣٥) اطلخم : ٦٣ . أظلم ، عشواء مؤنث الاعشى الذي لا يبصر ليلا ، والغُبش جمع اغبس وغبساء وهي المظلمة ، والدهاريس : الدواهي .
(٣٦) المثل السائر : ١ / ١٦٣ .
(٣٧) النظام : ٥ / ٢٧٩ .
(٣٨) الصورة الفنية : ٣٨١ .
(٣٩) نفسه .
(٤٠) الحيوان : ٣ / ٣٩ .
(٤١) عيار الشعر : ٨ .
(٤٢) نقد الشعر : ١٩٢ ، ١٩٣ .
(٤٣) سر الفصاحة : ١٥٣ .
(٤٤) نفسه .
(٤٥) نفسه .
(٤٦) الموازنة : ١ / ٢٢٨ .
(٤٧) سر الفصاحة : ١٥٣ .
(٤٨) نفسه : ١٥٤ .
(٤٩) الموازنة : ٢ / ٩٤ .
(٥٠) النظام : ٥ / ٢١ .
(٥١) الالفاظ اللغوية : ٧٤ ، ٧٥ .
(٥٢) مجلة مجمع اللغة العربية : ١ / ٣٢٠ .
(٥٣) الموازنة : ٢ / ٥٤ .
(٥٤) نفسه : ٢ / ٥٥ .
(٥٥) نفسه : ٢ / ٦٦ .
(٥٦) نفسه : ١ / ٤٦٦ .
(٥٧) الموازنة : ١ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٥٨) ينظر في هذين المصطلحين : نقد الشعر : ٢١٤ ، ٢١٨ و الصناعيين : ٤٥٠ .
(٥٩) العمدة : ٢ / ٧٠ .
(٦٠) كتاب الصناعيين : ٤٥٠ .
(٦١) نقد الشعر : ٢١٨ ، ٢١٩ .
(٦٢) سر الفصاحة : ١٤٣ .
(٦٣) ينظر في ذلك : طراز المجالس : ٧٨ وما بعدها .
(٦٤) الموازنة : ١ / ٤٦٥ .
(٦٥) يقول : انت مهاة النقا لولا القوائم والاظلاف ، وانك أشبهتها وان أعرضت عني
(٦٦) الموازنة : ٢ / ٦٠ . ومن هذا قول ابي تمام : (سر الفصاحة : ٦٢) :

قف بالطلول الدارسات عُلاثا   اضحت حبال قطينهنّ رثاثا

قال ابن سنان : « ولا احب ايضاً تسمية ابي تمام صاحبه (غلاثة) ونداءه بالترخيم » وقال : « واذا كان الروي قاده الى ذلك فليت شعري من حظر عليه القوافي واقتصر به على الثاء » .
(٦٧) الموازنة : ٢ / ٢٨٥ .
(٦٨) الموازنة : ١ / ٢٦٩ . السلام الحجارة ، سلمى : جبل ، السلم شجر له شوك .
(٦٩) العمدة : ٢ / ٦٦ .
(٧٠) المثل السائر : ١ / ١٨٥ .
(٧١) نفسه : ١ / ١٨٧ .
(٧٢) سر الفصاحة : ٧٦ . والمرزمان : نجمان .
(٧٣) نفسه : ٧٦ ، ٧٧ .
(٧٤) نفسه : ٧٧ .
(٧٥) دروس في البلاغة : ٢٢٠ .
(٧٦) دروس في البلاغة : ٢٢٠ .
(٧٧) منهاج البلغاء : ٢٥ .
(٧٨) نفسه : ٣١ .
(٧٩) سر الفصاحة : ١٥٩ .
(٨٠) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٤٨ .
(٨١) نفسه .
(٨٢) نفسه : ١٤٩ .
(٨٣) نفسه .
(٨٤) المثل السائر : ٢ / ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
(٨٥) العمدة : ١ / ١٢٣ .
(٨٦) الموازنة : ١ / ٢٢٧ .
(٨٧) نفسه : ٢ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٨٨) سر الفصاحة : ٦٥ .
(٨٩) نفسه : ٦٦ .
(٩٠) النظام: ٣ / ١٧٩ .
(٩١) النقد الجمالي : ١٣٢ .
(٩٢) المثل السائر : ١ / ٢٩٢ وما بعدها .
(٩٣) سر الفصاحة : ٨٧ .
(٩٤) نفسه : ٩١ .
(٩٥) نفسه : ١٤٩ .
(٩٦) نفسه : ١٥٠ .
(٩٧) المثل السائر : ١ / ٣٠٣ .
(٩٨) نقد الشعر : ٣٢ .
(٩٩) المثل السائر : ٢ / ٤٦ .
(١٠٠) الموازنة : ١ / ٢٨٠ .
(١٠١) أسرار البلاغة : ١٣٠ .
(١٠٢) الموازنة : ١ / ٢٧٨ .
(١٠٣) نفسه : ٢ / ١٩ .
(١٠٤) نفسه : ٢ / ١٧ ، ١٨ .
(١٠٥) ابو تمام الطائي : ٧٧ . الأفيس والأليس : الشجاع وجمع الأليس الليس .
(١٠٦) عيار الشعر : ٦ .
(١٠٧) الوساطة : ٢٢ .
(١٠٨) أخبار ابي تمام : ٩٧ .
(١٠٩) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ١٩٨ .
(١١٠) اخبار ابي تمام : ٦٧ .
(١١١) الموازنة : ١ / ٥ .

(١١٢) الصورة الفنية : ٢٥٧ .
(١١٣) الكامل : ٣ / ١٣٢ .
(١١٤) الصورة الفنية : ٢٥٨ .
(١١٥) نفسه : ٢٤٧ .
(١١٦) نفسه : ٢٦٠ .
(١١٧) الموازنة : ١ / ٢٢ .
(١١٨) نفسه : ١ / ٢٥٠ .
(١١٩) الصورة الفنية : ٢٦٨ .
(١٢٠) الموازنة : ١ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(١٢١) نفسه : ١ / ٢٤٩ ، ٢٥٥ .
(١٢٢) نفسه : ١ / ٢٥٩ .
(١٢٣) نفسه : ١ / ٤١٧ .
(١٢٤) الحركة النقدية : ٢١١ .
(١٢٥) الموازنة : ١ / ٥٠٥ .
(١٢٦) الحركة النقدية : ٤١٨ .
(١٢٧) الحركة النقدية : ٣٥٦ .
(١٢٨) اسرار البلاغة : ١٣٣ .
(١٢٩) الموازنة : ١ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(١٣٠) النظام : ٢ / ٣٤ .
(١٣١) نفسه .
(١٣٢) نفسه .
(١٣٣) الموازنة : ١ / ٢٩ .
(١٣٤) نفسه : ١ / ٢٧٩ .
(١٣٥) النظام : ٣ / ١٦١ .
(١٣٦) نفسه : ٣ / ٦١ .
(١٣٧) نفسه .
(١٣٨) عني بحاليه عقله ودهره ، وقوله : عن وجه أمرد اشيب يعني نفسه ، ويقول : هو صغير السن ولكن سيبه عقله ودهره .
(١٣٩) النظام : ٢ / ٢٠٧ .
(١٤٠) يحذر المخاطب ان يغلبه الهوى فينظر الى الامور نظر الاشوس اي بعين مائلة .
(١٤١) النظام : ١ / ٢١٧ .
(١٤٢) النظام : ٥ / ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(١٤٣) الموازنة : ٢ / ٢١٠ .
(١٤٤) نفسه : ١ / ٤٦٦ .
(١٤٥) النظام : ٢ / ٤٧ .
(١٤٦) نفسه : ٣ / ٥٠ ، ٥١ .
(١٤٧) النظام : ٣ / ٢١١ .
(١٤٨) نفسه : ٥ / ١٢ .
(١٤٩) نفسه : ٥ / ٢٠ .
(١٥٠) نفسه : ٥ / ٩٩ . ضرح : نحى ودفع . العيص : الشجر الملتف .
(١٥١) نفسه : ٣ / ٦٦ .
(١٥٢) نفسه : ٢ / ٢٠٤ .
(١٥٣) النظام : ٢ / ٢٠٥ .
(١٥٤) الماذي الدروع والبلب الدروع القديمة والصياصي قرون محددة كانت تركب في الرماح مكان الاسنة .
(١٥٥) النظام : ٣ / ١٠٤ ، ١٠٥ .
(١٥٦) ابو تمام الطائي : ٧٧ . مشيق : قصر باليمامة ، زكن بضمتين موضع باليمامة ، يذبل : جبل .
(١٥٧) الموشح : ٥٠٥ .
(١٥٨ ، ١٥٩) الموازنة : ٢ / ٣٠ .
(١٦٠) النظام : ٢ / ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
(١٦١) النظام : ٢ / ٢٥٩ .
(١٦٢) أبو تمام الطائي : ٧٥ .
(١٦٣) نفسه .
(١٦٤) شرح التبريزي لديوان ابي تمام : ٢ / ٣٠٢ .
(١٦٥) ابو تمام الطائي : ٧٦ .
(١٦٦) نفسه .
(١٦٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٥٨ .
(١٦٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١٥٤ ، ١٥٥ .
(١٦٩) نفسه : ١٤٨ .
(١٧٠) نفسه : ١٤٩ .
(١٧١) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٦ .
(١٧٢) الصورة الفنية : ١٤٢ .
(١٧٣) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٣٤٠ .
(١٧٤) قضايا النقد العربي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٧٥) الموازنة : ١ / ١٣٨ وتنظر زيادة الواو في قوله (وإن) وهو خطأ قديم فيما يبدو .
(١٧٦) نفسه : ١ / ١٤٢ .
(١٧٧) نفسه .
(١٧٨) الخصومة بين القدماء والمحدثين : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(١٧٩) نفسه : ١٧٦ ، وينظر : من حديث الشعر والنثر : ١٠٤ .
(١٨٠) الخصومة بين القدماء والمحدثين : ١٧٦ .
(١٨١) نفسه .
(١٨٢) الموازنة : ١ / ٤٨١ .
(١٨٣) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
(١٨٤) الموازنة : ٢ / ١٠٥ .
(١٨٥) نفسه : ٢ / ٣٥٧ .
(١٨٦) يس : ١٤ .
(١٨٧) النظام : ٣ / ١٠٨ .
(١٨٨) نفسه : ٣ / ٤٣ .
(١٨٩) شرح التبريزي : ٢ / ٨٣ .
(١٩٠) نفسه : ١ / ٣٥٤ .
(١٩١) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٩٢) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .
(١٩٣) النقد المنهجي عند العرب : ١١٩ .
(١٩٤) نفسه : ١٢٤ .
(١٩٥) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ ، ٤١٨ والنقد المنهجي عند العرب : ١٢٤ .
(١٩٦) الموازنة : ١ / ٢١٦ .
(١٩٧) خصائص العربية : ٦٧ .
(١٩٨) اللغة والحضارة : ١٣٨ .
(١٩٩) يريد ان هذه الصنيعة ثيب عندك لانك قد اصطنعت مثلها مراراً ، وهي الكعاب – يريد البكر – عند هذا العائذ بك لانها اول ما اصطنعت اليه ، او لانها اكبر صنيعة صنعتها عنده ، والمعرم .

القليل المال .
(٢٠٠) الموازنة : ١ / ١٥٩ .
(٢٠١) تاريخ النقد الادبي : ١٧٩ .
(٢٠٢) الموازنة : ١ / ٢٣٤ .
(٢٠٣) العربية : ٨٨ .
(٢٠٤) الوساطة : ٨١ .
(٢٠٥) شرح التبريزي : ١ / ٣١٥ .
(٢٠٦) نفسه : ١ / ٢٩٠ .
(٢٠٧) نفسه : ٢ / ٤٦ .
(٢٠٨) تحرير التحبير : ٣٧٠ .
(٢٠٩) شرح التبريزي : ١ / ٢٩٢ .
(٢١٠) نفسه : ١ / ٣١٥ .
(٢١١) الاقتراح : ٢٦ .

المصادر

● ابو تمام الطائي (نجيب البهبيتي) ، دار الكتب ١٩٤٥ .
● أخبار ابي تمام (الصولي) تحـ . خليل محمود عساكر ورفيقيه ، بيروت ، د . ت .
● أسرار البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) تحـ .هـ . ريتر ، استانبول ١٩٥٤ .
● الاسس الجمالية في النقد العربي (عز الدين اسماعيل) ط ١ ، ١٩٥٥ .
● الالفاظ اللغوية (عبد الحميد حسن) معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ .
● الاقتراح (السيوطي) طبع مجتبائي بلا تاريخ .
● تاريخ النقد الادبي عند العرب (د . إحسان عباس) ط ١ ، بيروت ١٩٧١ .
● تحرير التحبير (ابن ابي الاصبع المصري) تحـ . د . حفني محمد شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ .
● الثابت والمتحول (أودونيس) ، ج ٢ ، دار العودة ، بيروت ط ١ ، ١٩٧٧ .
● الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام (د . محمود الربداوي) دار الفكر للطباعة والنشر .
● الحيوان (الجاحظ) تحـ . عبد السلام محمد هارون ، ط ١ ، ١٩٣٨ .
● خصائص العربية (محمد المبارك) معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .
● الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم (د . عثمان موافي) الاسكندرية .
● دروس في البلاغة وتطورها (د . جميل سعيد) بغداد ١٩٥١ .
● سر الفصاحة (ابن سنان الخفاجي) شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ١٦٩٦ .
● شرح ديوان ابي تمام للخطيب التبريزي .
● الشعر والشعراء (ابن قتيبة) تحـ . احمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .
● كتاب الصناعتين (ابو الهلال العسكري) تحـ . علي محمد البجاوي ورفيقه ط ١، ١٩٥٢ .
● الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي (د . جابر عصفور) القاهرة ١٩٧٤ .
● طراز المجالس (شهاب الدين احمد بن محمد الخفاجي) القاهرة ١٢٨٤ هـ .
● العربية (يوهان فك) ترجمة د . عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٥١ .
● العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (ابن رشيق القيرواني) تحـ . محيي الدين عبد الحميد ط ٢ ، ١٩٥٥ .
● عيار الشعر (ابن طباطبا العلوي) تحـ . د . طه الحاجري ورفيقه القاهرة ١٩٥٦ .
● الفن ومذاهبه في الشعر العربي (د . شوقي ضيف) ط ٣ ، ١٩٥٦ .
● قضايا النقد الادبي والبلاغة (د . محمد زكي العشماوي) القاهرة ١٩٦٧ .
● الكامل (المبرد) تحـ . محمد ابي الفضل ابراهيم ورفيقه ، القاهرة ١٩٥٦ .
● اللغة والحضارة (د . مصطفى مندور) الاسكندرية ١٩٧٤ .
● اللغة والمجتمع (د . علي عبد الواحد وافي) ط ٢ ، ١٩٥١ .
● المثل السائر (ابن الاثير) تحـ . محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٩ .
● معجم الادباء (ياقوت الحموي) ، بعناية الدكتور احمد فريد رفاعي ، مطبوعات المامون .
● من حديث الشعر والنثر (د . طه حسين) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٣٦ .
● منهاج البلغاء وسراج الادباء (حازم القرطاجني) تحـ . محمد الحبيب بن الخوجة ، ١٩٦٦ .
● الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري (الامدي) تحـ . السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر .
● الموشح (ابو عبيد الله المرزباني) تحـ . علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٦٥ .
● النظام في شرح شعر المتنبي وابي تمام (ابن المستوفي) تحـ . د . خلف رشيد نعمان بغداد ١٩٨٩ .
● النقد الادبي (د . سهير القلماوي) ط ٢ ، ١٩٥٩ .
● النقد الجمالي واثره في النقد العربي (روز غريب) ط ١ ، ١٩٥٢ .
● نقد الشعر (قدامة بن جعفر) تحـ . كمال مصطفى ، ط ١ ، ١٩٤٨ .
● النقد اللغوي عند العرب (د . نعمة رحيم العزاوي) بغداد ١٩٧٨ .
● النقد المنهجي عند العرب (د . محمد مندور) دار نهضة مصر للطبع والنشر ، د . ت .
● الوساطة بين المتنبي وخصومه (للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني) تحـ . محمد ابي الفضل ابراهيم ورفيقه ، ط ٣ ، د . ت .

تحقيق

د. هاشم طه شلاش
كلية التربية / ابن رشد / جامعة بغداد

الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة ولا مانع

تأليف

محمد بن يوسف الدمياطي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ

مقدمة

وبعد فقد تفضل الزميل الكريم الدكتور طه محسن رئيس قسم اللغة العربية في كلية التربية - جامعة الانبار، فأهدى اليّ مشكوراً مخطوطة صرفية في أبنية الافعال، كان قد نقلها من مكتبة خسرو باشا في أثناء زيارته للمكتبات الموجودة في استانبول، والمخطوطة بعنوان: «الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة ولا مانع» لمحمد بن يوسف الدمياطي. ووجدت أن المخطوطة جديرة بالنشر لما فيها من فوائد صرفية تعليمية في موضوع الافعال الثلاثية المجردة وضبطها، لاستيفائها ضوابط الأبواب المختلفة، وتلمسها لما شذّ عن تلك الضوابط اعتماداً على أقوال أيمّة العلم في هذا الموضوع.

وقد اجتهدتُ في ضبط النص، وراجعتهُ ما يقتضي التحقيق مراجعته، وأثبتُّ ما وجدته نافعاً في الهوامش، ولم أدخر وسعاً في ذلك فإن وُفِّقتُ في عملي فمن الله التوفيق.

ترجمة المؤلف :

لم نقف على ترجمة وافية للمؤلف تشير الى ولادته ونشأته ومصنفاته. وما ذكره محمد المحبّي[1] في كتابه خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر لا يعدو أن يكون معلومات يسيرة لا تُغني الدارس المتطلع الى تفصيل يكشف عن شخصية المؤلف بما يرضي تطلّعه. فقد ذكر أنه محمد بن يوسف بن عبد القادر الدمياطي المصري الحنفي، مفتي مذهب النعمان بالقاهرة، المبدي من تحريراته التحقيقات الباهرة، المتكلّم في المجالس، والمظهر من دُرر بحره النفائس، الذي جمع وألف وكتب وأفاد ... ولازم شيوخ الحنفية من المصريين كالشيخ الامام زين بن نُجيم وأخيه الشيخ عمر، وشيخ الفقهاء في وقته الشيخ علي بن غانم المقدسي وغيرهم، وأجازوه، وتصدّر للتدريس ونفع الناس ...

وكانت وفاته بمصر يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الثاني سنة أربع عشرة وألف.

وقد نقل عن الخفاجي - من غير إشارة الى كتابه الذي نقل منه - مدحاً للمؤلف وثناء عليه ووصفاً لاخلاقه، وأبياتاً من بعض نظمه.

وقد لخص عمر رضا كحالة في كتابه معجم المؤلفين[2] ما أورده محمد المحبيّ في خلاصة الاثر بقوله «محمد بن يوسف بن عبد القادر الدمياطي المصري الحنفي، فقيه أفتى وجمع وألّف وتوفي بمصر» ونقل سنة وفاته منه.

الزهر اليانع :

صرّح المؤلف نفسه بنسبة هذه الرسالة إليه اذ قال في مقدمتها: «فيقول الفقير الى الله تعالى محمد بن يوسف الدمياطي الحنفي ..».

وأشار الى أن هذه الرسالة هي اجابة عن سؤال وجّهه بعض الاخوان من علماء عصره عن معنى قول الفيروز آبادي في ديباجته في كتابه المسمى بالقاموس المحيط والقابوس الوسيط ما نصّه: «واذا ذكرتُ المصدر مطلقاً أو الماضي بدون الآتي ولا مانع فالفعل على مثال كتبَ، واذا ذكرتُ آتيه بلا تقييد فهو على مثال ضرب»، وحدّد موضع السؤال بقول صاحب القاموس: «و لامانع»[3]

وكتب رسالته بأسلوب واضح في غالب المواضع، ولم يخلُ أسلوبه من تأثير الفلسفة والمنطق احياناً فهو يقول مثلاً: «ان الشرط يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم»[4]

وقد سار المؤلف في عرض رسالته على نَهج مُرتَّب غاية الترتيب، وقد بدأ بعرض أقوال علماء هذا الفن في هذه المسألة، ثم أخذ يوضّح أقوالهم توضيحاً مبسوطاً، كان يختمه بالتأييد أو النقد أو الترجيح.

وقد استقى المؤلف مادة رسالته من عدد من المصادر يقتضي المقام ايراد اسماء مؤلفيها بحسب تسلسل وفياتهم:

١ - الكسائي علي بن حمزة المتوفى سنة ١٨٩ هـ. ولم يصرح

بالمصدر الذي نقل منه في موضع واحد من رسالته .
٢ ـ الجوهري : اسماعيل بن حمّاد المتوفى في حدود سنة ٤٠٠ هـ . وقد صرّح المؤلف بالنقل من كتابه الصحاح في موضعين .

٣ ـ ابن مالك الطائي : جمال الدين محمد بن عبد الله النحوي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ . وقد صرح بالنقل من كتابيه .
أ ـ لامية الافعال في ثمانية مواضع .
ب ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد في أربعة مواضع
٤ ـ ابن فلاح : تقي الدين أبو منصور بن فلاح بن محمد بن محمد اليمني النحوي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ ، وقد صرح بالنقل من كتابه الكافي في موضع واحد .
٥ ـ الفيروز آبادي : مجد الدين المتوفى سنة ٨١٧ هـ وقد صرح بالنقل من كتابه المشهور القاموس المحيط في ستة مواضع .
٦ ـ بحرق اليمني : أبو عبد الله محمد بن عمر الحضرمي المتوفى سنة ٩٣٠ هـ . وقد صرح بالنقل من كتابه شرح لامية الافعال لابن مالك المسمّى « فتح الاقفال وحلّ الاشكال بشرح لامية الافعال » في عشرة مواضع .
٧ ـ البرماوي : لم أقف على الرجل المقصود بهذا اللقب ولم أقف على نسبة أحد شروح لامية الافعال الى واحدٍ ممن لُقّبوا بهذا اللقب . وقد صرّح الدمياطي بالنقل من هذا الشرح في موضع واحد .

المخطوطة :

توجد المخطوطة في مكتبة خسرو باشا في اسطنبول ، وهي واحدة من مجموع ضمّ ثماني عشرة مخطوطة في علوم مختلفة ، رقمه في المكتبة ٧٥٤ .
والمجموع في مجلد واحد خطّه واضح جميل موحّد ، قياسه (١٥ × ٢٠) ، وتبدأ مخطوطة (الزهر اليانع) من الورقة ١٣٧ ، وتنتهي بالورقة (١٤٥ هـ) ، وتشتمل الصفحة الواحدة من كل ورقة على خمسة عشر سطراً . وتنتهي الصفحة بالتعقيبة التي تشير الى اللفظة الواردة في بداية الصفحة التالية .

اما الرسائل الاخرى التي يضمّها المجموع فهي :

١ ـ شرح خطبة القاموس لمحمد امين البخاري أمير بانشاه المتوفى في حدود سنة ٩٨٧ هـ .
٢ ـ الحاصل بالمصدر لمحمد أمين البخاري .
٣ ـ تحقيق الحرف (قد) لمحمد أمين البخاري .
٤ ـ اعراب حديث التسبيح : لم يذكر اسم مؤلفه .
٥ ـ الفرق بين الضاد والظاء : منظومة لابي نصر محمد بن أحمد الفروخي الكاتب المتوفى سنة ٧٥٥ هـ كما ذكر الاستاذ الفاضل الدكتور طه محسن .(*)
٦ ـ مسألة تعند ما بعد إلّا لجمال الدين بن هشام الانصاري المتوفى سنة ٧٦١ هـ .
٧ ـ الكلام على قوله تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله » ، لجمال الدين بن هشام الانصاري .
٨ ـ حقيقة الاستفهام والفرق بين أدواته : لجمال الدين بن هشام الانصاري .
٩ ـ مسائل في موضوعات متفرقة أجاب عنها جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .
١٠ ـ المقالات المسفرة عن دلائل المغفرة : لنور الدين علي بن عبد الله بن أحمد السّمهودي المتوفى سنة ٩١١ هـ .
١١ ـ رسالة على اوائل صحيح البخاري : لجلال الدين السيوطي
١٢ ـ الشماريخ في علم التاريخ : لجلال الدين السيوطي .
١٣ ـ جمع الشهور والايّام : منظومة ليحيى بن سلامة بن الحسن الحصكفي المتوفى سنة ٥٥١ هـ .
١٤ ـ الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة ولا مانع : لمحمد بن يوسف الدمياطي الحنفي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ .
١٥ ـ حزب البحر الاكبر : لابي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي ، المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .
١٦ ـ حزب محيي الدين النووي .
١٧ ـ تحفة السلوك في فضل السواك : لابي العباس أحمد بن محمد الزاهد المتوفى سنة ٨١٩ هـ .
١٨ ـ شرح حزب البحر لابي الحسن الشاذلي : لاحمد بن محمد بن عيسى المعروف بزروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ .

عملنا في التحقيق .

١ ـ ضبطنا النص بالحركات ضبطاً مفيداً
٢ ـ استخدمنا النقاط والفواصل حتى تكون جمل النص واضحة عند القارىء .
٣ ـ أثبتنا في المتن ما رأيناه صحيحاً في المخطوطة ، ونبهنا في الهوامش على ما هو موجود في الأصل .
٤ ـ خرّجنا الشواهد القليلة في مظانها التي وردت فيها .
٥ ـ خرجنا أقوال علماء اللغة الواردة اسماؤهم في المتن وأشرنا الى مواضع ترجماتهم قدر المستطاع .

[النصّ]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الاحد الذي بيده تصريفُ الافعال ، الصمد الفرد المنزّه عن كونه . أجوفَ او ذا مثال ، العالِمُ بخفياتِ الامورِ وظواهرها بلا ريب اشكال ، الكاشفُ لمن شاءَ عن حقائقِ دقائقِ العلوم فيترجمُ بلسانِ القالِ عن لسان الحال ، والصلاةُ والسلامُ على أفضل الخلقِ من ملك وبَشر ، بما أودعه الله فيه من كرائم الخلال[1] ، وبما أتحفه به من أنسه في حضراتِ قُدسِه ، حين أسفرَ له عن ذلك الجمال ، وصلّى الله عليه وعلى آله وصحبه خيرِ صحب وخيرِ آل .

و بعد ، فيقول الفقيرُ الى الله تعالى محمد بن يوسف الدمياطي الحنفي : قد تكرر السُؤالُ من بعضِ الاخوان الذين هم خلاصةُ ذوي العلوم ، وإنسان عين الزمان ، على قول العلامة ذي المؤلفاتِ العديدةِ ، والاسفارِ الجامعةِ المفيدةِ ، أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن محمّد الفيروز آبادي ، في ديباجة كتابه المسمّى بالقاموس المحيط والقاموس الوسيط ما نصُّه :[2] « واذا ذكرتُ المصدرَ مطلقاً او الماضي بدون الآتي[3] ولا مانع ، فالفعلُ على ١٣٨ ظ / مثال كتب . واذا ذكرت آتيه بلا تقييد فهو على مثال ضَربَ » . فوقع السؤال عن ذلك ممن وقعت الاشارةُ إليه من الاخوان ، ما معنى قولهِ ولا مانع ؟ فما المانع من هذا الشان ؟ فاستخرتُ الله تعالى ، وكتبتُ على ذلك ما تيسّر جمعهُ ، وأرجو من الله العظيم ان يَعمَّ نفعُه ، مُسَمياً لذلك بـ« الزهر اليانع على قول صاحب القاموس في الديباجة ولا مانع » ، وخدمت به حضرة جناب المولى الاعظم ، والمخدوم الكريم المعظّم ، ملك علماء المسلمين ، وأوحد نبلاء العالمين ، فرد أبناء الزمان ، وواحد نوع الانسان ، رحلة الشتاء والصيف ، حاوي فضيلتي القلم والسّيف ، حلال المشكلات بتحقيقاته ، كشاف المعضلات بتدقيقاته مزين الممالك العثمانية ، ومشرف الامصار المرادية[4] الخاقانية حضرة مولانا حسين افندي باشازادة[5] ، أدام الله له السيادة والسعادة ، وبلّغه في الدارين مُراده[6] ، وأتاهُ في الجنّة الحُسنى وزيادة ، ولا زالت الايام متجملة برياسته ، والاقدارُ جارية بارادته . آمين .

فقلت مستعيناً بالله الذي بيدهِ أزمّة التوفيق ، والمرشد الى مقامات ١٣٩و / التوفيق : إعلم أنّ الذي يدلُّ عليه كلام الشيخ ابن مالك[7] ، رحمه الله تعالى في لامية الافعال[8] ، انّ المضارعَ لفَعَلَ المفتوح العين إن كان يفعُل بضم العين أو يفعِل بكسرها ، فكلٌّ منهما إماّ أن يكون قياسياً وإما ان يكون سماعياً . فلنفرضُ الكلام على ذلك في فصلين .

الفصل الاول

في الكلام على فَعَلَ يفعُلُ

إعلمْ أنّ فَعَلَ المفتوح العين الذي مضارعهُ يفعُل بضمّها ، تارة يكون الضمُّ قياسياً ، وتارة يكون سماعياً ، فيكون قياسيا في أربعة مواضع :

في أربعة مواضع :

الاول : إذا كان عينُه واواً نحو : قال يقول ، وكان يكون .

الثاني : إذا كان لامُه واواً نحو غزا يغزو ونجا ينجو .

الثالث : إذا كان مضاعفاً متعدياً نحو : مدّه يمُده وعدّه يعدُّه .

الرابع : إذا قُصِد بالفعل غَلَبةُ المفاخرة : كسابقتُه فانا أسبقه بضم الباء مع أنه في غير المفاخرة يكون بكسرها[9] .

فهذه المواضع القياس فيها ان يكون المضارع مضموماً ، وإلى ذلك الإشارة يقول ابن مالك في اللامية :

....

- والمضارع من فَعَلْتُ إن جُعِلا

عينا له الواو أولاماً يُجاءُ به   مضمومَ عين وهذا الحكم قد بُذِلا

لما لِنَذْ مُفَاخِر وليس له   داعي لزوم انكسار العين نحو قلا[10]

بقوله قبل ذلك :

كذا المضاعف لازماً كحنَّ طلا ١٣٩

وضمُّ عينَ مُعدّاه ويندرُ ذا كسرٍ كما لازمٌ ذا ضمٍّ احتُملا[11]

تنبيهات :

★★★

الأول : يستثنى مما اذا كان عينُه واواً ما إذا كان لامه ياءً نحو شوَى يشوِي وغَوَى يغوِي وما أشبه ذلك فإنّه يكون بالكسر لثقل اجتماع الواوين .

الثاني : شرط في التسهيل[12] للزوم الضمّ فيما كانت لامه واواً ان لا يكون عينُه حَرف حلق وهو مقتضى كلامهِ في اللامية حيث قال :

عين المضارع مِن فَعَلْتَ حيث خلا

من جالب الفتحِ كالمبنيّ من عَتَلا

فاكسر أو اضمُمْ .... [13]

واعترض عليه العلّامة اليمني بَحْرَق في شرح اللامية[14]

فقال : « وكأنّه رحمه الله لم يُمعِن النظر في ذلك ، فإني تتبعتُ موادّه فوجدتُ غالبَ حلقي العينِ مضموماً ، ولم ينفرد الفتحُ الا في قليل منها ، وجاءت موادُ منه بالضمّ والفتح ، فالمضموم : ثغت الشاة تثغو صَوَّتَتْ ، وجحا التراب يجحوه فرّقه ، وعدّ من ذلك خمسة عشر فعلاً[16] انفردت بالضمِّ على القياس ». ثم قال : « ولم أظفر بما انفرد بالفتح سوى طحا الارض يطحاها بسطها ، وطَغَى يطْغَى جاوز القدر ، وفيه لغة كرضي[17] ، وفحا التراب يفحاه[18] فهذه ثلاثة ، وجاز في أفعالٍ الضمُّ والفتح كدحى الأرض يدحوها ويدحاها ، وسحا التُّراب يسحوه ويسحاه . ١٤ و / جَرَفه ، وصغى اليه يصغو ويصغَى ، وضَحَى للشمس يضحو ويضْحَى فهو ضاح : برز ، وطها اللحمَ يطهوه ويطهاه : أنضجه طبخاً وشيّاً ، ومحا الكتابَ يمحوه ويمحاه ، ونحا نحوه ينحو وينحا : قصده ، فهذه سبعة انتهى »[19] .

وأقولُ : الشارحُ المذكور[20] هو الذي لم يمعن النظر في كلام ابن مالك ، وذلك لان ابن مالك شرط في التسهيل للزوم الضمّ ان لا تكون عينُه حرف حلق ، وما ذكر الشارحُ مما وجده من غالب الحلقي مضموماً لو سُمِعَ فيه الفتحُ لجازَ كما هو في الثلاثة التي انفردت بالفتح ، وكما في السبعة التي فيها الامران ، ليس الضمُّ فيها لازماً ، بل ولا الأفعال التي انفردت بالضمّ ليس الضمُّ فيها لازماً لما تقرّرَ من أن الشرط يلزم من عدمه العدم ، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم ، اللهم لو كان ابن مالك قد ذكر أنّ شرط مجيء الضمّ انتفاء حرف الحلق لكان يأتي ماذكر ، فابن مالك جعل ذلك شرطاً للزوم لا للاتيان ، والظاهر انه انعكس على الشارح الشرط بالمشروط ، لانه قد وقع له مثل ذلك في الافعال الحلقيّة فقال[21] وشذّ بغاه يبغيه أي : طلبه ، ونعى الميْت ينعيه : ندبه ، ووخاه يخِيه ووعاه يعيه ووهى يَهِي فتأملْ .

التنبيه الثالث : ١٤٠ ظ / يستثنى من المضاعف المتعدي نوعان :

ما أنفرد فيه الكسر وهو فِعْل واحدٌ : حَبَّه يَحِبُّه ، وهي لغة في أحبَّه ، ومنه صيغ المحبوب ، وبهذه اللغة قرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله وأبو رجاء العطاردي ، واسمه عمران قوله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحِبّكم الله ﴾[22] بفتح أول الفعلين وكسر ثانيهما . قال في الصحاح [23] « ولا يأتي في المضاعف يفعِل بالكسر الاو يُشركه يَفعل بالضمّ إذا كان متعدياً خلا هذا الحرف »

النوع الثاني : ذكر ابن مالك[24] خمسة أفعال يجوز فيها الوجهان ، الضمّ والكسر وهي : هَرّ الشيء : كرِهَهُ ، وأمّا هَرّ الكلبُ اي : نبحَ فهو بالكسر لا غير ، وشدّ الشيء أوثقه ، وعلّة الشّراب : سقاه عَلَلا بعد نَهَل ، وبتّه ، قطعه ونَمّ الحديثَ : حمله وأفشاه وزاد عليه الشارحُ اليمني[25] أربعة أفعال ، وهي : نثّ الخبر : أفشاه ، وشجّ رأسه ، وأضّه : ألجأه ، ورَمّه : أصلحه ، وزدتُ عليهما فِعلين وهما : صَرّه يصُرّه : إذا جمعه ، وبهما قرأ ابن عباس : « فصُرّهُنّ » بضمّ الصاد وكسرها مع تشديد الراء ، وهش الورقَ يهشهُ ويهِشه خبطه[27] بعصا ليتمات[28] .

التنبيه الرابع : ١٤١ و / يستثنى من غلبة المغاخر ما إذا كان في الفعل ما يقتضي كون مضارعه على يفعِل بالكسر وسيأتي ذلك في الفصل الثاني ، وما إذا كان عينُه أو لامهُ حرف حلق عند الكسائي[29] ووافقه الجوهري[30] وصاحب القاموس[31] والعبارة لصاحب القاموس : خاصَمَهُ مخاصمةً وخُصُومةً فخَصمه يخصُمه غلبه وهو شاذ لأن فاعلتُه ففعلته يردُّ يفعل منه إلى

الضمّ ، إن لم تكن عينُه حرف حلق فإنه بالفتح كفاخرهفخره يفخَرُه انتهى . وماعدا ما تقدّم من المواضع الاربعة فهو موقوف على السماع ، فما شيعَ مضموماً اتُبع ، ومالا فلا نحو نَصر ينصرُ ، وكتب يكتبُ ، ودخل يدخُل ، ولولا خوف الإطالة لذكرت الافعال المسموعة بالضمّ في المضارع وهي مئتان وخمسة وثلاثون وما فيه الوجهان ، وما فيه ثلاثة الأوجه[22] ، والكلام على ذلك مستوفٍ في شرح لامية الافعال لليمني فراجعه .[23]

الفصل الثاني

في الكلام على فَعَل يفعِلُ بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع اعلم انّ هذا النوع أيضاً على قسمين : قياسي وسماعي : فالقياسي أيضاً واقع في أربعة مواضع :

الاول : إذا كان فاؤه واواً نحو: وَعَد ١٠٤١ / يَعِدُ ، ووزن يزن وما أشبه ذلك .

الثاني : إذا كان عينُه ياءً نحو باع يبيعُ ومال يميلُ .

الثالث : إذا كان لامُه ياءً نحو: رمى يرمي ، وأتى يأتي .

الرابع : إذا كان مضاعفاً لازماً كحنَّ يحِنُّ ، وأنَّ يئِنُّ . فهذه المواضع الاربعة القياس فيها أن يكون المضارع مكسوراً وإلى ذلك الإشارة بقول ابن مالك في اللاميّة :[24]

.... وابِنْ
كسْراً لعينِ مضارعٍ يلي فَعَلا
ذا الواو فاءً أو اليا عيناً أو كأتى
كذا المضاعف لازماً كحنَّ طلا

تنبيهات :

الاول : صرّح في التسهيل بانّ سائر العرب غير بني عامر تلتزم كسر مضارع ما فاؤه واو ، ولم يستثن منه شيئاً ولا شرط له شرطاً ، وهو مقتضى كلامه في اللاميّة ، لكن قال الشارح اليمني :[26] وذلك عجيب من الناظم فانه قد جاءت منه أفعال بالفتح ، بل أنا أقول باشتراط كون لامه غير حرف حلق فإنني تتبعت موادّه فوجدت حلقيّ اللام منه مفتوحاً كوجَأ أدنثيه يَجَأ : رضّ خِصْيتيه ، ووذَغه يذغه : تركه / ووزغه يزَغه : كفّه ، ووضَعه يضَعُه ، ووقَع يقَعُ ، ووثَغ رأسه يثغُه : شدخه ، وولَغ الكلبُ يلَغُ ، ووَنِه يَنِهُ ، اذا فطِن ، ولم اعثر على شيء من ذلك غير وضَع الامر يضِعُ ، انتهى ، قلتُ : ١٤٢ / مجمل كلام ابن مالك في الحكم على سائر العرب غير بني عامر أنّها تكسر مضارع هذا النوع إما لفظاً او تقديراً . فإمّا لفظاً فظاهر وتقديراً فمما ذكره الشارح من الافعال الثمانية بالفتح ، فإن قلت : من أين [عرف][27] انها مكسورة تقديراً ؟ قلت : الدليل على أنه مكسور تقديراً حذفُ الواو من الافعال الثمانية للقاعدة المتقررة من حذف الواو إذا وقعت بين ياء مفتوحة وكسرة ، لان هذه الفتحة تشبه الفتحة النائبة عن الكسرة فيما لا ينصرف في الجمع المعتلّ بالياء الموازن لمفاعل كجوارٍ ، فإنه في حال جره يُجرُّ بالفتحة ، وكان مقتضى ذلك أن تظهر الفتحة فيه على الياء ، لكن حكموا بان النائب[28] عن الثقيل وإن كان خفيفاً في نفسه ثقيلٌ فلم تظهر الفتحة فيه في حال الجرِّ لذلك ، وكذلك هذا فإنّ حرف الحلق لما كان ثقيلاً ، والكسرة معه ثقيلة أقاموا هذه الفتحة لخفتها مقامَ الكسرة التي كانت مستحقة ، فهي وإنْ كانت خفيفةً في نفسها فهي ثقيلة ، ولاجل ذلك حذفت الواو من هذه الافعال كلها بخلاف وجل يوجَل لانّ ماضيه مكسور العين فالمضارع جاء مفتوحاً على القياس لانه من باب علم يعلَمُ ، فالفتحة فيه لفظاً وتقديراً لا لفظاً فقط كما تقدّم ، فلاجل ذلك تثبت الواو . ١٤٢ ظ / قلتُ : فما تصنعُ في وسِع يسَع ؟ فلِمَ لا يكون مثل وجِلَ يوْجَلُ ؟ قلتُ : يُحملُ على أنه من الباب الشاذّ الذي هو باب حسِب يحسِبُ ، فأقيمت الفتحةُ فيه مقام الكسرة ، فلاجل ذلك حذفت الواو ، فكل موضع حُذفت منه الواو فالفتحة فيه قائمة مقام الكسرة لاجل ثقل حرف الحلق ، ومالا فلا فإنْ قُلتَ : قد يَثْبتُ الواو في أفعال حلقية جاءت بالفتح ، وهي : وغِر صدرُه يغِرُ ويَوْغَرُ بمعنى توقّد ، ووجِر يجِرُ ويوجَرُ بمعناه ، ووِلهَ يلِه ويوْلَه : ذهب عقلهُ ، فهلّا حذفت الواو في حال الفتح أيضاً ، قلتُ : الذي يُفهم مما تقدّم أنّ وجود حرف الحلق شرط لحذف الواو من يفْعَل بالفتح ، وقد عُلِم من التقرير ان الشرط لا يلزم من وجوده الوجود ، نعم لو حُذِفتِ الواو من يفْعَل بالفتح بدون حروف الحلق لكان ذلك وارداً فتامّل فإنه في غايةٍ من التحقيق في هذا النظام وقال في القاموس :[29] وَجَده يجِدهُ ويجُدهُ بالضم ولا نظير له انتهى ، فهو في غاية الشذوذ .

التنبيه الثاني : ذكر في التسهيل[40] أيضاً أنّ العرب جميعاً التزمتْ كسر مضارع ما عينُه ياء ولم يشذّ منه شيء فحينئذٍ يحمل نحو بات / ١٤٣ و / يبيتُ ويباتُ ، ونال ينالُه وينيله أنّ المكسور مضارع المفتوح والمفتوح مضارع المكسور .

التنبيه الثالث : يستثنى من يائي اللام أبى يأبى على أنه نقل في القاموس :[41] أبى الشيء يأبيه بالكسر على القياس أيضاً ، وذكر في التسهيل[42] أيضاً أن التزام كسر هذا النوع لغة غير طيء من سائر العرب . قال الشارح اليمني :[43] ومفهومه أن طيئاً يفتحونه قياساً ، ولم ينقله غيره عنهم إلّا في قلاه يقلاهُ قِلى ، أي : أبغضه ، قلت : قال العلامة ابن فلاح[44] في كافيه :[45] وما جاء على يَفْعَل بفتح العين من غير حرف الحلق شاذّ وقد نقلت ألفاظ : أبى يأبى ، وقلى يقلى ، وسَلى يسلى ، وجَبَى يجبى ، وغشى الليل يغشى ، فهذه تزاد على ما نقله غيره عنهم .

التنبيه الرابع : يستثنى من المضاعف اللازم ضربان : الأول : مايشارك الكسر فيه الضم ،[46] وذكر ابن مالك في اللامية[47] أنها ثمانية عشر فعلاً وهي : صدّ عن الشيء : أعرض ، وصدّ منه : ضَجّ وضَجِر ، وأثّ ، أي : كثر ، وخَرّ ، أي : سقط ، وحنّت المرأة ، أي : تركت الزينة ، وتَرّت العين أي : غزر دمعها ، وجَدّ في عمله ، أي : قصده بعزم وهمّة ، وتَرّت يدُه بالمثناة ، وطرّت بمعناه ، أي طارت عند القطع ، ودرّت ١٤٣ ظ / باللّبن ، أي : بكثرة ، وجَمّ الماءُ : كثُر واجتمعَ ، وشبّ الحصانُ اذا فرح ونشط فرفع يديه جميعاً ، وعَنّ له ، أي : عَرَض ، وفَحّتِ الافعى بالمهملة والمعجمة :[48] اذا نفخت بفمها وصوّتت ، وشذّ اذا انفرد ، وشحّ ، أي : بَخِل ، وشطّت الدار أي : بعُدت ، ونَسّ ، أي : جَفّ ونَضَبت رطوبتُه ، وحَرّ النهارُ ، أي : حَمِيت شمسُه .

وزاد عليه اليمني ثمانية افعال وهي : شتّ ، أي : تفرّق ، وعَرّت الناقةُ بالمهملتين ، أي : سلحت ، وقَرّ ، أي : برد ، وأزّت القِدرُ : سُمع لغليانها صوت ، ورزّت الجرادة بتقديم المهملة : غرزت ذنبها لتبيض ، وأضّت الناقةُ ، اشتدّ لحمُها وسمنت ، وكعّ عن الشيء : جَبُن وضَعُف ، وخَلّ لحمُه : هُزِلَ ، انتهى ، فتصير الافعال اللازمة التي فيها الوجهان ستة وعشرين .

وزاد العلامة البرماوي في شرح اللامية[50] لجّ في الامر يلِجّ باللام والجيم لُجوجاً ولَجاجاً ولَجَاجةً ، وهو التمادي فيما لا يليق .

الضرب الثاني : ما ينفرد فيه الضمّ ، وذكر في اللامية :[51] أنها ثمانية وعشرون وهي : مَرّ به : جاوزه ، وجَلّ عن منزله : ارتحل ، بخلاف جَلّ قدرهُ فبالكسر فقط ، وهبت الرِّيحُ نسمت ، وذرّت الشمس : فاض شعاعُها ١٤٤ و / وأجّت النارُ والريحُ : سُمع لها دوي ، وكَرّ على قرنه : رَجَع ، وهَمّ بالامر : قَصَده ، وغَمّ النبتُ : طال ، وزمّ بانفه : اذا تكبّر ، وسَحّ المطرُ : نزلَ بكثرة ، ومَلّ في سيره : اسرع ، وألّ السيفُ ، لَمَع ، وشكّ في الامر : تردّد فيه ، وأبّ : تهيّأ للسفر ، وهدّ في المَشي ، أي : عدا ، وشق عليه الامر ، اذا أضرّ به ، وخَشّ في الشيء ، اذا دخل ، وغلّ فيه ، أي : دخل فيه ايضاً ، ونشّ القومُ : حسنت حالُهم بعد بؤس ، وجَنّ عليه الليلُ : دخل ، ورشّ السحاب : امطر ، وطشّ : امطر ايضاً مطراً خفيفاً ، وثلّ ، أي : راث ، وطَلّ دمُه ، أي : ضاعَ ، وخبّ الحصانُ ، أي : اسرع ، وكَمّ النخلُ ، اذا اطلع اكمامه ، وعسّت الناقةُ ، رَعَت وحدها ، ومسّت أيضاً كعسّت .

وانتقد عليه الشارح اليمني[52] في ثلاثة منها وهي : ألّ وأبّ وطشّ فذكر نقلاً عن القاموس[53] أنها بوجهين .

وزاد عليه الشارح المذكور[54] في التزام الضمّ في المضاعف اللازم ثمانية عشر فعلاً وهي : متّ اليه ، وسخ الماءُ : سال ، وسخ بطنُه : رقّ الخارج منه ، وأخّ بالمهملة : سَفَل ، وسخّت الجرادة بالمعجمة : غرزت ذنَبَها لتبيض ، وأدّ البعيرُ : رَجّع الحنين في جوفه ، وحدّ عليه : غضب ، وعَزّ الظليمُ : صاح ، وحصّ الحمارُ إذا ضرط وعدا وضمّ اذنيه وخَضّع ١٤٤ ظ / بذنبه ، ولطّت الناقة بذنبها ، الصقته بين فخذيها ، وكفّ بصره ، عميَ ، والناقة تاكلت أسنانُها من الكِبر ، وبقّ في كلامه : اكثر ، وشقّ بَصرُ الميت : تبع روحه ، وعكّ يومُنا ، اشتدّ حره مع سكون ريحه ، وفكّ الرجلُ ، أي : هرم ، وأمّت المرأةُ : صارت امّاً ، وغَمّ يومنا ، اشتدّ حَرّه ، وصنّ عنه ، صَدّ واعْرَض ، فهذه الثمانية عشر تلحق بالثمانية والعشرين فيصير المستثنى ستة وأربعين ، وماعدا ماذكر من الانواع الاربعة المتقدمة فالكسرُ فيها سماعي كضَرَب يضرِب ، وجلس يجلِس ، فعُلم من جميع ما تقدّمَ ان السماعي من الافعال بضمّ عين مضارع فَعَل المفتوح أو بكسرها على طريق الاجمال ماعدا واويّ العين واللام ويائيهما ، وواويّ الفاء والمضاعف مطلقاً وما لغلبة المفاخر ، وقد نظمتُ ذلك فقلتُ :

ضَمُّ المضـــارع عينـــا او بكسرتـــه … قد جا قياساً ومسموعاً فخذ جُملا
ينقاس ضمّاً إذا ما الواو فيه أتى … عيناً كذاك إذا في اللام قد جُعلا
وفي المضـــارع مـــوصـــوفـــا بتعديـة … الا الـــذي لغـــة عن ذلـــك اعتـــزلا
وفي الذي قد أتى من ذي مفـــاخرة … ولم يكن بدواعي الكسر قد شُغِـــلا
١٤٥ و / ولم يكن عند بعض غير أوله … أي فائه من حروف الحلق قد حصلا
وخذ قياســـاً لكسرٍ في المضـــارع إنْ … بـــالواو فـــاه أتى أو عينـــاً او كمـــلا

بـالـيـاء أو ذا لـزوم او مضـاعفـةٍ ... سوى الذي جاء مضموماً وما اشتملا

عـلى انضمـام وكسرٍ في مضـارعـه ... ومـا عـدا ذاك مسمـوعٌ كمـا نُقِـلا

ولنرجع الى كلام صاحب القاموس في قوله في الديباجة ولا مانع ، اذا ذكرتُ المصدر مطلقاً الى آخره ، فقوله ولا مانع أي لا مانع من الضم وهي الاقسام الاربعة المذكورة أول الفصل الثاني الموجبة للكسر ، فاذا ترجم بالمصدر أو بالفعل الماضي فقط وكان من الاقسام المذكورة فهو بالكسر ، فقد انكشف بحمد الله تعالى قوله : « ولا مانع ، فقوله في فصل الواو من باب الباء : الوَثْبُ ، الطفر ، فقد ترجم بالمصدر فلولا قوله : ولا مانع لحكمنا بانه من باب كتب لكن منع من ذلك كون فائه واواً ، وهو موجب للكسر ومانع من الضم كما يعلم ذلك مما قدمناه في هذه الرسالة ، وكذلك قوله في فصل الفاء من باب الهمز : « الفَيءُ : ما كان شمساً فنسخه الظِلُّ ، والرجوع »[61] فهو وان ترجم له بالمصدر فهو من باب ضربَ لانّه يائي العين . وكقوله ١٤٥ ظ / في فصل الغين من باب الثاء : الغيث : المطر ، وغاث الله البلاد »[62] فترجم المصدر أولاً ثم بالماضي بدون الاتي ، وهو من باب ضَرَبَ لكونه يائي العين ، وقِس على ذلك ما وقع من نظائره ، فلا نطيل بذكر الامثلة وهذا آخر ما تيسَّرَ جمعه في هذا المقام ، والحمدُ لله ولي الانعام ، وعلى رسولِهِ أفضلُ الصلاة والسلام وهو حسبي ونعِمَ الوكيل ، تمّ .

هوامش المقدمة

(١) خلاصة الاثر ٤ / ٢٧٠ ـ ٢٧١

(٢) ج ١٢ ص ١٢٧

(٣) القاموس المحيط ٤

(٤) الزهر اليانع

(٥) مجموعات مخطوطة في مكتبات استانبول ص ٤٩ (الهامش)

هوامش النص

(١) في الاصل « كرايم »

(٢) القاموس المحيط والقابوس الوسيط ص ٤ .

(٣) أي المضارع وقد ورد في الاصل (الاتي) وهو تصحيف .

(٤) نسبة الى مراد الرابع

(٥) لم نقف على هُويّة المذكور

(٦) في الاصل (مزاده) والتصحيح يقتضيه السياق .

(٧) أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني الشافعي النحوي ، توفي في دمشق سنة ٦٧٢ هـ . من اشهر كتبه : الخلاصة الالفية وتسهيل الفوائد ، وعمدة الحافظ وعدة اللافظ وغيرها . انظر ترجمته في نفح الطيب ٢ / ٢٨١ وبغية الوعاة ٢١٠

(٨) انظر شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٢٩ ـ ٢٣٦

(٩) تقول : (أسيله) بكسر الياء .

(١٠) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣١ و ٢٣٢

(١١) نفسه ٢٢٩ و ٢٣٠ .

(١٢) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ١٩٧ .

(١٣) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣٥ وتتمة البيت الاخير :

.................اذا تعين بعضهما

فقد شهرةٍ اوداعٍ قد اعتُزلا

(١٤) بحرق : لقب محمد بن عمر بن المبارك بن عبد الله بن علي الحميري الحضرمي الشافعي علامة اليمن ، ولد سنة ٨٦٩ هـ بحضرموت ، وتوفي مسموماً بالهند سنة ٩٣٠ هـ انظر تاج العروس (بحرق) وهدية العارفين ٢ / ٢٣٠ .

(١٥) اسم الشرح : « فتح الاقفال وحلّ الاشكال بشرح لامية الافعال »

(١٦) وذكر في الشرح المختصر من ذلك أيضاً : دعا يدعو ولغا يلغو ، ولها يلهو ، وسخا بالمال . يسخو ، وصحا يصحو . انظر ص ٢٦

(١٧) اي (طبئيّ) .

(١٨) شرح لامية الافعال لبحرقَ اليمني الشرح المختصر ٢٦ .

(١٩) شرح لامية الافعال لبحرق اليمني (الشرح المختصر) ص ٢٦ .

(٢٠) يعني بحرق .

(٢١) شرح اللامية لبحرق (الشرح المختصر) ص ١٥ فقد ذكر فيه الفعلين الاولين .

(٢٢) آل عمران ٣١ . وجاء في تفسير البحر المحيط ٢ / ٤٣٠ : « قرأ ابو رجاء العطاردي » « تحِبُّون » ، و « يحِبكم » بفتح التاء والياء من « حبّ » وهما لغتان » . ونقل ابو حيان عن الزمخشري انه قُرِىء « يحِبكم » بفتح الياء والادغام .

(٢٣) مادة (حبب) .

(٢٤) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣٠ .

(٢٥) أربعة افعال تلحق بالخمسة التي ذكرها ابن مالك ، وقد نقلها الدمياطي عنه كما ترى .

(٢٦) البقرة ٢٦٠ . وانظر في القراءة تفسير البحر المحيط لابي حيّان ٢ / ٣٠٠ .

(٢٧) في الاصل (يمص) ومأوردناه هو المعروف .
(٢٨) في الاصل (لتيمابّ) والصحيح ما ذكرناه نقلاً عن اللسان والتاج (هشش) .
(٢٩) انظر شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣٣ - ٢٣٤ .
(٣٠) الصحاح مادة (خصم)
(٣١) القاموس المحيط مادة (خصم) .
(٣٢) في الاصل : الثلاثة أوجه ، وما اوردناه هو الافصح .
(٣٣) يعني الشرح الكبير الذي لم نقف عليه . وقد اختصر ما اشار اليه في شرحه المختصر ٢٦ - ٢٧ .
(٣٤) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٢٨ و ٢٢٩ .
(٣٥) التسهيل ١٩٧ .
(٣٦) قول الشارح اليمني بحرق في شرحه الكبير الذي لم نقف عليه وقد لخصه في شرحه المختصر الذي اعتمدنا عليه ص ١٨ .
(٣٧) زيادة يقتضيها سياق الكلام .
(٣٨) في الاصل (النايب) .
(٣٩) القاموس المحيط (وجد) .
(٤٠) التسهيل ١٩٧ .
(٤١) مادة (أبي) .
(٤٢) التسهيل ١٩٧ .
(٤٣) يعني (بحرق) . والشرح المشار اليه هو الشرح الكبير الذي لم نقف عليه .
(٤٤) ابن فلاح : منصور بن فلاح بن محمد بن سليمان بن معمر اليمني ، تقي الدين أبو الخير المشهور بابن فلاح النحوي ، له مؤلفات في العربية منها الكافي . جزء في غاية الحسن يدل على معرفته باصول الفقه ، مات سنة ثمانين وستمائة . انظر ترجمته بغية الدعاة ٣٩٨ وهدية العارفين ٢ /٤٧٤ .
(٤٥) لم أقف عليه .
(٤٦) في الاصل (اللام) والتصحيح يقتضيه السياق .
(٤٧) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣١ .
(٤٨) أي (فخُت) بالخاء ايضاً .
(٤٩) أي بحرق ، في شرحه الكبير الذي لم نقف عليه ، وقد أشار في شرحه المختصر على اللامية الى تلك الافعال قال : « وقد ذكرت في الشرح ثمانية أفعال تلحق بها » انظر ص ٢٥ .
(٥٠) لم أقف على هذا الشرح ولم أجد اشارة اليه فيما نُسب الى من لُقّب بالبرماوي ولعلّ المؤلف : ذو النون بن احمد بن يوسف البرماوي ثم العينتابي الحنفي المتوفى سنة ٦٧٧ هـ كما في هدية العارفين ١ /٣٦٤ ، أو محمد بن عبد الدائم بن موسى البرماوي المصري شمس الدين ابو عبد الله الشافعي ، أصله من عسقلان ولد سنة ٧٦٣ وتوفي بالقدس سنة ٨٣١ كما في هدية العارفين ٢ /١٨٦ .
(٥١) شرح لامية الافعال لابن الناظم ٢٣٠ - ٢٣٤ .
(٥٢) شرح لامية الافعال البحرق اليمني (الشرح المختصر) ٢١ ، ٢٢ .
(٥٣) القاموس المحيط المواد : (أل) و (أبب) و(طشش) .
(٥٤) زاد عليه بحرق في شرح اللامية الكبير الذي لم نقف عليه ، وأشار في شرح اللامية المختصر الى ذلك بقوله « وذكرتُ في الشرح ثمانية عشر فعلاً تلحق بها . انظر ص ٢٣ .
(٥٥) القاموس المحيط مادة (وثب) .
(٥٦) القاموس المحيط مادة (فيا) . والرجوع معنى ثانٍ من معاني الفيء . وفي القاموس المحيط معانٍ أخرى لم يذكرها المؤلف .
(٥٧) المصدر نفسه (غيث) . وفي القاموس معانٍ اخرى أغفلها المؤلف اختصاراً .

مراجع الدراسة والتحقيق

١ - القرآن الكريم .
٢ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ط ١ مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٢٦ هـ .
٣ - تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) طبعة الكويت .
٤ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لجمال الدين بن مالك (ت ٦٧٢ هـ) تحقيق محمد كامل بركات . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ م .
٥ - تفسير البحر المحيط : لابي حيان (ت ٧٤٥ هـ) ط ١ نشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة - المملكة العربية السعودية - الرياض (د - ت) .
٦ - خلاصة الاثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر : لمحمد المحبي . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٤ هـ .
٧ - شرح لامية الافعال : لبدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) نشرها د . حسام سعيد النعيمي في مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد الرابع ١٩٧٢ م عن نشرة الالماني فولبك سنة ١٨٦٦ م .
(الشرح المختصر) . دار أحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي . (د . ت) . وعليه حاشية الطالب بن حمدون بن الحاج .
٨ - شرح لامية الافعال لبحرق اليمني محمد بن عمر الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ)
٩ - الصحاح : لاسماعيل بن حماد الجوهري (ت في حدود ٤٠٠ هـ) . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٦ م
١٠ - القاموس المحيط : لمجد الدين الفيروز أبادي (ت ٨١٧ هـ) . مطبعة السعادة بمصر ، وعليه تقييدات لابي نصر الهوريني .
١١ - لسان العرب : لابن منظور (ت ٧١١ هـ) مطبعة صادر / بيروت ١٩٦٨ م .
١٢ - مجموعات مخطوطة في مكتبات استنبول . د . طه محسن ، منشورات معهد المخطوطات العربية ط ١ الكويت ١٩٨٥ م .
١٣ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
١٤ - هدية العارفين : لاسماعيل باشا البغدادي : استنبول ١٩٥١ م .

قراءة في نص قديم :

د. عبد الكريم راضي جعفر
كلية التربية - الجامعة المستنصرية

ثنائية الزمن الوجدانيّ :
الزمانية السلبية والزمانية الايجابية

النص

كبرتَ جميل !
١ - تقول بثينةُ لمّا رأتْ
فنوناً من الشعر الاحمرِ
٢ - كبرتَ جميلُ وأودى الشباب
فقلتُ : بثينُ الا فاقصري
٣ - اتنسين ايامنا باللّوى
وأيامنا بذوي الاجفرِ
٤ - اما كنتِ أبصرتني مرّةً
ليالي نحن بذي جوهر
٥ - ليالِيَ انتم لنا جيرة
الا تذكرين ، بلى فاذكري
٦ - وإذ انا أغيدُ غضّ الشباب
أجرُّ الرداء من المئزرِ
٧ - وإذ لمّتي كجناح الغراب
تُرجّل[1] بالمسك والعنبرِ
٨ - فغيّرَ ذلك ما تعلمين
تغيّرَ ذا الزمنِ المنكر
٩ - وأنتِ كلؤلؤةِ المرزبان
بماء شبابك لم تُعصري
١٠ - قريبان مربعنا واحدٌ
فكيف كبرتُ ولم تكبري ؟ !

١ - يستمدّ النص مقومات قيامه من موقف جميل بثينة ، من الزمن - الزمن الذي شغل الفلاسفة والفنانين ، والبشر الاعتياديين ، بوصفه احساساً إنسانياً تشترك فيه امم الارض جميعاً في كل زمان ومكان . فالشاعر العربيّ منذ ما قبل الاسلام حتى يومنا هذا ، يشكّل الزمن بما ينسجم ووجدانه أو حركة وجدانه ، أو مشكلاته الحضارية والاجتماعية ، أو الظروف البيئية . ولذلك تعدّدت زوايا النظر الى وقع أقدام هذا الذي يحلّ في الفراغ والمادة على حدّ سواء .

ان موضوعة الزمن ، موضوعة دقيقة ومتشعبة . ولذلك ساحاول تناولها من زاوية النظر الى حركة الوجدان التي يدخل في دائرتها الشاعر . بمعنى أنّ تحديد حركة الزمن في وجدان الشاعر تقع في ترتُّبات عالم توجس الوجدان من حركة الزمن في مدّها وجزرها ، وأثرها في المصير الانساني . فمعالجة النص ستكون على أساس تناول الزمن بوصفه معطىً مباشراً « من معطيات الوجدان » .[2]

انّ الشعور بالقلق والاضطراب والاغتراب ، له الاثر الفاعل في توجيه نظر الشاعر الى الوجود المرتبط بالزمن . من هنا ، فان الشعور بالزمن هو شعور بالقلق والاضطراب والاغتراب . وبهذه المعادلة الجدلية ، تكون الذات في علاقة ثنائية مع الزمن . فهي زمانية ايجابية ما دامت تحقق وجودها في الزمن ، من ناحية ، وزمانية سلبية وهي تنظر اليه نظرة حذر وترقب وخيفة ، بوصف الزمن اداة لتغيير الاشياء من ناحية اخرى . فالزمنية السلبية موجودة ، ما دام التغيير موجوداً ، ومؤثراً خطراً في الوجود . وهذا التاثير يتاتى من كونه سمياً حثيثاً لإدامة التحولات في الشيئية ، التي تقامر بكارتها ، الامر الذي يؤدي بالشاعر الى رصدها ، وتحويل قيمتها الى نقطة تصادم بين الوجدان المنتمي الى الحرية في صورتها الام ، وعدم ثبوتية الاشياء التي تولّد في النفس مشاعر عميقة وحادة تتكثف كآبة وخوفاً ورهبة ، تتوزع حاضر الماضي ، وحاضر الحاضر ، وحاضر المستقبل الذي يُرى من زاوية نظر حدْسية .

وعلى اساس زاوية النظر الى التحوّلات الدائمة في الشيئية ، يكون الزمن غير منفصل عن الموت الذي يقع في اثناء الزمن . من هنا ، تجيء النظرة الى الزمن (اللاتناهي) ، متكافئة مع النظرة الى الموت (التناهي) . وهذا ما يقيمه وجدان الشاعر حين يحوّل القيمة الانفعالية التي توجدها حركة الزمن ، الى قيمة تعبيرية تستند الى رؤية داخلية تتكيء عن شعور مفرط بـ(الانا) القادرة على الابداع في عالم موضوعي تراه ممزّقاً ، ومحدّداً ، لا يفي ، ولو بدرجة دانية ، بمتطلباتها وهذا من شانه ، ان يدفع بالشاعر الى الشعور بالحزن .

٢ - ما موقف جميلة بثينة من الزمن في هذا النص الذي انتظم في عشرة أبيات ؟[3] أنْ تخفي ، أو تحاول اخفاء ، آثار الزمن ،

ديوان جميل ، جمع وتحقيق وشرح د . حسين نصّار ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، ط ٢ ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٦ .

موقف يشير الى رفض نتيجة ماثلة للعيان ، ولكنها نتيجة العَرَض التي لا تمسّ الجوهر . وهذا ما نجده في مفتتح النص :

تقــولُ بثينــةُ لمّــا رأتْ فنوناً من الشَّعَـر الاحمرِ

فـ(الشَّعَر الاحر) رفضٌ حالة فرضها الزمن (الزمن ← الشيب) ، وتجسّد هذا الرفض في تخضيب الشيب بلون يزيل ، أو يكاد يزيل ، الاحساس بالزمن ، أو ـ في اقل تقدير ـ الاحساس بوطأته . ولعل مما يساند ما ذهبت اليه ملفوظات بثينة التي نقلها النص : (كبرتَ جميل وأودى الشباب) . وفي هذا تشكيل نواة متفملة بآثار الزمن الذي تحسّه بثينة ، من خلال نظرها الى جميل ، وتحويل (الشَّعَر الاحمر) الى منبّه ذي آثار واخزة . وهذا ما يشتغل عليه ردّ فعل (جميل) الذي يتجلّى في تكوينٍ لسانّي قادرٍ ـ بمدلوله المباشر ـ أن يَحدَّ من آثار الوخز ؛ بل يصدّه . وهذا التكوين هو جملة (الا فاقصري) . فـ(الا) ـ هنا ـ أداة تخفيض تؤدي ـ بالاشتراك مع الطلب ـ الى إحداث قطعٍ يتضمن اختراماً مقصوداً لزمنية آنية تعمل على الحلول في ماضٍ طاريٍ لمؤثرات فاعلة في الوجدان . وطبقاً لهذا التكوين ، فان قصر كلام بثينة ، يعني الاصرار على الكفّ عن تكر المزيد المؤثر في آنِ (جميل) . وهذا يعني رفض حالة قائمة ؛ ولكنْ غير معترفٍ بها .

انّ مثل هذا الاحساس بالرفض ، هو الذي أملى على (جميل) أن يلجأ الى الماضي في مزدوجة : الزمان والمكان :

« أتنسين أيامنا باللّوى » : زمان ومكان .

« وأيامنا بذوي الاجفر » : زمان ومكان .

« أما كنت أبصرتني » : زمان ومكان .

« ليالي نحن بذي جوهر » : زمان ومكان .

« ليالي انتم لنا جيرة » : زمان ومكان .

« الا تذكرين بلى فاذكري » . في الزمان والمكان .

انّ الالتفاف الى تحريك مكان الماضي وزمانه ، يفضي الى رسم قبضة حديدية بوجه الزمن . وهذا يعني ان وظيفة النص في هذا (التحريك) تقع في دائرة حظر نشاط منظور « بثينة » الزمني الصائت . بمعنى آخر : حشر الالتفاف الى الزمن الحاضر من خلال الاستغراق في صور الشباب . ومما يساند ما ذهبت اليه أمران نحويان : الاول : فعلان طلبيان هما : (اقصري) ـ البيت الثاني ، و (اذكري) ـ البيت الرابع . ومن خلالهما يبرز السعيُ الحثيث لتوسيع الصورة ، وتضافرها ، لاستعادة زمن ماضٍ . والثاني : « إذ » ذات الدلالة الزمنية الماضية التي اضيفت الى جملتين اسميتين بهدف إدامة الثبوت الزماني ـ اذا جاز التعبير ، على الرغم من حركيّة دلالتهما ، من جانب ، وتدفقها السياقي ، من جانب آخر . وعلى الرغم من أنها ـ أقصد « إذ » ـ تتحرك في اطار هذا الفهم النحوي ؛ غير أنها تنطوي على معنى آخر يؤدي دلالة . وهذا المعنى هو الدحث باتجاه صيرورة تفضي الى : التمليل . وهذا مُؤدّى بالطلب اذكري ؛ للحدّ من نشاط الاعتراف بالزمن وآثاره ، ومن ثم العبور باتجاه الماضي . واذا كانت تلك هي غاية جميل ، فانّ الازمة الحادة التي يولدها الزمن في كيان جميل ، تجعله ينسحب من موقف الرفض ـ فمن لمّتي كجناح الغراب ـ بوصفه تراتباً لونياً مسانداً لتغييب الازمة ، الى فغيّر ذلك ما تعلمين تغيّر ذا الزمن المنكر ـ بوصفه تبريراً لفعل الزمن الآني .

جميل ـ هنا ـ يولّد التناقض في موقف الزمن ـ التناقض القائم على التمليل والتبرير : تغيّر ذا الزمن المنكر . وطبقاً لهذا التاسيس ، فان النهج المرسوم ـ وظيفة موضوعية / قيمة انفعالية ـ ، يفضي الى : زمن يسير و لايسير : التذكر والارتماء في احضان الماضي ، احساس بسير الزمن . والشَّعَر الاحمر / المخضّب ، اصرار على عدم سيره . و « أنت كلؤلؤة المرزبان » ، و « لم تكبري » : اصرار على عدم سيره ، و « كبرتُ ، ولم تكبري » احساس بالازدواجية : سيره وعدمه ؛ غير ان تلك الازمة لم تولّد عند الشاعر حالة استمراء الموت ؛ لانه أقام توازناً بين ماضٍ وحاضر : ماضي لمّتي كجناح الغراب ، وحاضر صاحبته التي تبدو « كلؤلؤة المرزبان بماء شبابها لم تعصر » .. وهذا يعني التجمّد في الزمن ، أو تجميد الزمن عند زمن المراهقة . ومثل هذا التوازن يشير الى خيال (جميل) التعويضي في زمن يفزعه ، والّا كيف نفسّر « فكيف كبرتُ ولم تكبري ؟ » .

انّ الاتكاء على الماضي ، اتخذ نهجاً تعويضياً عن ثقل الحاضر الذي يحاصره وطبقاً لهذا الفرز ، فان الماضي لا يشكّل موتاً ، وانما هو انبعاث . بمعنى ذلك انّ الاتكاء على الزمن المستعاد هنا ، ليس اتكاءً عاجزاً ، وانما هو اتكاء يشير الى نبض التجدّد بفعل القوة المسلّطة على شرّ الزمن : الشَّعَر الاحمر = الخضاب ، للانتصار عليه انتصاراً حقيقياً ، ثم التغلب على الموت .

ومع هذا كلّه ، فانّ النص يضرب على وتر ثنائية الزمن لتحقيق الذات : الزمانية الايجابية : ايقاف الزمن « وأنت كلؤلؤة المرزبان » ، وهذا مساوٍ متكاظر بينهما : « تربيان مربعنا واحد » ، والزمانية السلبية : التغيّر الموجود : « فنوناً من الشَّعَر الاحمر » ، و « فغيّر ذلك ما تعلمين » .

والنص ـ بعد ذلك ـ يجسّد ما ذهبتُ اليه ، في ضربتين متضادتين متكافئتين ، يمثلهما : عجز البيت الاول ، وعجز البيت الاخير فنوناً من الشعر الاحمر × فكيف كبرتُ ولم تكبري ← الشيب الخضيب = الشباب) . وبهذا يقفل (جميل) قفل الزمن ، ليشير الى عدم انكفائه على وجهه . من خلال لغة الشباب التي تؤدي الى النظر الى الحياة .

٣ ـ لا شكّ في أنّ الصورة حياة الشعر ، فهي تومىء أخطر أدوات الشاعر[١] لانّ الشعر ، كما يقول ييتس « دم وخيال

وفكر تتدفق معاً »[٥] أو هو تحويل آلام الدم الى حبر ، على حد تعبير اليوت [٦]. واذا كان صحيحاً ان المجاز هو الاداة الكبرى من ادوات التعبير الشعري »[٧] ومن دونه يصبح الشعر « كتلة جامدة »[٨] ، فان ثمة صوراً تعتمد في بنائها على عبارات تتكيء على المدركات الحسية العرفية التي تقدّمها التجربة الخارجية ، غير انها تتجاوز ذلك فتدخل في حوار مستمر مع الداخل ، لنقل المشاعر الداخلية ، أو تصوير العالم الداخلي . ومعنى ذلك ان التجلي الخارجي ، هو نقل للعالم الداخلي من القوى الرمزية التي تستحيل الى نظام غير اعتيادي ، بعد أن تكون رؤية الشاعر قد غاصت في اكوام هائلة من الالفاظ .

انّ « الشاعر حين يستخدم الكلمات الحسّية بشتى انواعها لا يقصد أن يمثّل بها صورة لحشد معين من المحسوسات ، بل يقصد بها تمثيل تصوّرذهني معين له دلالته وقيمته الشعورية »[٩] . وعلى اساس هذا الفهم ، فانّ « الشعور ليس شيئاً يضاف الى القصور الحسّية ، وانما الشعور هو الصورة ، أي انها هي الشعور المستقر في الذاكرة الذي يرتبط في سرية بمشاعر اخرى ويمدل عنها . وعندما تخرج هذه المشاعر الى الضوء وتبحث عن جسم فانها مظهر الصور في الشعر »[١٠].

انّ الصورة ليست تشكيلاً لغوياً طارئاً على شعور الشاعر ، وانما هي نابعة من داخله ، واضطراب ذاته ، وقلقها ، واتزانها ؛ لانها متحّ من اعماق الذات ، وبذلك تكون الصورة جزءاً من التجربة الشعرية ، سواء أكانت مبنية على المجاز ، أم على استعمال العبارات استعمالاً حقيقياً .

واستناداً الى ما ذهبتُ اليه ، فان النص لم يدفع باللغة الاشارية الى الوراء ، اذ اعتمد على تعالق الذات بالفاظ حسيّة لا تومىء الى ومض يدهم المتلقي ، ويدهشه ، ولكنها تشير . ويستوي ذلك حتى حين يتوسّل بالاساليب البلاغية المتمثّلة ببعض علمي البيان ، والمعاني . وسنفحص ـ هنا ـ تعالق الذات بالتشبيه .

من الوسائل التي اعتمد عليها النص في بنيته التصويرية ، التشبيه . يقول :

وإذ تلتي كجناحِ الغراب ترجّلُ بالمسك والعنبرِ

هنا ، وقوف عند التشابه الحسّي ـ انه قياس غير مباشر ، لانه يقيم علاقة مقارنة تجمع طرفين . الاول : اللّمة ، والثاني : جناح الغراب ، لينفذ الى وجه الشبه السواد، لتقرير الفتوة والشباب . والقبض على هذا التشابه تمّ عن طريق الرصد الخارجي الذي شكّلته عين الشاعر المبصرة ، ومثل هذا القبض لا يوحدّ الاشياء ، ولا يذيب التنافر . فقد ظلت (اللّمة) منفصلة عن (جناح الغراب) . والمظهر العملي لهذا الانفصال هو أداة التشبيه : (الكاف) .

لقد سيطرت على هذه الصورة حدقة الفهم والتقرير والوضوح ، فكانت ـ بناءً ـ التفاتاً الى الخارج اكثر من كونها التفاتاً الى الداخل . بمعنى ان عين الرؤية الداخلية ـ بناءً ايضاً ـ منطفئة ، الامر الذي يفضي الى القول إن بنيتها الحسّية تركد وتستقر في معادلة تكاد تكون علمية : اللمة = جناح الغراب = سواد . وفي هذا تماثل مطابقة مُجرى على اساس التقريب .

هكذا تبدو الصورة في بنيتها السطحية ، ولكننا حين نعاودها على وفق الرؤية الزمانية الايجابية ، فانها ستدخل في مجرى يلحٌ في دلالة القوة والفتوة ، بدلالة فرز لفظة (الجناح) في معناها الإشاري ، وفي مهمتها الوظيفية ؛ الانتقال أو الإرتحال . ومثل هذه الازدواجية تفضي الى استعادة ماضٍ . ليس ذلك فحسب ، وانما يسمى المعنى الاشاري لفعل (الجناح) : جَنَحَ : مالَ ، يسمى الى الاصطفاف مع الماضي في ذراه . كما أنّ الجذر اللغوي لـ(الغراب) يقع في دائرة الذهاب : (غَرَبَ : ذَهَبَ) . وطبقاً لهذا التاسيس ، فإنّ الإيتان بالغراب متضايفاً ، ليس من قبيل التشابه اللوني ، وانما يتاتى من مخزون موروث مستقّر ، استفزه باعث الزمن الايجابي ، إذ يُضربُ بالغراب المثل في : البعد ، والبكور . وهذا ما يسعف الشاعر لإحداث أثره الماضي / البعد ، والجدّة / البكور . ومن المخزون الموروث الذي يصطف مع الالتفاف الى الماضي في محاولة للتلبّث فيه ، هو مايؤثر عن العرب قديماً . إذ انهم كانوا إذا نعتوا أرضاً بالخصب قالوا : وقع في أرض لا يطير غرابها[٥] . وفي هذا دلالة على خصب زمن الشباب الذي تتعلق به الصورة ، بعد اشتغال (العمق الاشاري) ، كما اسميه . هذا من زاوية النظر الى الزمانية الايجابية . اما النظر الى الوجه الاخر للزمانية ـ أقصد السلبية ـ فان محاولة الطرق على المتضايفين تقود الى تصويت تسمى موجاتُه الى إبراز نزوع الحاضر الى المفارقة المبنيّة على أساس المتُخ فيهٌ ؛ بمعنى : الاعتراف بتحولات الشيئية وهذا ما يشتغل عليه (العمق الاشاري) الاخر . وطبقاً لهذا الاستغال ، فان (جناح الغراب) يمتحُ من مخزون معرفيّ ولغويّ أيضاً . إذ كان العرب يقولون : طار غرابهُ أي : شاب . وفي هذا العمق الاشاريّ صدوزٌ من حاضر متحرك ـ إحساساً ووقعاً ـ الى ماضٍ ثابت ـ نزوعاً ـ ؛ ولكنه الحاضر المهيمن الذي يقبض على الغرض والجوهر في آنٍ واحد .

ويقول جميل متوسلاً بالتشبيه أيضاً .

وأنتِ كلـؤلؤة المرزبـان بماء شبابك لم تُعصري

فما عمق الانفعال في تشبيه (بثينة) بـ(لؤلؤة المرزبان) ؟ يبدو أن جميلاً ، كان منفعلاً انفعالاً قادراً على الالتحام بركني التشبيه ؛ على الرغم من حسيّتهما ، ووجود

(الكاف) . ومثل هذا الالتحام هو نتاج الانبهار بصورة (بثينة) التي تحاول إحلاءها ، أو اخفاءها عن الزمن في محاولة للتفلّت من الحاضر . من هنا ، وجد جميل المقارنة بصورة لؤلؤة المرزبان التي لا يعلوها الزمن ولا ينالها الصدأ ، قادرةً على لمّ زاوية النظر في نقطة تتصادم مع دائرة الزمن . صحيح ان الصورة نظرٌ من خلال الادراك وليس من خلال الذهول ؛ غير أنها التفات الى الداخل ، مثلما هي التفات الى الخارج . بمعنى آخر ان حدقته التشبيهية حدقة وضوح ومقابلة ؛ غير انها مجولة الى حدقة رؤيا خاصة بالاشياء ، خلقت دلالة جديدة تشير الى : عدم التحوّل بالمعنى المتضاد مع الزمن الذي يحوّل الشيئية باستمرار .

والسؤال الآن : اذا كان النص يتحرك على مستوى (التفنيد غير المركب) ـ الصورة تشكيلًا ترابطياً ، فما الذي يجعله ذا ـ كما أسميه ـ أقصد على مستوى استعمال العبارات استعمالًا لاشارياً ، وتشكيل نبضٍ قادرٍ على احتواء المتلقي ؟ ان تمثّل صورة الحرمان في التراث العذري ، يؤدي ـ بالضرورة ـ الى التعاطف مع ذوات العذريين ، ورحلات الصبر والمعاناة من جانب ، ومع ذات المتلقي وايقاع الحياة الذي يثير وتراً ذا نزوع رومانسي ، من جانب آخر . قد لا يدخل ما ذهبت اليه في صميم العملية النقدية ؛ ولكنه ـ في أيّ حال من الاحوال ـ مؤثر في الجذب ، مهما كانت درجته .

ان لغة النص قد أسهمت في تقريب المتلقي اليه ، حيث اننا لا نكاد نجد الفاظاً مستغلقة على الفهم ، تكون معها استشارة المعجم ضرورية . فالفاظه غير جاسية ولا نافرة . ولا ابالغ اذا قلت ان لغته ـ على الرغم من المساحة الزمنية الفاصلة بيننا وجميل ـ هي لغة حاضرنا ؛ بل ان ما يكتبه بعض معاصرينا يستغلق على الفهم ، لا بسبب تذبيب الترابط التصويري والرمزي ، وانما بسبب الاستعمال غير الوشيد للمعجم الشعريّ الموروث .

لقد استعمل النص اسلوباً انشائياً هو : الاستفهام المتصل بالفعل المضارع تارة ، وبالماضي اخرى ، وهو اسلوب ذو وظيفة مهمة في تقريب المتلقي ، وشدّ انتباهه : « أتنسين .. » ، و« أما كنتِ أبصرتني ... » . الاستفهام ـ هنا ـ لا يريد جواباً ؛ لانّ الغرض منه ليس طلب الفهم ، وانما : الحلول في زمن غير زمنه . بمعنى آخر : الحلول في زمن مستعاد . كما لجأ الى المساءلة ، والاجابة عنها بـ(بلى) ، وفي هذا نفي النفي /اثبات ، انسجاماً مع صورة الحلول تلك . وقد يصل اسلوب الاستفهام الى حدّ العتاب الواخز المتولّد من الاستفهام الانكاري التعجبي :

فكيف كبرتُ ولم تكبري ؟

ونلحظ ايضاً اسلوب الامر : (فاقصري) الذي يؤدي دلالة تصاحب حالة رفض تأثيرات الزمن ؛ لانه يشكلّ (قطعاً) لقول بثينة المتصادم مع رفض جميل .. ثم « فاذكري » الذي تشبع بدلالة تشير الى تثبيت الصورة التي تزحزح الموقف الآني المحاصر . فضلًا عن ذلك ، فان تكرار التماثل قد ادى مهمات دلالية وايقاعية . فقد كرّر « إذا » مرتين في بداية البيتين : السادس والسابع . وكرّر « الشباب » في الثاني والسادس . وتكرار الايقاع : « فغيّر ، تغيّر ذ » ، ثم« لم تعصري ، لم تكبري » لتمثّل التجنيس الازدواجي . ان توسل النص بهذه الاساليب ، قد قرّبه من المتلقي ، غير ناسين ما للاداء الدرامي (القصصي ـ الحواري) ، من أثر في تحقيق وحدة النص العضوية ، فضلًا عن نزوع الشاعر الى اسلوب التداعي : « أما كنتِ أبصرتني » حتى « وإذ لمتي ... » ، حيث أسهم فنياً في تحقيق بنية متماسكة غير قابلة للانتثار .

٤ ـ ينتمي النص الى وزن المتقارب التام الذي يقوم على نواة واحدة هي (فعولن) . والملاحظة الايقاعية التي يفرزها النص ، هو هذا التداخل الذي ـ يجريه على الاعاريض . فقد جمع العروض المحذوفة (الحذف علّة) : (فعولن ← فعو = فَعَلْ) بالعروض المقبوضة (القبض زحاف) : (فعولن ←فعولُ) . وفي هذا مستوى دلاليّ كما سنرى .

ولست اشك في القول ان حركة الوزن لا ترتبط بموضوع النص ـ أيّ نص ، وانما لها تساوقٌ مع الانفعالات والعواطف : لانها حركة آنية لا تسبق حركة انصهار العناصر المولّدة للشعر ، أو تعقبها ، لعلّة ترتبط بهيمنة الانفعالات الشاعر على مستويات التجربة وأبعادها في لحظات التكوين الشعري : وهي لحظات آنية تصهر العناصر ، حيث لا انفصام بينها .

انّ تلك الحركة ـ بوصفها بنية لامةً ـ جاءت متوزّعة بين النواة الصحيحة (فعولن) ، والنواة الزاحفة المقبوضة (فعولُ) ، والنواة المعلولة المحذوفة (فَعَلْ) . ومثل هذا التوزع يقود الى تآليف ايقاعي ، يتحسّس الانسجام الوظيفي للتجربة الشعرية .

وتاسيساً على هذا التوزّع ، فان المدقق في النص ـ يجد ان النّويّات الايقاعية المذكورة تشكلّ الاحصاء الآتي :

النواة	تسميتها	عدد مرات ورودها	النسبة المئوية
فعولُ	مقبوضة / زحاف	٣٤	٥٠و٤٢ ٪
فعولن	صحيحة	٣١	٣٨/٧٥ ٪
فعو	محذوف / علّة	١٥	١٨/٧٥ ٪
		المجموع ٨٠	

ان ترتع [فعولُ] على رأس النسب ، له تاثيراته الايقاعية ، اذ تجعل هذا التشكيل الايقاعي ، منفتحاً من خلال الفاء الصوت الساكن : النون في النواة ، والصوت الساكن في الكلمة أو في الاكثر من كلمة . ومثل هذا الانفتاح يخلق اختصاراً صوتياً : (حذف النون = ١ / ٤ درجة)(**) ، في حين يشكّل الانغلاق : النواة الصحيحة ، مذا صوتياً : (فعولن = ١ ٤ ١) . وتخلق النواة (فَعُوْ) سرعة اكبر مما تخلقه (فعولُ) بالتاكيد : فعو = ١ / ٢ = ٣ / ٤] .

وانطلاقاً من تلك النسب ، والتشكيلات الايقاعية ، فانّ حركة الوزن الايقاعية ترتبط بالدلالة . يظهر ذلك في الجملة الشعرية التي يمثلها البيتان : الاول والثاني ، حيث ترددت (فعولُ) ٨ ، أي بنسبة ٦٢٥ ٪ ٥٠ ٪ ، و(فعولن) ٥أي بنسبة ٨٧٥ و٣١ ٪ ، و(فعو) ٣ ، اي بنسبة ٢٧٥ و١٩ ٪ . وهذا ما تسمى اليه ايقاعية (فعولُ) التي تزعمت النسبة . وهو سعي يساند الدلالة التي تختصر ، مَن أجل خلق تضادّ مع تاثير الزمن الذي يرفضه جميل (الخضاب رفض الشيب) . والجملة الشعرية الثانية ، تتوزع النّويات بين الترددات الاتية :

(فعولن) : ٢٤ ، بنسبة ٨٧٥ و٤٢ ، و(فعولُ) : ٢٢ ، بنسبة ٢٥٨ و٣٩ ٪ ، و(فعو) : ١٠ ، بنسبة ٨٥٧ و١٧ ٪ .

إنّ غلبة (فعولن) ايقاعياً ، يسهم في تكثيف الدلالة التي تقدمها الابيات :

٣ ـ ٩ . وهذه الدلالة تشير الى الحلول في ماض مستعاد . ومثل هذا الحلول يحتاج الى تلبّث ينماز بالبطء .

أما الجملة الشعرية الاخيرة المتمثلة في البيت العاشر ، فيتشكل التردّد على النحو الآتي :

(فعولُ) : ٤ ، بنسبة ٥٠ ٪ ، و(فعولن) : ٢ ، بنسبة ٢٥ ٪ ، (فعو) : ٢ ، بنسبة ٢٥ ٪ .

أن احتلال (فعولُ) يقود الى ايقاع أسرع ، وهو ما تشتغل عليه الدلالة التي تنهي النص بالتماثل (مربعنا واحد) ، والتضاد المتفق (فكيف كبرت × ولم تكبري) : الاستفهام التكذيبي الانكاري .

عود آخر الى ايقاعية (الاعاريض) ، نجد تساوياً حنسْبةً في النواتين : (فعولُ) : الزاحفة و(فعو) : المعلولة ، اذ بلغت (فعولُ) ٥ ، اي بنسبة ٥٠ ٪ ، و(فعو) ٥ ، أي بنسبة ٥٠ ٪ . والتوزع المتناصف يشير الى دلالة النص الكبرى :

الزمانية الايجابية ، والزمانية السلبية ، وهذا مايدحته :

عجز البيت الاول : (فنونأمن الشعر الأحمر = فكيف كبرت ولم تكبري) : عجز البيت العاشر . وصدر البيت الثاني : (كبرت جميل واودى الشباب = قريبان مربعنا واحد) : صدر البيت العاشر . وبتعاكس هذه المعادلة تكون الدلالة المتخلّقة من احلال السلب والايجاب في حركة « توازن » : الرجوع الى الماضي وسحبه الى الحاضر ، وارجاع الحاضر الى الماضي .

الهوامش

(١) ـ في الاصل : تطلى . وما تثبته البستاني لتفادي عيوب الوزن وهو ماجاء في حاشية الديوان .

(٢) ـ الزمن في الادب ، هانزميرهوف ، ترجمة د . أسعد رزوق ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٧٢ ، ص ١٦ .

(٣) ـ النص في الديوان يتالف من أحد عشر بيتاً . العشرة تنتمي الى المتقارب ، اما البيت الاخير فينتمي الى البحر الطويل وهو :

حلفت لها بالراقصات الى منى وما سلك الاحزاب لحزاب غزّوِ

ولا ادري كيف فات الدكتور حسين نصار هذا الوهم .

(٤) ـ تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، د . علي عباس علوان ، بغداد ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، ط ١ ، ١٩٧٥ ، ص ٤١ .

(٥) ـ الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث دور ، ترجمة : د . محمد ابراهيم الشوش ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٣٩ .

(٦) ـ المكان نفسه .

(٧) ـ اللغة الشاعرة ، عباس محمود العقاد ، (د . م) ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، د . ت ، ص ٤٠ .

(٨)ـ الشعر العربي المعاصر ، د . عزالدين اسماعيل ، بيروت ، دار العودة ودار الثقافة ، ١٩٨١ ، ص ١٣٢ . وينظر مصدره .

(١٠) ـ نفسه ، ص ١٣٥ .

(*) ـ ينظر : لسان العرب ، مادة (غزب) .

(**) ـ يقصد بالدرجة هنا مصطلحها الحديث ، البعد الطنيني ، وهو الثانية الكبيرة . وهذا البعد يمثابة درجة كاملة ، قابلة للقسمة على انصاف وارباع . ينظر الشعر العربي الحديث في العراق ص ٢٤٢ وما بعدها .

• • • •

من خزائن المكتبات في الموصل

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

يضم هذا الفهرس المخطوطات الطبية الموجودة في خزائن مكتبات الموصل ، وقد اعتمدت في اعداده على الفهارس المطبوعة الخاصة بمخطوطات الموصل : كفهرس الجلبي وفهرس الأوقاف وفهرس جامعة الموصل والمكتبة العامة في الموصل ، يضاف الى ذلك المخطوطات التي كانت بحيازتها دار صدام للمخطوطات في بغداد فقمت بتسجيل معلومات عن المخطوطات الطبية منها اضافة الى تدوين المخطوطات التي لها نساخ او مترجمون موصليون او تملكها أناس ٫ موصليون فكان بذلك هذا الفهرس جامعاً للمخطوطات الطبية في اغلب مكتبات الموصل ، إن لم نقل جميعها ، ومن هنا تاتي اهمية كونه اول فهرس يضم بين طياته كل المخطوطات الطبية في جامعة الموصل . وقد أنصب اهتمامي على المخطوطات العربية وسجلت ما عثرت عليه من مخطوطات تركية وسريانية .

اما ترتيب الفهرس فقد اعتمدت التسلسل الهجائي للحرف الاول من اسم المخطوط ، يليه اسم المؤلف فالناسخ فسنة النسخ إن وجدت مع معلومات اخرى عن محتوى المخطوط : أوله صفاته ... الخ ، ثم رقمه والمدرسة التي وجد فيها حيث ركزت على اسم المدرسة التي اوقفت فيها المخطوطات .

ثم ادرجت قياس المخطوط ، والمصدر المعتمد ، وهذا المصدر هو المكان الذي توجد فيه المخطوطة وقد وضعت مخطوطات الشروح مع مخطوطاتها الاصلية ، مثلاً كتاب شرح القانون وضعته مع كتاب القانون على طريقة ترتيب أستاذنا الفاضل كوركيس عواد .

ولم يفتني ادخال مخطوطات النباتات الطبية الموجودة في خزائن الموصل ، وبهذا تضمن الفهرس مخطوطات الطب بفروعه كافة ، والادوية والاقراباذين والنباتات الطبية فاستغرقت صفحاته ٢٢٦ صفحة حوى فيه المخطوطات المنفردة والمجاميع الخطية .

القسم الاول

ويجدر بي استعراض بعض المخطوطات المهمة التي احتوتها خزائن الموصل سواء الشخصية منها ام العامة ، لابن سينا مخطوطات طبية مختلفة منها :

كتاب القانون في الطب : يوجد ١٥ خمس عشرة نسخة منه اقدمها نسخت سنة ٦٠١ هـ ، وهي محفوظة ضمن خزائن المدرسة الاميدية في جامع الباشا ، وتقع في ١٦٤ ورقة .

كذلك هناك مقالة في الحميات من كتاب القانون نسخها محمد سليم الطبيب ، ومقتبسات من القانون في خزائن المدرسة الاميدية نفسها .

لهذا الكتاب الجليل شروح كثيرة :

للاملي المتوفى سنة ٧٥٣ هـ ، والايلاقي المتوفى سنة ٦١٨ هـ ولابي الحسن علي بن ابي الحزم القرشي في مجلدين ـ قطع كبير ، وشرح آخر لم يُذكر مؤلفهُ .

وقد أوجز ابن النفيس المتوفى سنة ٦٨٧ هـ هذا الكتاب فسماه (الموجز في الطب) : وقد وجد له تسع نسخ اقدمها نسخت سنة ٨٦٦ هـ .

وقد حل رموز هذا الكتاب محمد بن محمد الاقرائي المتوفى سنة ٨٠٠ هـ ، ونسخة الكتاب تقع في ١٦٢ ورقة فيها نقص من الاول والاخير وهي محفوظة في الاوقاف ضمن خزائن المدرسة الاحمدية .

وكان للموجز عدة شروح : للإقرائي : نسخ سنة ٨٠٠ هـ ، والسديدي نسخ سنة ١٠٨٠ هـ ، وآخر غير منسوب الى مؤلف .

وهناك نقولات من شرح الموجز للشيرازي المسمى المغني في علم الطب ، وهو مخطوط يقع ضمن مجموع في مدرسة الخياط .

وهذا المغني المسمى (المغني في شرح الموجز) له نسختان احداهما لم يحدد شارحها ، والاخرى للسديدي الطبيب الذي كان حيا سنة ٧٤٥ هـ ، وهي نسخة جيدة الخط ، عليها آثار رطوبة نتيجة سقوط الثلج عليها في الموصل سنة ١١٧٠ هـ ، وهي موجودة حالياً في دار صدام .

ولابن سينا ايضاً ارجوزة في القضايا الخمس والعشرين لابقراط في الدلالة على الموت ، وهذه الارجوزة بنسختين تقعان في المدرسة الاحمدية ضمن مجموع لكل منهما ، وله ايضاً منظومة العلاج الواقي وتقع ضمن مجموع في

مدرسة الاحمدية .

ولابن رشد القرطبي شرح لمنظومة ابن سينا فيها نقص من آخرها وتقع ضمن خزانة المدرسة اليونسية .

هذا ولابن سينا عدة أراجيز في الطب .

اما الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ فله الحاوي الكبير في الطب في اربع نسخ غير كاملة اقدمها سنة ٧٩٦ هـ بخط صدر الدين بن اسكندر وتمثل قطعة من الجزء السادس .

وللرازي مخطوطة جداوله الحاوي نسخها داود الجلبي سنة ١٩٢٥ م وهي موجودة في خزانته .

ولهذا الكتاب شرح للقزويني فيه نقص من آخره .

وفي الموصل ثلاث نسخ من كتاب المنصوري في الطب للرازي ، منها نسخة بخط صالح بن منصور وهي نسخة قديمة ، واخرى نسخت سنة ٩٤٠ هـ والثالثة نسخت في القرن الثاني عشر الهجري .

وهناك علاجات الحاوي الكبير (المجلد الثاني منه نسخة قديمة) ومن كتب الرازي الاخرى كتاب دفع مضار الاغذية نسخة بخط محمد بن الحسين بن زيد سنة ٤٠٣ هـ .

وكتاب بُرء الساعة وله اربع نسخ اقدمها سنة ١١٧٢ هـ ورسالة تقع في ٤٤ صفحة ضمن مجموع . هناك ايضاً مجموع طبي يتضمن عدة رسائل وهو موجود في خزانة د . داود الجلبي . وله ايضاً مختصر بعض أسماء الادوية مرتبة على حروف المعجم نسخ سنة ٨٥١ هـ .

ومن الكتب الاخرى التي لها نسخ كثيرة في خزائن الموصل كتاب الاسباب والعلامات لنفيس بن عوض له ثماني نسخ ، وكتب داود الانطاكي :

التحفة البكرية

وتذكرة أولي الالباب وله سبع نسخ .

مع رسالتين في الطب

والنزهة المبهجة وله خمس نسخ

مع مختصر النزهة .

وكتب صالح افندي :

غاية الإتقان وله ثماني نسخ

ومركبات صالح افندي

ومفردات غاية البيان

ونزهة الابدان بنسختين

وقد تضمن فهرس المخطوطات كتباً في الطب ورسائل ومخطوطات ومقالات طبية بعضها لافلاطون والكثير منها ليس لها اسماء مؤلفين وقد وجدت كتبٌ اخرى لبقراط وابن بختيشوع والسيوطي وابن الجوزي ويهمني في هذا المقام أن القي الضوء على مخطوطات مؤلفين موصليين وهي :

١ — تعاريف في الصحة / لعلي بن علي العمري الموصلي وتقع ضمن مجموع في المدرسة الاحمدية .

٢ — تعليق على كتاب النقش في الحجر لفان ديك — طب وكيمياء لمحمد ضياء بن عبد الرحمن وصفي بك بن شريف بك امين زادة الموصلي المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ ، ناسخ هذا المخطوط :

الخطاط الشيخ محيي الدين ، ويقع في ٤٤ ورقة ضمن مخطوطات عبد الله نشاة

٣ — جامع علوم العمل في مداواة الامراض للموصلي

٤ — رسالة في النبض

جمع محمد الطبيب المهتدي الموصلي المتوفي سنة ١٢٦٣ هـ تشتمل على بابين ومقدمة .

٥ — الرياض النعمانية في فوائد الطب من الحكمة الطبيعية لنعمان بن عثمان الدفتري العمري الموصلي . هذه النسخة تعد اول نسخة كتبت سنة ١١٦٥ هـ ، يلي الكتاب قسم من قانون ابن سينا ، ويقع المخطوط في ١٧٧ ورقة ضمن مخطوطات جامع النبي شيت .

٦ — شرح ارجوزة للرئيس ابن سينا

لمحمد الطبيب المهتدي بن قسيس يوحنا الطبيب الموصلي نسخها المؤلف بنفسه سنة ١٢٤١ هـ ، وتقع في ٢١٢ ورقة ضمن خزانة د . داود الجلبي .

٧ — شفاء السقيم

يحتوي على كتب طبية منقولة من كتب باللغة التركية والعربية منها مفردات قاسم المولوي الموصلي . وتقع في ٧٠ ورقة ضمن خزانة د . داود الجلبي .

٨ — الشفاء العاجل والداء الكامل

لامين بك حفيد ياسين افندي الموصلي ، له نسختان .

٩ — الطب الجديد الكيميائي

للعالم الالماني براكليوس

ترجمة السيد محمد جلبي الطبيب الموصلي ، وله ثلاث نسخ.من هنا نخرج بنتائج مهمة ان المخطوطات الطبية في الموصل لم تقتصر على الموصليين حسب بل حوت كتباً في مختلف فروع الطب والادوية والنباتات الطبية لمؤلفين معروفين في التراث العلمي الطبي ، وهذه الكتب للموصليين نصيب طيب

في تاليفها او نسخها او ترجمتها او جمعها في مجاميع .

واخيراً ان يتسع صدر الباحثين الكرام لما قد يقع من سهو او وهم في اعداد هذا الفهرس كوني اقدم لاول مرة باعداد فهرس ضخم للمخطوطات ولمدة قصيرة .

كما اتمنى ان ييسر عملي للباحثين والمحققين في مجال الطب الاطلاع على مخطوطات الموصل الطبية ..

١) الاحكام الملخصة في حكم ماء الحمصة

لابي الاخلاص حسن الشرنبلاني المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ أتمها تاليفاً سنة ١٠٥٩ هـ.
ضمن مجموع برقم ٣١ / ٢ مخطوطات د . محمد صديق الجليلي
القياس : ٢٨ / ١٨ ، و ـ ٢٠٥
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٣٠٧ .

٢) الاختلاج

ا (اما بعد فهذا كتاب الاختلاج فيما ذكر عن الخضر عليه السلام وذي القرنين في تفسير الاختلاج في جميع الاعضاء ...)
ضمن مجموع برقم ٥٩ / ١٨ (٦) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ١٢٠
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٣٦ .

× نسخة اخرى

اختلاج نامه لاغصان البون ، النسخ سنة ١٢٩٣ هـ ضمن مجموع برقم ٥٠ / ١٦ (١) المدرسة الاحمدية
القياس : ١٨ × ١١ ، و - ٦٤
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ١٢٤ .

× نسخة اخرى ــ نظم ــ

ضمن مجموع برقم ٥٣ / ١٨ (٢٣) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢١ × ١٣ ، و - ١٠٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٢٧ .

× نسخة اخرى

بعنوان (شرح اختلاجات الاعضاء على خمس مقالات)
الناسخ : ياسين بن خير الله العمري سنة ١٢٢٣ هـ

ضمن مجموع برقم ٦٤ / ٩ (٢) خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢٢ × ١٤ ، و - ٦٦
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٢٦٢ .

× نسخة اخرى

فيها آراء للامام علي كرم الله وجهه في الاختلاج مجدول بالحمره وفي كل صفحة ١٧ سطراً
ضمن مجموع برقم ٣٤ × ٢٥ (٢) المدرسة الحسنية .
القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ١٢٣ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ١ / ٢٣١ .

٣) × اختلاج الاعضاء

جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ هـ
ضمن مجموع برقم ٥٠ / ٢٤ (٤) المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٢ × ١٧ ، و - ١١٩
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٤) × أرجوزة في حفظ الصحة

لابن سينا : ابو علي حسين بن عبد الله المتوفى سنة ٤٢٨ هـ تقع في صفحتين
ضمن مجموع برقم ٢٦ / ١٩ (٢) مخطوطات جامع النبي شيت
القياس : ٥ و ١٥ × ٥ر١٠ ، و - ٦٧
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢ / ٢٢١ .

٥) × ارجوزة ابن سينا في القضايا الخمس والعشرين لابقراط في الدلالة على الموت ، لابن سينا .

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ٢ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجلبي ٢٣ .

× نسخة اخرى

ضمن مجموع برقم ٦٦ / ٢٤ (٣) المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و - ٢٣٤ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٧ .

٦) × أرجوزة صغيرة في علة العراق

ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ١٢ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجلبي ٣٤ .

٧)×أرجوزة في الطب

لم يذكر اسمها ولا اسم ناظمها
ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ١٠ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجلبي ٣٤ .

٨) × ارجوزة في الطب (كفاية المرتاض في علمي الابوال والامراض لابن سينا

ضمن مجموع برقم ٦٤ / ٢٤ (١١) المدرسة الاحمدية
القياس : ١٨ × ١٣ ، و - ٢٨٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٦ .

× نسخة اخرى

ضمن مجموع ٥٦ / ٩ (٦) خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و - ١٧٣ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٢٥٦

× نسخة اخرى

ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ١١ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجلبي ٣٤ .

٩) × ارجوزة في المجربات

للرئيس ابن سينا
ضمن مجموع برقم ٦٦ / ٢٤ (٢) المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و - ٢٣٤ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٧ .

١٠)×الارجوزة الكبرى في الطب لابن سينا .

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجلبي ٣٣ .

× نسخة اخرى

ضمن مجموعة برقم ٦٤ / ٢٤ (١٠) المدرسة الاحمدية نقص من اولها
القياس : ١٨ × ١٣ ، و - ٢٨٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٦ .

× نسخة اخرى

ضمن مجموع برقم ٦٦ / ٢٤ (١) المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و - ٢٣٤ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٧ .

١١) × اسئلة واجوبة في شرب التتن (الدخان)

المؤلف : غير معروف
منه نسخة في مكتبة اوقاف الموصل
الرقم : ١٦ / ١٦ (٤) مدرسة الخياط .
المصدر : ١ ـ فهرس سالم عبد الرزاق ٥ / ١١٠
٢ ـ مصادر النباتات الطبية عند العرب
تاليف الاستاذ كوركيس عواد
مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦ / ص ١٨١

١٢) × الاسباب والعلامات

محمد بن علي بن عمر المتطبب المتوفى سنة ٦١٩ هـ
أ (الحمد لله على نعمائه السابغة ...)
الناسخ : ابو المحاسن محمد بن ابي بكر النيسابوري
الرقم : ١ / ٢٠ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٥ × ١٧ ، و - ١١٥
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٢٥٩

١٣) × الاسباب والعلامات[1]

نفيس بن عوض الكرماني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ
أ (الحمد لله رب العالمين ...)
اوله فهرس لمحتواه
الناسخ : ابن محمد علي بن ميرزا علي محمد مومن الاصفهاني
سنة ١٠٦٠ هـ
الرقم : ٧ / ٢٠ مدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٦ × ١٤ ، و - ٣٠٦
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٢ برقم ١٣٦
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٢٦٠

× نسخة اخرى

نسخت سنة ١١٥٩ هـ .
المصدر : مكتبة يحيى باشا الجليلي في سجلات دار صدام للمخطوطات ببغداد .

× نسخة اخرى

نسخت سنة ١٢٣١ هـ . اضافة الى نسخة اخرى لم تذكر سنة نسخها
المصدر : مكتبة يحيى باشا الجليلي في سجلات دار صدام للمخطوطات ببغداد .

× نسخة اخرى

بخط بهمن المتطبب الكازروني . في آخره نسخ اقرا باذين بخط المذكور ايضاً .
الرقم : ١٠٠ مدرسة الحجيات
المصدر : فهرس الجلبي ١٠٧

(= الاسباب والعلامات)
× نسخة اخرى

يليها الموجز في الطب . كلاهما ناقص
الرقم : ١٠١ مدرسة الحجيات
المصدر : فهرس الجلبي ١٠٧

× نسخة اخرى

الرقم : ١١٦ المدرسة الحسنية
المصدر : فهرس الجلبي ١٢٩ .

× نسخة اخرى

بعنوان « شرح الاسباب والعلامات »
فيها نقص في الاخر
الرقم : ١٣ / ٦ خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢٨ × ١٨ ، و - ٣٠٧
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ١٧٦ .

× نسخة اخرى

بعنوان : « شرح الاسباب في الطب النافع للاصحاب
أ (الحمد لله رب العالمين ...)
قدمه لالوغ بيك بن شاه رخ كوركان
اتمه شرحاً سنة ٨٢٧ هـ في بلدة كرمان مسقط رأسه ضمن مجموع برقم ٥٥ / ٩ (١) خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢٩ × ١٧ ، و -١٥٧ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٢٥٥ .

١٤) × أقرا باذين الطب المختار

محمد جلبي المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ
نسخة المصنف وبخطه .
الرقم : ١ / ٦ خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٣٢ × ٢١ ، و — ٦١
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٢

١٥) × أقسام النفس

نسخة ضمن مجموع برقم ٥٣ / ١٨ (١٩) المدرسة الرطوانية
القياس : ٢١ / ١٢ ، و - ١٠٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٢٧ .

١٦) × ألفية ابن سينا في الطب

خط جميل ، طب قديم ، كتب في آخره : « تم الكتاب على يد علي

---

(١) سماه : شرح الاسباب والعلامات (سالم عبد الرزاق ٥/٢٦٠)

الجميلي الحنفي مذهباً والموصلي وطناً وذلك في ليلة الجمعة لثلاثين يوماً مضت من ربيع الاول المنتظم في شهور سنة ست وعشرين بعد الثلثمائة وألف هجرية .
الرقم : ٢٥٨
القياس : ص ١٢٠ ، ق ٥ر٢٠ في ١٤ سم ، س ١٧
المصدر : فهرست مخطوطات المكتبة العامة في الموصل ص ٤٣ .

١٧) × الإيضاح في الطب

علي بن محمد بن عبد الله المتطبب الافزري المتوفى سنة ٨١٥ هـ
منسوخة على نسخة المؤلف سنة ١١٣٠ هـ
الرقم ٢ / ٢٠ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٣٠ × ٢٣ ، و : ٢٨٢
المصدر : ١ ــ مخطوطات الموصل : د . داود جلبي بغداد ، ١٩٢٧ م ، ص ٣٢
٢ ــ فهرس مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة في الموصل . سالم عبد الرزاق احمد ، مطبعة الاوقاف ، بغداد ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ٥ / ٢٥٩ .

١٨) × بازنامة ــ في طب

أ (وصلى الله على سيدنا محمد ، ذكر الرواة من الثلاة اهل المعرفة ...)
الناسخ : احمد نيلة سنة ١٣٨٩ هـ
الرقم : ٢ / ٦ خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٣١ × ٢١ ، و – ٢٦
المصدر : ١ ــ فهرس داود جلبي ص ٢٣٦ برقم ١٦٠ مدرسة يحيى باشا .
٢ ــ فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٣ .

١٩) × بحر الجواهر في المصطلحات الطبية

محمد بن يوسف الطبيب الهروي ، كان حياسنة ٩٢٤ هـ .
أوله (حمد الكلام لجدى ذوي الافهام تحقيق دقائق اللغات العربية)
النسخ : سنة ١٠٩٩ هـ
الرقم : ٣ / ٢٠ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٣٣ × ٢٢ ، و – ١٩٣ .
المصدر : ١ ــ فهرس د . داود جلبي ص ٣٢ ، برقم ١٣٢ .
٢ ــ فهرس سالم عبد الرزاق ٥ / ٢٥٩

× نسخة اخرى

فيها نقص قليل من الاول والموجود يبدأ (حاو للكيات المعالجات وموجز تقديمه مغن عن الاسباب والعلامات ..)
ألفه بامر من الوزير محمد المشتهر بامير بيك
الرقم : ٦ / ١٧٣ خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢٤ / ١٢ ، و – ٢١٦ .
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٣ .

٢٠) × برء الساعة

للرازي : محمد بن زكريا المتوفى سنة ٣١٣ هـ
تاريخ النسخ : ١١٧٢ هـ
المصدر : فهرس داود جلبي ص ٢٥ المدرسة الاحمدية برقم ١٥٩ .

× نسخة اخرى

بعنوان « برء الساعة ورسالة في المضد للرازي »
تاريخ النسخ : ١٢٠٣ هـ
المصدر : مكتبة يحيى باشا الجليلي[1] ، من سجلات دار صدام للمخطوطات بغداد .

× نسخة اخرى

أ (الحمد لله حق حمده والصلاة على رسوله محمد وآله ....)
تاريخ النسخ : ١٢٨١ هـ
الرقم : ٤ / ٦ خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢١ × ١٥ ، و ــ ٥
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٣ ــ ١٧٤ .

× نسخة اخرى

بعنوان (نقولات وحكايات ووصفات علاجية وابيات شعرية مختلفة الاغراض منها منقولة من بئر الساعة للرازي)
ضمن مجموع برقم ٦٤ / ٩ (٤) خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢٢ × ١٤ ، و – ٦٦
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٢٦٢ .

---

(١) مع هذه النسخة مخطوطة اخرى هي (مختصر ما يجب إستحضاره من صناعة الطب) .

٢١) × بيان حشر الأجساد

لابن كمالباشا المتوفى سنة ٩٤٠ هـ
ضمن مجموع برقم ٢٨ / ٢٠ (٤) المدرسة المحمدية
الرقم : ٢٢ × ١٦ ، و – ٤٤ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٧ / ٩٤ .

٢٢) × بيان دلالة اختلاج اعضاء البدن من الانسان

نظم آخره دلالة طنين الاذنين في ايام الاسبوع
ضمن مجموع برقم ٤٧ / ٩ خزانة د . داود الجلبي
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٢٣٨ .

٢٣) × البيزرة

نسخة قابلها الشيخ اسماعيل الهيتي الحنفي سنة ٩٩٧ هـ .
الرقم : ١٢١ مدرسة عبد الرحمن جلبي الصائغ
المصدر : فهرس داود جلبي ١٥٧ .

٢٤) × التبصره في أحكام الحيض .

صلاح الدين حسن بن اسماعيل بن عبد الله الدركزلي الموصلي المتوفى سنة ١٣٢٧ هـ نسخت على نسخة بخط المؤلف . أ (الحمد لله الذي يحب التوابين ...)
تاريخ النسخ : ١٢٧٨ هـ
الرقم : ٧ (الجامع الكبير — النوري)
القياس : ٢٢ × ١٦ ، و – ٣٦
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٢ / ٢٥١ .

× نسخة اخرى

بعنوان (تبصرة الاخوان في الحيض على مذهب المجتهد المطلق) .
أ (الحمد لله الذي شرع الدين ما وصى به اولى العزم)
نقص من آخرها
ضمن مجموع برقم ١٢٥ / ١٨ (٦) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢٣ × ١٨ ، و – ١٧٧ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٨٥ .

٢٥) × تحصيل الصحة بالأسباب الستة .

للطبيب الفاضل الحبيش التفليسي (٩٠٠ هـ)
الرقم : ١٦١ مدرسة يحيى باشا .
المصدر : ١ — فهرس داود جلبي ٢٣٦ .
٢ مكتبة • يحيى باشا الجليلي

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

٢٦) × التحفة البكرية في احكام الاستحمام الكلية والجزئية .

لداود الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ
أ (.... يامن غمس قلوب العارفين في بحار الائه وانزع للسالكين حياض نعمائه ...)
وجاء في آخرها (علق هذه الرسالة النافعة الفقر عباد ربه علي الشمراوي للشيخ ... ابو العز)
بخط علي الشمراوي
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٣ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و – ٢٤٦
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣٠ برقم ٧٧ / ٢٤ (٣) .

٢٧) × تحفة الطالب في أحكام العرق الضارب

عبد الواحد المغربي
أ (احمدك اللهم على ما اوليتنا من نعمائك حمداً كثيراً ...)
تاريخ النسخ .... سنة ١٠٦٩ هـ[1]
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٩ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و – ٢٤٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٩)

٢٨) × تحفة المحب في صناعة الطب

بدر الدين محمد بن محمد القوصوني المتوفى سنة ٩٣١ هـ
أ (أحمد من ابدع سراج الانسان في أحسن تقويم)
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ١ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و – ٢٤٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣٠ برقم ٧٧ / ٢٤[1] .

٢٩) × تحقيق المعاد الجسماني .

ضمن مجموع برقم ٢٠ / ٥ مخطوطات عبد الهادي رؤوف
القياس : ١٨ × ١٠ ، و – ١٧٨ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٣٢٧ .

× نسخة اخرى

بعنوان (بيان المعاد الجسماني)
الناسخ : محمد سعيد سنة ١٢٣٨ هـ
ضمن مجموع برقم ٦٨ / ٢٤ (١٤) المدرسة الاحمدية
القياس : ١٧ × ١٢ ، و – ١٤٢ .

(١) في فهرس الجلبي سنة ١٠٩٩ ؟ والكاتب المقرئ (ص ٣٤) .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٩ ـــ ٣٢٠ .

٣٠) × تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب .

للشيخ داود الضرير بن عمر الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ (سبحانك مبدع مواد الكائنات ...)
الرقم : ١ / ١٩ خزائن المدرسة الامينية في جامع الباشا .
القياس : ٣٠ × ٣٨ ، و - ٣١٨ .
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٤ / ١٥٧ .

× نسخة اخرى

الرقم : ٤ / ٢٠ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٣٢ × ٢٤ ، و - ٢٣٨
المصدر : ١ ـــ فهرس داود جلبي ٣٢ برقم ١٣٣
٢ ـــ فهرس سالم عبد الرزاق ٥ / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

× نسخة اخرى

نسخة جيدة كتبت لمحمد أمين ياسين افندي زادة الموصلي .
تاريخ النسخ : ١١٥٩ هـ
المصدر : فهرس داود جلبي ١٢٩ : برقم ١١٤ / المدرسة الحسنية .

× نسخة اخرى

المصدر : فهرس داود جلبي ٤٤ برقم ١٤١ / المدرسة الاسلامية .

× نسخة اخرى

المصدر : فهرس د . جلبي ١٦٦ ، برقم ٢٩ / المدرسة العبدالية .

× نسخة اخرى

ناقصة الاخر ، في صدر المجلد صفات صبر
المصدر : فهرس د . جلبي ١٠٧ ، برقم ١٠٢ / مدرسة الحجيات

× نسخة اخرى (نقولات التذكرة)
ضمن مجموع برقم ٤٨ / ٢٤ (٢) المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢١ × ١٥ ، و ـــ ٦٠
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٠٧ ـــ ٣٠٨ .

٣١) × التذكرة السعدية في القوانين الطبية

لعبداله بن محمد بن عبد الرزاق الخوام

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ٦ المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و ٢٣٤ .
المصدر : ١ ـــ فهرس الجلبي ٢٣ .
٢ ـــ فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٨ برقم ٦٦ / ٢٤ (٧) .

٣٢) × تذكرة الكحالين

علي بن عيسى الكحال المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .
الرقم : ١ مدرسة الحجيات
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٣ / ١٨٦

٣٣) × تسهيل المنافع في الطب والحكمة

ابراهيم بن عبد الرحمن الازرق المتوفى حوالي سنة ٨١٥ هـ ناقص من اوله والموجود منه يبدأ (صنفان لا غنى للناس عنهم الاطباء لابد انهم والعلماء لاديانهم ...)
جمعه مؤلفه من كتابي شفاء الاجسام محمد بن أبي ... الكموائي ، والرحمة للحكيم المقري مهدي الضيري .. ناقص من آخره ، جلده مزخرف
الرقم : ٤ / ١٨ المدرسة الاسلامية .
القياس : ٥ / ٢٠ × ١٥ ، و - ٩٧
المصدر : ١ ـــ فهرس داود جلبي ٤٤ برقم ٥٧ .
٢ ـــ فهرس عبد الرزاق سالم ٢ / ٧١ .

٣٤) × تعاريف في الطب

علي بن علي العمري الموصلي سنة ١١٨٢ هـ
ضمن مجموع برقم ٤٨ / ٢٤ (٤) المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢١ × ١٥ ، و ٦٠ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٠٧ ـــ ٣٠٨ .

٣٥) × تعلم حفظ الصحة المسكري .

ناقص من اوله والموجود منه يبدأ (بالفصل الرابع تدابير عامة في حفظ الصحة للطعام)
الرقم : ٥ / ٦ - خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢٣ × ١٨ ، و - ٦٥
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٤ .

٣٦) × تعليق على كتاب النقش في الحجر لفان ديك ـــ طب وكيمياء

محمد ضياء بن عبد الرحمن وصفي بك بن شريف بك ابن زادة الموصلي المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ .
(عند مطالعتي في كتاب الكنز المكنون في الصنايع والفنون ، .

وجدت باباً ملخصاً مختصاً في التراكيب الكيمياوية ، وله تعلق في كتاب النقش في الحجر للمعلم فان ديك فلاجل اتمام الفائدة احببت ان استكتبه في رسالة مخصوصة ..)

أوله فهرس لمحتواه اتمه في ربيع الاول سنة ١٣٢٦ هـ .

[ناسخ هذا المخطوط : الخطاط الشيخ محيي الدين]

الرقم : ٢ مخطوطات عبد الله نشاة .

القياس : ٢١ × ١٣سم و ـــ ٤٤ .

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ٣٣٢ .

٣٧) × تقدمة المعرفة في الطب

لبقراط بن ايراقليس اوهراقليدس الحكيم المتوفى سنة ٣٥٧ ق.م .

خطه عادي ، طب قديم ، كتب في آخره (قد تم الكتاب بعون الله الكريم الوهاب على يد الفقر الورى عبد المحسن ابن المرحوم قاسم بك لجناب العالم العامل عبد الله افندي الشلشلي البكري القريشي وذلك في مدينة الموصل المحروسة في اليوم الحادي عشر من شهر شوال المكرم سنة ١٣١٩ هـ .

الرقم : رمضاني ١٣٢ .

القياس : ٢١,٥ × ١٢,٥ سم ، س ١٥

المصدر : فهرس مخطوطات المكتبة العامة في الموصل برقم ٢٥٩ / ب

× نسخة اخرى

نسخة جيدة كتبت بخط النسخ على يد مصطفى بن صالح لاجل الشلشلي نفسه في مدينة الموصل والسنة نفسها ولكن في ٢٤ شعبان

الرقم : ٥٢٧٦ ـــ ٢ دار صدام للمخطوطات - بغداد

القياس : ٣٨ ص ٢٠ × ١٢ سم ١٥ س

المصدر : مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة في مكتبة المتحف العراقي ، اسامة ناصر النقشبندي دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١ ، ٧٤.

نسخة اخرى

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ٨ . المدرسة الاحمدية .

القياس : ٢٧ × ١٢ ، و - ٢٣٤

المصدر : ١ ـــ فهرس الجلبي ٣٣ .

٢ ـــ فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٨ برقم ٦٦ / ٢٤ (٩)

٣٨) × تقويم الأبدان في تدبير الانسان

ابن جزلة المتطبب البغدادي المتوفى سنة ٤٩٣ هـ

نقص من أوله وقد استكمل بخط حديث

تاريخ النسخ : ٦٥١ هـ

الرقم : ٥ / ٢٠ المدرسة الاحمدية

القياس : ٣٠ × ٢٢ ، و - ٩٨ .

المصدر : ١ ـــ فهرس داود جلبي ٣٢ برقم ١٣٤ .

٢ ـــ فهرس سالم عبد الرزاق ٥ / ٢٥٩ .

٣ ـــ مكتبة الدكتور يحيى باشا الجليلي

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

× نسخة اخرى

أ (الحمد لله الذي خلق فسوى وقدر فهدى وأمرض فشفا) اسفل اوراقه ممزقة .

الرقم : ١ / ١٨ مدرسة الحجيات

القياس : ٣٠ × ٢١ ، و - ٤٤

المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٣ / ٩٩ .

٣٩) × ثلاثة رسائل في الطب

للامشاطي والاسرائيلي وابن الصائغ

تاريخ النسخ : ٩٧٩ هـ

المصدر : مكتبة د . يحيى الجليلي

من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد

٤٠) جامع علوم العمل في مداواة الامراض للموصلي

عدد الاوراق : ٢

تاريخ النسخ : ٩٧١ هـ

الرقم : ٢٢٣

المصدر : فهرس عناوين المخطوطات في مكتبة الدراسات العليا ، اعداد : بديعة يوسف ، فاتن عبد الصاحب وحسين المزاوي ، مكتبة الدراسات العليا ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ .

٤١) × جنان الجنان في استعمال الدخان

لابي الوفاء العرضي المتوفى ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م

تقع نسخته ضمن مجموع في اوقاف الموصل .

المصدر : ١ ـــ فهرس سالم عبد الرزاق ٨ / ١٠٦ .

٢ ـــ مصادر النباتات الطبية ١٠١ .

٤٢) × الجواب الشافي لمن سأل عن الدواء الشافي

ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ

أ (ما تقول السادة العلماء أئمة الدين (رضي الله عنهم اجمعين في رجل ابتلي ببلية ...)
ساقط جلاده
الواقف راشد بن عبد الله المنزي سنة ١٢٩٨ هـ
وهو بخطه سنة ١٢٩٧ هـ
الرقم : ٥ / ١٨ المدرسة الاسلامية .
القياس : ٢٤٫٥×١٧٫٥ ، و – ١٥٠
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٢ / ٧١ .

٤٣) × الحاوي الكبير في الطب

لابي بكر الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ
قطعة الجزء السادس
الناسخ : صدر الدين بن اسكندر سنة ٧٩٦ هـ
الرقم : ٢ / ١٩ خزائن المدرسة الاميدية في جامع الباشا .
القياس : ٣٥ × ١٧ ، و – ٣٦٨ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٤ / ١٥٧ .

× نسخة أخرى

مجلد منه بخط محمد تقي بن رفيع الدين بن علي المغاري القاشاني ، نسخ سنة ١٠٣٦ هـ .
الرقم : ١٢٥ المدرسة الاحمدية .
المصدر : فهرس الجلبي ٣٢ .

× نسخة اخرى

المجلد الاخر فقط
ظاهره جلد اسود ذو طباقة .
أيعد البسملة (رب اعني على اتمامه ...)
الرقم : ١٤٣ المدرسة الاسلامية
القياس : ٣٥ × ١٧٫٥ ، ٣٣س
المصدر : فهرس الجلبي ٤٤ .

× نسخة اخرى

بخط محمد تقي بن رفيع الدين بن علي المغاري القاشاني المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ
ضمن مجموع برقم ٤ / ٩٤ (١) المدرسة الاحمدية .

القياس : ٣٢ × ٢٠ ، و – ٤٤٥
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٢٨٨ .

٤٤) جداول الحاوي

محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ
أ (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين قال محمد بن زكريا الرازي ...)
الناسخ : داود الجلبي سنة ١٩٢٥ م .
الرقم : ٦ / ٦ – خزانة د . داود الجلبي .
القياس : ٣٢ × ٢٢ ، و – ٧٨ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ١٧٤ .

٤٥) × شرح الحاوي للقزويني

علاء الدين علي بن اسماعيل القونوي المتوفى سنة ٧٢٩ هـ .
أ (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين باعث الرسل وموضح السبيل)
نقص من آخره
الرقم : ٦ / ٩ المدرسة المحمدية في جامع الزيواني .
القياس : ٢٨ × ١٩ ، و ٢٦٦ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٧ / ٤٤ .

٤٦) × الحاوي في علم التداوي

نجم الدين محمد بن الشيخ الياس الشيرازي من اطباء القرن السابع الهجري .
أ (الحمد لله الواحد الماجد)
ناقص من أوله وآخره (قال اسحق انه يضربالمثانة ...)
الرقم : ٢ / ١٨ مدرسة الحجيات
القياس : ٢٢ × ١٦ ، و – ١٢٧
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ١٠٧ برقم ١٠٣ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٣ / ٩٩ .

× نسخة اخرى

الرقم : ١١٥ المدرسة الحسنية
المصدر : فهرس الجلبي ١٢٩

نسخة اخرى
الرقم : ١٦٣ مدرسة يحيى باشا

المصدر : ١ ـ فهرس الجلبي ٢٢٦
٢ ـ سجلات دار صدام للمخطوطات بغداد
(مكتبة يحيى باشا الجلبي)

٤٧) × حفظ الصحة ـ محمد الطبيب

أ (الحمد لله الذي خلق الانسان في احسن تقويم وعلمه خواص الاشياء ....)
مؤطر الصفحات
الرقم : ٧ / ٦ ـ خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢١ × ١٤ ، و ـ ٤٦
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ١٧٤ .

٤٨) × حكم وفوائد في الادب والطب والتفسير

ضمن مجموع برقم ١ / ١٦ مدرسة الخياط .
القياس : ٢١ × ١٦ ، و ـ ٤١٠ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ١٠٥ .

٤٩) × خمس رسائل في الطب

لنجيب الدين السمرقندي
تاريخ النسخ : ٩٧٤ هـ
المصدر : مكتبة د . يحيى باشا الجليلي
من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد

٥٠) × دفع مضار الاغذية

محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ
أ (الحمد لله العليم الحكيم الباريء المصور القدير العظيم الحي القيوم الواحد الفرد القويم ...)
صفحته الاولى اكملت بخط يختلف عن خط الاصل .
جاء في آخره :
(تمت المقالة الثانية من كتاب محمد بن زكريا الرازي في دفع مضار الاغذية وهو آخر الكتاب وكتبه محمد بن الحسين بن زيد بخطه في .. شهور ربيع الاخر من سنة ثلاث واربعمائة والحمد لله حق حمده . حسبنا الله وحده) يحتوي على مقالتين الاولى تقع بـ ٩٤ ورقة والمقالة الثانية تقع بـ ٢٣ ورقة .
خطه مقروء ، ورقه اسمر ثخين يفصل بينهما رسالة منافع الفاكهة ومضارها) للرازي ايضاً وتقع بثلاث ورقات . وهي منسوخة سنة ٤٠٣ هـ ، وتعد اقدم مخطوطة للرازي .
الرقم : ٨ / ٦ ـ خزانة د . داود الجلبي
القياس : ١٨ × ١٤ ، و ـ ١٣١ .
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٥ .

٥١) × الرحمة في الطب والحكمة

للسيوطي : جلال الدين المتوفى سنة ٩١١ هـ .
أ (الحمد لله الذي اخترع من العدم الموجودات ، واظهر من الموجودات الكائنات ، يتضمن خمسة فصول .
ضمن مجموع برقم ١ / ١٧ (٤) مدرسة الصائغ الجلبي
القياس : ٢٢ × ١٦ ، و ـ ٩٤
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٧ / ١٨٦ .

× نسخة اخرى

نقص من اولها
ضمن مجموع برقم ٤٣ / ١٦ (٢) مدرسة الخياط
القياس : ١٦ × ١١ ، و ـ ٨٨
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ١٢١ .

× نسخة اخرى

ضمن مجموع برقم ١٥ / ١٨ (١٠) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢١ × ١٦ ، و ـ ١٣٢
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٠٨

× نسخة اخرى

الناسخ : ملا عثمان
ضمن مجموع برقم ١ / ٢٣ (٢) المدرسة الامينية
القياس : ٢٣ × ١٩ ، و ـ ٩١
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٤ / ١٩١ .

٥٢) × الرحمة في علم الطب والحكمة

تاريخ النسخ : ١٢٧٣ هـ
المصدر : مكتبة يحيى باشا الجليلي
وهو من سجلات دار صدام للمخطوطات بغداد

× نسخة اخرى

بعنوان (كتاب الرحمة في الطب والحكمة)

للمقري محمد المهكري البصيري اليمني الهندي المتوفى سنة ٨١٥ هـ
أ (الحمد لله الذي اخترع من العدم بالموجودات ...)
ضمن مجموع برقم ١٠ / ٩ (٣) خزانة د . داود الجلبي
القياس : ٢١ × ١٦ ، و ـ ٣٧
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ٢١٩

٥٣) × رد ابي الحسن علي بن رضوان على الرسالة المتقدمة

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١٧ المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و ـ ٢٣٤ .
المصدر : ١ ـ فهرس الجلبي ٣٣ .
٢ ـ فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٨
برقم ٦٦ / ٢٤ (١٩) .

٥٤ × رسالة اخرى لعلي بن رضوان وضعها لاطباء مصر والقاهرة يخبرهم بأحوال مختار بن حسن البغدادي

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ٢٠ المدرسة الاحمدية
المصدر : فهرس الجلبي ٣٣ .

٥٥) × رسالة تتعلق في الانسان هل هذا هو الهيكل المخصوص او غيره .
ضمن مجموع برقم ٦ / ٢٠ (٦) المدرسة المحمدية في جامع الزيواني عبد الغني النابلسي ، اتمها سنة ١١٠٢ هـ .
القياس : ٢٢ × ١٧ ، ٢٢١ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٧ / ٨٥ .
٥٦) × رسالة دعوة الاطباء

للمختار بن بطلان البغدادي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ
ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١١ المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و ـ ٢٣٤ .
المصدر : ١ ـ فهرس الجلبي ٣٣ .
٢ ـ فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٧ ـ ٣١٨

برقم ٦٦ / ٢٤ (١٢) .

٥٧) × رسالة طب تركية

الرقم : ١٤٤ مخطوطات جامع الباشا
المصدر : فهرس الجلبي ١٦٠ .

٥٨) × رسالة في الادوية وفي المفردات من كتاب الموجز

تاريخ النسخ : ١٢٢٦ هـ
المصدر : مكتبة د . يحيى الجليلي
من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

٥٩) × رسالة في الاصطلاحات الطبية

بلا اسم المؤلف
ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ٧ المدرسة الاحمدية
القياس : ١٨ × ١٣ ، و ـ ٢٨٦ .
المصدر : ١ ـ فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ ـ فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٥ ـ ٣١٦
برقم ٦٤ / ٢٤ (٢) .

٦٠) × رسالة في أمراض القلب من الغضب والحسد ملخصة من كتاب احياء العلوم للغزالي .

ضمن مجموع برقم ٢٦ / ١٧ (٥) مدرسة الصائغ الجلبي
القياس : ٢١ × ١٣ ، و ـ ١٢٣
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٧ / ١٩٦

٦١) × رسالة في البول

لجالينوس
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٧ المدرسة الاحمدية
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و ـ ٢٤٦
المصدر : ١ ـ فهرس الجلبي ٣٤
٢ ـ فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣٠ ـ ٣٣١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٧) .

٦٢) × رسالة في التنباك :

للحسني : ابراهيم بن سيد عبد الكريم

منها نسخة خطية ضمن مجموع في اوقاف الموصل .
المصدر : ١ ـــ فهرس سالم عبد الرزاق ٧ / ٩٦ .
٢ ـــ مصادر النباتات الطبية ٦٨ .

٦٣) × رسالة في حكم ماء الحمصة :

عبد الغني بن اسماعيل النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ .
نقص من اخرها
رسالة ضمن مجموع برقم ٥٠ / ١٧ (٢) مدرسة الصائغ الحلبي .
القياس : ٢٢ × ١٥ ، و - ٣٩
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٧ / ٢٠٧ .

× نسخة أخرى

ضمن مجموع برقم ٤٧ / ٢٣ المدرسة الامينية .
القياس : ١٦ × ١٦ ، و ـــ ٣٩
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٧ / ٣١٥ .

٦٤) × رسالة في الحكميات :

نقص من اولها الموجود منها يبدأ قال ابو العيناء لصاعد نحن في دولتك .. في أخرها صفحة في الدعاء باللغة الفارسية
الرقم : ٩ / ٦ ـ خزانة د . داود الجلبي .
القياس : ١٨ × ١١ ، و ـــ ١٧
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٥

٦٥) × رسالة في الحيض والاستحاضة والنفاس :
لحسن بن اسماعيل بن عبد الله الدركزلي الموصلي المتوفي سنة ١٣٢٧ هـ .
نسخة بخط المؤلف سنة ١٢٧٨ هـ
أ (الحمد لله الذي أمرنا بما فيه نفعنا)
ضمن مجموع برقم ٦٠ / ٣ مخطوطات الجامع الكبير النوري .
القياس : ٢٢ × ١٦ ، و ـ ٣١ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢ / ٢٧٩ .

٦٦) × رسالة في الدعاء وخواص العقاقير :

منها نسخة ضمن مجموع في اوقاف الموصل .
المصدر : ١ ـــ فهرس سالم عبد الرزاق ٨ / ١٠٩ .
٢ ـــ مصادر النباتات الطبية ١٢٨ .

× نسخة اخرى

ضمن مجموع برقم ١٦ / ١٨ (٤) المدرسة الرضوانية
القياس : ٢٢ × ١٦ ، و ـــ ١٥١ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ١٠٩ .

٦٧) × رسالة في العلاج :

رئيس الاطباء السلطاني مصطفى فيضي المعروف بحياتي زادة المتوفى سنة ١٠٠٣ هـــ .
أ (أما بعد فهذه رسالة الفها مصطفى أفندي حكيم باشي سلطان محمد الفاتح بن السلطان ابراهيم رحمهم الله تعالى ، أشار بتاليفها فصنفها برسمه في بيان معالجة العلة المراقية السوداوية وغير السوداوية وهي مرتبة على احدى وعشرين فصلاً ...)
نقولات من اولها وأخرها
الرقم : ١ / ١٤ المدرسة الرضوانية
القياس : ٢٢ × ١٦ ، و ـــ ٣٢
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٨ / ٩٥ .

٦٨) × رسالة في الطب :

ضمن مجموع برقم ١٦ / ٢٢ (١) مدرسة الحجيات .
القياس : ١٧ × ١٢ ، و ـــ ١٤٤
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣ / ١٣١ .

× نسخة أخرى :
ضمن مجموع برقم ٣٦ × ٢٣ (٤) المدرسة الامينية .
القياس : ٢٠,٥ × ١٥ ، و ـــ ١٨٩ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٤ / ٢٠٧ .

٦٩) × رسالة في طب الأبدان والأديان :

لمحمد بن حبيب ابي القاسم النيسابوري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ
ضمن مجموع برقم ٧٧ / ٢ المدرسة اليونسية .
القياس : ٢١ × ١٥ ، و - ٢٢٥ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ٣٦ .

٧٠) × رسالة في الطب ـــ تركي :

الرقم : ١٧ / ٢٢ خزائن المدرسة الامينية في جامع الباشا .
القياس : ٢١ × ١٦ ، و — ٦٦
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٤ / ١٧٩ .

٧١) × رسالة في الطب القديم :

عن رأي ' د. الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ
ضمن مجموع برقم ٢٤ / ٢٠ (٣) المدرسة الاسلامية .
القياس : ١٦ × ١٢ ، و — ٥٦
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٢ / ٩٩ .

٧٢) × رسالة في الطب منظومة ومنثورة بضمنها فصل من كتاب الباه .

ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٨ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و — ٢٤٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٨) .

٧٣) × رسالة في علم الصحة :

علي بن موسى الرضي المتوفى سنة ٢٠٣ هـ .
ضمن مجموع برقم ٧٠ × ٢٤ (١) المدرسة الاحمدية .
القياس : ١٢ × ١٧ ، و — ١٣٩ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٢٣ .

٧٤) × رسالة في الفروج :

للمختار بن الحسن بن بطلان البغدادي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ
ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١٦
القياس : ٢٧ × ١٢ ، و — ٢٣٤ .
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٢
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٨ برقم ٦٦ / ٢٤ (١٨) .

٧٥) × رسالة في ماهية الروح والحياة والنفس والعقل واقسامها وتوابعها :

لابي كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ هـ
أ (وبعد فهذه رسالة مشتملة على فوائد جليلة عن ماهية الروح والحياة والنفس والعقل واقسامها وتوابعها وهي مرتبة على فصلين وستة عشر بحثاً) .
الناسخ : ملا محمد بن علي الدركزنلي سنة ١٢٠٦ هـ .
ضمن مجموع برقم ٧٦ / ٢٤ (٤) المدرسة الاحمدية .
القياس : ٣٢ × ٢٣ ، و — ٢٦٥ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٣٣١/٥ .

٧٦) × رسالة في المجربات في الطب :

داود الضرير الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ .
أ (باسمك اللهم نطلب النجاة والشفا) .
ضمن مجموع برقم ١٥٣ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و — ٢٤٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣٠ — ٣٣١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٥) .

٧٧) × رسالة في النبض :

جمع محمد الطبيب المهتدي الموصلي المتوفى سنة ١٢٦٣ هـ .
تشتمل على بابين ومقدمة .
أ (إعلم بان حركة النبض بالقوة الحيوانية وآلة الحركة القلب والشريان ...)
الرقم : ١٠ / ٦ خزانة د . داود الجلبي .
القياس : ١٦ × ١١ ، و — ٢٢
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٦ / ١٧٥ .

٧٨) × رسالة للرازي في الباه :

أ (قال محمد بن زكريا الرازي إنه وان كانت الكتب المؤلفة في الباه غزيرة موجودة فإني لم أر منها الى هذه الغاية كتاباً كافياً بالغاً في هذا الغرض وتوابعه بل وجدتها اما مبتسرة او مشوشة ملتبسة ... الخ .)
قد اشغلت ٤٤ صفحة .
ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ٣ المدرسة الاحمدية .
القياس : ١٨ × ١٣ ، و — ٢٨٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٥ — ٣١٦ .
برقم ٦٤ / ٢٤ (٣)

٧٩) × رسالة لمحمود بن الياس الشيرازي في الباه

أ (الحمد لله الواحد الفتاح ، خالق الارواح والاشباح ، الذي جعل الليل سكناً وخلق الصباح واباح النكاح ، وحرم السفاح ، والصغرى ... الخ —) .
في ٨٢ صفحة .
ضمن مجموع برقم ١٥٤ / ٤ المدرسة الاحمدية .
القياس : ١٨ × ١٣ ، و— ٢٨٦ .
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣١٥ — ٣١٦ .
برقم ٦٤ / ٢٤ (٤) .

٨٠) × رسالة ما جاء في العين مع فوائد اخرى .

أ (صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه قال العين حق العين حق ..)
ضمن مجموع برقم ٨٢ / ٢٤ (٧) المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢١ × ١٥ ، و— ١٣٩ .
المصدر : فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٣٦ .

٨١) × رسالة المفرجات :

انتخبها الشيخ احمد الحميدي رئيس الاطباء بالديار المصرية
ضمن مجموع برقم ١٥٣ / ٦ المدرسة الاحمدية .
القياس : ٢٠ × ١٥ ، و— ٢٤٦
المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٤ .
٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ٣٢٠ — ٣٢١ برقم ٧٧ / ٢٤ (٦) .

٨٢) × رسالتان في الطب :
بدر الدين محمد القوصوني .
تاريخ النسخ ٩٧٤ هـ .
المصدر : مكتبة د . يحيى باشا الجليلي .
من سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

٨٣) × الروضة الطبية :

كتاب صغير ، خطه
الرقم : ١٤٥ مخطوطات جامع الباشا
القياس : ١٦ × ٩ ، و— ٧٠ ، ١٥ س .
المصدر : فهرس داود جلبي ٦٠ .

٨٤) × الروضة في الطب :

عبد الله بن جبريل بن بختيشوع المتطبب المتوفى سنة ٤٥١ هـ .
أ (اللهم أعن على طاعتك كل فاضل ...)
الناسخ : يوحنا بن قسيس دانيال الكلداني سنة ١١٤٦ م وقد قوبلت النسخة على النسخة الاصل .
الرقم : ٣ / ١٩ خزائن المدرسة الامينية في جامع الباشا .
القياس : ١٦ × ١١ ، و— ٣٤ .
المصدر : فهرس سالم عبد الرزاق ٤ / ١٥٧ .

٨٥) × روضةالمباهج في الطب :

خط رديء ، طب قديم ، فيه وصفات طبية قديمة .
أ (بسم الله الرحمان الرحيم به ثقة فصل في الصداع) .
الرقم : باشعالم / ١١٠٦ .
القياس : ٢١ × ١٥ ، و— ١٧٢ س ١٩
المصدر : فهرست مخطوطات المكتبة العامة في الموصل رقم ٢٦٢ .

٨٦) الرياض النعمانية في فوائد الطب من الحكمة الطبيعية ، لنعمان بن عثمان الدفتري العمري الموصلي .
جاء في اول الكتاب هذان البيتان لاحدهم مادحاً المؤلف :
سرح الطرف في كتاب طبيب
حاذق في طبايع الانسان
حين ترعى تلك الرياض بفهم
تدري ان لا شقيق للنعمان
أ (الحمد لله منشيء التركيب الانساني من عنصر التراب ومرتب الهيكل الحيواني من عروق واعصاب ... الخ) .
ذكر المؤلف انه قرأ الطب على الشيخ احمد العبدلي . وقال ناسخه : « وكان مؤلفه يحرر كراريس ويرسلها لي وانا اجرها للبياض » .
فتكون هذه النسخة اول نسخة كتبت سنة ١١٦٥ . يلي الكتاب قسم من قانون ابن سينا .
الرقم : ٩٨ مخطوطات جامع النبي شيت .
القياس : ٢٦ × ١٥ ، و— ١٧٧ س ٢٥ .
المصدر : فهرس داود جلبي ٢١٧ .

٨٧) × شرح أرجوزة للرئيس ابن سينا :

محمد الطبيب المهتدي بن تسيس يوحنا الطبيب الموصلي (نسخة الشارح) .

أ (نبتدي بعونه تعالى شرح ارجوزة الحسين الشيخ ابي علي بن سينا ...) .

الناسخ : محمد الطبيب المهتدي سنة ١٢٤١ م .

الرقم : ١٤ / ٦ — خزانة د . داود الجلبي .

القياس : ٢٢ × ١٦ ، و — ٢١٢ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ١٧٧ .

٨٨) × شفاء السقيم :

أ (الحمد لله رب العالمين ومدبر لمور الخلق لجمعين ...) .

يحتوي على كتب طبية منقولة من كتب باللغة التركية وكتب عربية معتبرة منها التحفة الجامعة ليحيى بن ابي بكر بن محمد بن يحيى وغاية البيان لصالح افندي ؟ ورسالة في الطب لنصرة افندي الاسلامبولي ومفردات قاسم المولوي الموصلي . صفحاته مؤطرة .

الناسخ : مصطفى الحافظ سنة ١٢٤١ هـ .

الرقم : ١٦ / ٦ — خزانة د . داود الجلبي .

القياس : ١٥ × ١١ ، و — ٧٠ .

لمصدر : فهرس عبد الرزاق ٦ / ١٧٧ .

٨٩) × الشفاء العاجل والداء الكامل

لامين بك حفيد ياسين افندي الموصلي .

الرقم : ١٢٢ مدرسة عبد الرحمن جلبي الصائغ .

المصدر : فهرس الجلبي ١٥٧ .

× نسخة اخرى :

نسخت سنة ١٢٠٧ هـ .

المصدر : مكتبة يحيى الجليلي

سجلات دار صدام للمخطوطات ، بغداد .

٩٠) × شرح كتاب دعوة الاطباء :

لابي الحسن علي بن هبة الله بن اليردي .

ضمن مجموعة برقم ١٥٢ / ١٢ المدرسة الاحمدية .

القياس : ٢٧ × ١٢ ، و — ٢٣٤ .

المصدر : ١ — فهرس الجلبي ٣٣ .

٢ — فهرس عبد الرزاق ٦٦ / ٢٤ (١٣) .

٩١) × شرح منظومة ابن سينا في الطب :

ابن رشد محمد بن احمد القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ .

نقص من اخرها .

الرقم : ٦٤ المدرسة اليونسية .

القياس : ٢٣ × ١٧ ، و — ١٠٤ .

المصدر : فهرس عبد الرزاق ٨ / ٣١ .

٩٢) × الصُلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان :

للنابلسي : عبد الغني بن اسماعيل المتوفى سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م .

الرقم : ضمن مجموع برقم ٥٩ مدرسة الخياط .

المصدر : ١ — فهرس الجلبي ، ١٤٤ .

٢ — مصادر النباتات الطبية ١٢٠ .

× نسخة أخرى

الرقم : ضمن مجموع برقم ٢٣ (٣) المدرسة العبدالية .

المصدر : ١ — فهرس الجلبي ، ١٦٦ .

٢ — فهرس عبد الرزاق ٥ / ١١٤ .

٣ — مصادر النباتات الطبية ١٢٠ .

إعداد

أخبار التراث والمحققين

اعداد : د . عماد عبد يحيى .

● الندوات والمؤتمرات :

- التحديث وثقافة الانسان العربي :

عقد المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دورته الثانية والستين في تونس للمدة من ٢٦ - ٣٠ آب سنة ١٩٩٥ ، وكان من أهم ما ناقشه الخطة التي تتضمن الخطوط والافكار الاساسية ، التي ستعتمد في تخطيط مشاريع الدورات اللاحقة وبرامجها . وقد ورد في كلمة الافتتاح التي ألقاها المدير العام للمنظمة الاستاذ محمد الميلي ابراهيمي ، ان وثيقة التحديث ومحاوره التي اعتمدها المؤتمر العام للمنظمة هي الخطوة الاولى في طريق التحديث ، والانطلاقة المرجوة نحو انشطة تلبي الاولويات في مجالات تمس الانسان العربي في تكوينه ، تربوياً وثقافياً وعلمياً ، من اجل تحقيق الوحدة الثقافية بين أبناء الوطن العربي . وأكد في كلمة الختام ان كل تجديد وإصلاح يصطدم بحيرة هنا وتساؤل هناك ، يكون سبباً في إثارة قلق ومخاوف لدى البعض ، او يدفعه لسوء تأويل ● ●

- ترميم المخطوطات خطوة من أجل التراث :

عقد معهد المخطوطات العربية دورة تدريبية في دمشق حول ترميم المخطوطات وصيانتها ، استمرت من ٥ آب - ٢ أيلول سنة ١٩٩٥ ، وبواقع اربع ساعات ونصف يومياً ، تناولت الدورة العديد من الموضوعات المتعلقة تعلقاً وثيقاً بترميم المخطوطات وصيانتها ، مثل : التعقيم ، والعوامل الطبيعية والبيولوجية ، وطرق تنظيف الورق ، والكشف عن حموضته ومعالجتها ، وفك الاوراق الملتصقة ، وترميم القطوع المائلة والحادة والتفتت والكسور ، واستكمال الأجزاء الناقصة ، واستخدام اسلوب القص واللصق المباشر ، والعوامل المكثفة لمواد الكتابة ، والحشرات وانواعها وأضرارها ، وطرق تحضير الاصباغ المستعملة في ترميم الاغلفة الجلدية وتنظيفها وتعقيمها ، وجدير بالذكر ان اغلفة المخطوطات ذوات طبيعة خاصة ، وتحتاج إلى مهارات دقيقة لما تتمتع به أغلفة عدد كبير منها من طبيعة فنية تتجلى فيها الخطوط والرسوم والالوان مما يعطيها قيمة فنية ينبغي الحفاظ عليها . ونظم المعهد دورة تدريبية اخرى في تموز ١٩٦٦ بالتعاون مع المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة وهي الدورة الثانية في سلسلة دورات المعهد الخاصة بالترميم ، في حين تعد الرابعة في سلسلة دورات المنظمة الاسلامية .

- تاريخ الطباعة العربية :

نظم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي ندوة عن تاريخ الطباعة العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر في اثناء ٢٢ و ٢٣ من شهر تشرين الأول ، عرض الباحثون فيها موضوعات تتعلق بنشأة الطباعة العربية وطرقها المستخدمة والاحوال التي رافقت وجودها والعوامل التي ساعدت على نموها . وعرضوا الاتجاهات في هذه الطباعة ونوعيتها ، وقدموا لوائح ببلوغرافية عن آوائل المطبوعات ، وألقوا الضوء على مناهج التحقيق التي اتبعت في نشر التراث المخطوط في أوائل القرن الرابع من الهجرة ، والكتب التي يُعاد طبعها محققة على وفق هذه المناهج .

ومن أبرز ما عرض في الندوة ماقدمه الدكتور علي ابراهيم النملة عن أثر المستشرقين في دراسة التراث العربي ، والدكتور صلاح الدين المنجد عن منهج نشر التراث العربي في أوائل القرن الرابع من الهجرة ، والدكتور عبد العزيز عبيد عن برنامج ذاكرة العالم الذي تقوم به المنظمة العالمية(اليونسكو) .

- علم الكحالة عند العرب :

نظم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي ندوة عن(علم الكحالة في التراث العربي) في يوم الثلاثاء الموافق ١٤ آذار ١٩٩٥ ، ومن الموضوعات التي عرضت فيها : المؤلفات العربية في علم الكحالة للدكتور محمد رواس قلعجي ، وعرض الدكتور ظافر وناتي مخطوطاً محققاً في علم الكحالة ، وألقى الدكتور نشات حمارنة محاضرة عن إسهامات العلماء العرب في علم الكحالة ، والدكتور ماهر عبد القادر محاضرة عن نظرية الإبصار عند الكحالين العرب .

- تاريخ العلوم عند العرب :

انعقدت الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب في كانون الاول من العام ١٩٩٦ في الإمارات العربية المتحدة ، والتي نظمها معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب بالتعاون مع مركز الدراسات والوثائق في دولة الإمارات . وعالجت الندوة الموضوعات : تاريخ العلوم الطبية والصيدلية ، تاريخ العلوم الاساسية(الكيمياء ، الفيزياء ، الرياضيات) ، تاريخ علوم الكون والفلك ، تاريخ العلوم الزراعية والري وعلم الحيوان ، تاريخ التكنولوجيا .

- أزمة العمل التراثي :

في ندوة علمية ، استمرت يومين(٢١ ، ٢٢) من نيسان ١٩٦٦ أثار معهد المخطوطات العربية مجموعة من قضايا

● نتيجة للحصار الثقافي فان عدداً من الاخبار يصل الينا متاخرا .

●● تجدر الاشارة الى ان التحديث والتجديد والاصلاح الذي يمس التكوين التربوي والثقافي والعلمي ينبغي الا ينفصل عن المرجعية العربية وتحقيق هوية الامة .

التراث الخطرة والخطيرة ، كان من أهمها الأزمة التي يعاني منها العمل العربي المشترك في ميدان التراث خصوصاً ، والثقافة عموماً .. وقد أقيمت الندوة تحت عنوان« معهد المخطوطات العربية : وثائق الماضي ورؤى المستقبل » وتضمنت ، فضلاً عن الجلسة الافتتاحية ، أربع جلسات علمية ، ألقي في كل جلسة منها بحثان . وقد بحث المشاركون في أثناء الجلسات قضايا العمل التراثي العربي المشترك ، والمعوقات التي تعترض طريقه ، والآفاق المستقبلية التي ينبغي أن يرتادها ، وهو على أبواب القرن الحادي والعشرين ، واستعرضوا الجهود التي بذلها المعهد على مدى خمسين عاماً مضت ، وقوموا هذه الجهود ، منوهين بما أسفرت عنه من خدمات مهمة لتراث الامة المكتوب ، ومشيرين إلى اوجه القصور .

ومن أخطر القضايا التي عرضت في الندوة ماتحدث فيها الدكتور أحمد درويش عن أزمة العمل التراثي في ضوء مفهوم الثقافة : رؤية تاريخية .

وقد أكد في ورقته ان معهد المخطوطات في اثناء خمسين عاماً من عمره ادى دوراً رئيساً في المحافظة على فكرة التراث المشترك حيةً ونابضة ، من خلال رصد المخطوطات وتصويرها وترميمها وكتابة التقارير عن تجمعاتها في المناطق البعيدة ، وطبع مايستطيع ان يطبعه منها ، والتنسيق مع المكتبات العالمية والعربية في هذا الصدد ، واصدار مجلة للمخطوطات ، والمشاركة في إعداد أجيال جديدة من المحققين من خلال دورات علمية جادة .

وقال : إن التراث ومجال الحركة فيه على الرغم من ضيقها خلال الفترات الماضية ، يتعرض الآن لموجة قاسية من الهجوم المخطط له بعناية ، وهو هجوم تنبع كثير من دوافعه من خارج هذا التراث وعلى يد من لاينتمون إليه ، لكن جزءاً آخر خطيراً يتم على يد أبناء هذا التراث نفسه بوعي أو بدون وعي ، وجذور هذه الموجة تمتد إلى سنوات الصراع الطويل منذ زمن الحروب الصليبية إلى سنوات الحرب بين دولة الخلافة الاسلامية والتجمعات السياسية في أوربا ، مروراً بالعصر الاستعماري الذي كانت الدول الاسلامية مسرحه الرئيس وطعامه الملتهم ، وتنتهي في جولتها الأولى باقتسام تركة الرجل المريض اقتساماً لم يُصفِ كل الخلاف بين المهاجمين أنفسهم ، فظلوا في تجمعات تتقابل في حذر ويتخذ بعضها بعضاً عدواً لشحذ الاسلحة ، ويتخذون معاً أرض التراث العربي والإسلامي منطقة صراع تجري عليها لعبة الشدّ والجذب ولا تدخلع فيها غالباً إلا أذرع الضعفاء من أبناء عالمنا . لكن هذه الخلافات وقد حسمت الآن ـ ولو مؤقتاً ـ على نحو أو آخر ، اتفق الجميع على ان يكون« التراث العربي الاسلامي » هو العدو المعلن ، وان توجه إليه كل قوى التدمير ... وان يتم اقناع العالم بالتوحيد ضده واقناع ابنائه بالنفور منه والتبرؤ من الانتماء إليه ، ليشرف بصفة الانتماء إلى دائرة« المواطن العالمي المتحضر » في الوقت الذي يشجع فيه التراث اليهودي الملاصق والمنافس ، على أنه يمثل الاصل البعيد للحضارات العتيقة والضرورة القريبة لاندماج الحضارات الحديثة .

ودعا الى مواجهة ذلك بتخطيط ثقافي واع يوجه الى الداخل قبل ان يوجه الى الخارج ، ويفرق بين مفاهيم الاصالة والجمود ، ويتوجه الى العمل التراثي نفسه بالتجلية والتحليل واستقصاء العناصر التي يمكن ان تواجه عقل المثقف اليوم وليس عاطفته فقط ، والحرص في المستويات الاكاديمية العالية على رموز هذا التراث وروحه ، والنهوض بفكرة التحقيق وقيمتها العلمية ، واعتبارها هدفاً ينبغي التخطيط له في وعي من أجل الحصول على نتائج معينة محدودة في مجالات تعرف سلفاً وتغطي جوانب الادب والعلوم الدينية والاجتماعية والتراث العلمي والفني ، ويتم التنسيق بين المجهودات في هذا الصدد من خلال الوسائل العلمية الحديثة .

ومن القضايا الخطيرة ماعرضه الدكتور يوسف زيدان في الجلسة الرابعة للندوة والتي رسم فيها خريطة المستقبل للمعهد ، واشار الى انه بمقارنة ماقدمه المعهد على ارض الواقع بما قدمته المؤسسات السياسية يمكننا القول : ان ما حققته الجامعة العربية ـ منذ نشاتها ـ على صعيد العمل الثقافي يفوق بمراحل ماقدمته في المجال السياسي .. فالبلاد العربية توحدها الثقافة باكثر مما تتحد تحت مظلة السياسات والثقافة باقية ، والسياسات عرضة للتبدل ومداومة التغير في المواقف . وعلى اي الاحوال ، فليس موضوعنا هو المقارنة بين« السياسي » و« الثقافي » العربي ، وانما هي اشارة الى اولوية الثقافي على السياسي ، كمقدمة للكلام على المستقبل . واوضح ان مسايرة التحولات تقتضي ديناميكية ذهنية وتطويراً دائماً ، ليس للمفاهيم العامة للتراث فحسب ، وإنما يجب ان يصل التطوير الى تفصيلات العمل التراثي ، فنظم الفهرسة الوصفية ، لابد لها من تطوير دائم ، ومناهج تحقيق التراث ، لاينبغي لها ان تتوقف عند الاطر القديمة ـ التي وضعها المستشرقون اصلاً ـ بل لابد من تطوير دائم لهذه المناهج ؛ وقاعدة المشتغلين بالتراث ينبغي ان تتسع لتشمل الاجيال الجديدة .

وقال : ان على التراث مسؤولية كبيرة في تصنيع المعرفة وتشكيل العقول من خلال غرس الخلاصات التراثية المنتقاة بعناية ودمجها في برامج التعليم . وإلا ، فلماذا يتعرف التلاميذ عندنا الى إقليدس اكثر مما يتعرفون الى ابن سينا ، هل لان اقليدس يمثل تراثاً عالمياً ؟ ان ابن سينا هو الاخر يمثل هذا التراث العالمي في انصع تجلياته ... المسالة اذن ، اننا تابعنا الغرب في تصنيعه الخاص للعقول ، ولم نتخذ موقفاً نقدياً بصدد هذه المسالة .

- مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

عقد المجمع مؤتمره في اثناء المدة من ٢٨ من شوال الى ١٣ من ذي القعدة ١٤١٦هـ . وقد تضمن المؤتمر خمس عشرة جلسة كانت الاولى مخصصة للافتتاح ، وفي الجلسة الثانية ألقى د. محمود علي مكي محاضرة بعنوان : الاستشراق الاسباني والدراسات العربية الاسلامية . وفي الجلسة الثالثة نظر الاعضاء في مصطلحات الفيزيقا ، والعلوم الطبية ، وألقيت فيها ثلاثة بحوث : الاول : القواميس المدرسية المتداولة للشاذلي القليبي . والثاني : الاعلام الجغرافية في رحلة ابن بطوطة للدكتور عبد الهادي التازي . والثالث : دراسة في علم تاريخ الافكار للدكتور احمد صدقي الدجاني . وفي الجلسة الرابعة نظروا في مصطلحات الجيولوجيا ، ومصطلحات التربية ، ومصطلحات علم النفس . واستمعوا الى ثلاثة بحوث كان اولها : عن الاصوات المتوسطة والاصوات الذُلق ، للدكتور كمال محمد بشر . والثاني : عن رحلة الشاعر الخاقاني الشرواني الى الحرمين الشريفين للدكتور مهدي محقق والثالث عن« قاموس البلاد المصرية لمحمد رمزي » للدكتور محمد السيد غلاب . وقد خصت الجلسة الخامسة لتابين الدكتور ابراهيم بيومي مدكور. أما في الجلسة السادسة فقد نظر الاعضاء في مصطلحات الكيمياء ومصطلحات الشريعة ومصطلحات الفلسفة ، ثم ألقى الاستاذ الشاذلي القليبي بحثاً عنوانه : ألفاظ وتراكيب شائعة . والدكتور كمال محمد دسوقي بحثاً : الولاية والولاء والموالاة في« لسان العرب »وفي« السياسة الشرعية » . وخصت الجلسة السابعة لتابين الدكتور عدنان الخطيب ، وكانت الجلسة الثامنة للنظر في مصطلحات علوم الاحياء ، ومصطلحات الادب ، واعمال لجنة اصول اللغة . ثم ألقى الدكتور ناصر الدين الاسد بحثاً عن(البلغاء في كتب الجغرافيين العرب) والدكتور محمد رشاد الحمزاوي بحثاًعن(مقاييس ابن فارس ومفهوم المعنى) . ونظر الاعضاء في الجلسة التاسعة في مصطلحات القانون الدولي والفاظ الحضارة . أما البحوث فهي : خواطر عن اسماء بعض الاماكن في بلدنا للدكتور عبد الله الطيب .(الحسن بن احمد الهمداني وكتابه الاكليل) للدكتور محمد احسان النص . وفي الجلسة العاشرة ألقى الدكتور شوقي ضيف محاضرة تحت عنوان : عالمية الاسلام . وفي الجلسة الحادية عشرة نظروا في مصطلحات الهندسة واعمال لجنة الالفاظ والاساليب . ثم ألقى د . محمد يوسف الحسن بحثاً« دفاعاً عن التعريب في اللغة العربية العلمية » والاستاذ علي رجب المدني بحثاً« العربية ميراث انساني على العرب ان يقدموه للعالم ليمكنوه من تعلمها واستيعاب بلاغة ماكتب بها » . وفي الجلسة الثانية عشرة ألقى الدكتور كمال محمد بشر محاضرة تحت عنوان : النحو ليس الإعراب والإعراب ليس النحو . وفي الجلسة الثالثة عشرة نظروا في مصطلحات الرياضيات والتاريخ والاثار والنفط . اما البحوث فكانت : الاعلام الجغرافية في الشعر الجاهلي للدكتور يحيى جبر ، و« اللغة العربية في الجزائر اثناء الاحتلال الفرنسي » للدكتور ابو القاسم سعد الله . وفي الجلسة الرابعة عشرة نظروا في نموذج من المعجم الكبير ، ثم ألقى د . محمود مكي بحثاً عن(البرتغال وماضيه العربي الاسلامي) و د . عبد الرحمن الحاج صالح بحثاً« أقائم اخواك ؟ وطريقة تفسيره عند سيبويه والرضي » و د . حسن عبد اللطيف الشافعي بحثاً عنوانه :(نحو علم للقواعد الاعتقادية الشرعية » . اما الجلسة الخامسة عشرة فكانت للقرارات والتوصيات وكلمة الختام .

- مؤتمر لتعريب العلوم :

نظمت جامعة الازهر مع الجمعية المصرية لتعريب العلوم المؤتمر السنوي الثاني لتعريب العلوم في اثناء يومي ٢٠ و ٢١ آذار ١٩٦٦ . ويهدف المؤتمر الى حل المعوقات وإبراز المنجزات الحالية وايضاح سبل اختراق الحواجز .

●- فهارس المخطوطات :

- فهرس مخطوطات جامعة الاسكندرية :

صدر عن معهد المخطوطات العربية« فهرس مخطوطات جامعة الاسكندرية » الذي أعده د . يوسف زيدان في جزأين . وضم وصفاً لـ ١٤٦٧ مخطوطة وبلغ عدد صفحات الجزء الاول ٤١٨ صفحة والجزء الثاني ٤٢٩ صفحة . وقد صنف المخطوطات في مجموعات وتعدّ مجموعة جعفر ولي باشا من انفس المجموعات الخطية في مصر وهي اهم مجموعة بالمكتبة وتحتوي على ٦٨٣ مجلداً عربياً تشتمل على ٩٢٠ عنواناً عدا المصاحف والمخطوطات غير العربية .

- فهرس المخطوطات المصورة القسم الخامس(الادب) :

صدر عن معهد المخطوطات العربية هذا الفهرس ويتضمن القسم الخامس الذي اعده عصام محمد الشنطي المخطوطات المصورة المحفوظة في خزانة المعهد في فن الادب . والتي تبدأ عناوينها بحرف الصاد فما بعده . وذيل الفهرس بثلاثة اثبات : الاول لعناوين الرسائل المتداخلة ، والثاني لاسماء المؤلفين ، والثالث لاسماء النساخ . وقع الفهرس في ٢٢٧ صفحة من القطع المتوسط .

●- أخبار المحققين والباحثين :

- ديوان عثمان بكتاش الموصلي - جمع وتحقيق ودراسة ، نال عليه شهادة الدكتوراه السيد احمد حسين الساداني من جامعة

الموصل- كلية الاداب- وهو باشراف الاستاذ الدكتور عبد الوهاب العدواني .

- مرويات النضر بن شميل اللغوية جمع وتحقيق ودراسة . نال عليها شهادة الدكتوراه السيد محمد سعيد حميد من جامعة الموصل - كلية الاداب . والرسالة باشراف الدكتور طالب عبد الرحمن .

- الاتساع في اللغة عند ابن جني ، رسالة دكتوراه تقدم بها السيد حسن سليمان الى جامعة الموصل - كلية الاداب ، وهي باشراف الاستاذ الدكتور محيي الدين توفيق .

- جهود الكرماني اللغوية والنحوية في شرح صحيح البخاري ، رسالة دكتوراه تقدمت بها الى جامعة الموصل - كلية الاداب سهيلة طه محمد وباشراف الاستاذ الدكتور كاصد ياسر الزيدي .

- الدرس الصرفي في شروح الشافية - رسالة دكتوراه تقدمت بها سناء طاهر محمد الى جامعة الموصل - كلية الاداب وباشراف الاستاذ الدكتور طارق عبد عون الجنابي .

- كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب دراسة تحليلية في نصه الشعري ، رسالة دكتوراه تقدمت بها الى كلية الاداب بجامعة الموصل السيدة نزهة جعفر حسن وباشراف الاستاذ الدكتور حازم عبد اللهخضر .

- الدرس النحوي في الكتب التعليمية إبان القرن الرابع منهجه وتطبيقاته . رسالة تقدم بها السيد معن عبد القادر بشير الى كلية الاداب بجامعة الموصل ونال عليها شهادة الماجستير وكانت باشراف الدكتور عماد عبد يحيى .

- المنهج السالك الى مقاصد ألفية ابن مالك لمحمد امين بن خير الله العمري الموصلي المتوفي سنة ١٢٠٣ - تحقيق ودراسة . انتهى من تحقيقها السيد عبد الجبار احمد صالح وسيقدمها الى كلية الاداب بجامعة الموصل لنيل شهادة الدكتوراه وهي باشراف الاستاذ الدكتور عبد الوهاب العدواني .

- ما أقره ابن مالك من الاساليب العربية المأثورة - دراسة نحوية نقدية . رسالة تعدها طالبة الدكتوراه هدى طاهر محمد وباشراف الاستاذ الدكتور عبد الوهاب العدواني .

- الازهري مفسراً في تهذيب اللغة - رسالة ماجستير يعدها السيد ماهر جاسم وباشراف الاستاذ الدكتور محيي الدين توفيق .

- جهود النووي اللغوية في شرح صحيح مسلم . رسالة ماجستير تعدها الطالبة زهراء خالد العبيدي وباشراف الدكتور حازم سعيد يونس .

- الفوائد في اختصار المقاصد ، او القواعد الصغرى ، لسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام السلمي ، انتهى من تحقيقه الاستاذ اياد خالد الطباع من مركز جمعة الماجد . وسبق لهذا الكتاب ان طبع ، وتزيد هذه الطبعة بمقدار الثلث عن النسخة المطبوعة سابقاً ، كما انتهى من تحقيق(مقاصد الرعاية لحقوق الله عزوجل) للعزّ ايضاً ، ويقوم ايضاً بتحقيق كتابين للعزّ هما الفتاوي المصرية والفتاوي الموصلية .

- المزهر في علوم اللغة للسيوطي(ت ٩١١ هـ) . يقوم الدكتور رمضان عبد التواب وتلميذه الدكتور رجب عثمان بتحقيق(المزهر) وسيصدر الكتاب عن مؤسسة الخانجي للنشر بالقاهرة . ويعتمد المحققان على خمس نسخ خطية بعضها يعود الى عصر السيوطي نفسه . وجدير بالذكر ان الكتاب كان قد حققه : محمد احمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل ابراهيم ، وكان قد صدر عن دار احياء الكتب العربية القاهرة . وطبعة الرابعة كانت سنة ١٩٥٨ .

- انشاد الصوال وارشاد السؤال ، لابي عبد الله بن هانئ اللخمي السبتي(ت ٧٣٣ هـ) يعمل على تحقيقها د . عبد الكريم عوفي في معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة باتنة - الجزائر . والمخطوطة اختصار لـ(المدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي(ت ٥٥٧ هـ) .

- تلطيف المزاج من شعر ابن الحجاج . وهو الشاعر الحسين بن احمد بن محمد بن جعفر ابو عبد الله النيلي البغدادي(ت ٣٩١ هـ) ، انجز تحقيقها نجم عبد الله مصطفى وهي تحتوي على ٦٧٧٣ بيتاً وعلى(٣٠٥) مقطوعات في(١٧) غرضاً شعرياً .

- شرح لامية العرب لابي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي(ت ٥٠٢ هـ) انجز تحقيقها الدكتور محمود محمد العامودي وقد اعتمد على نسخة خطية ، وصفها بانها وحيدة وهي محفوظة ضمن مجموعة في مكتبة برلين .

- كما انجز الدكتور العامودي بحثاً عن(عقيل بن علفة المري) جمع فيه شعره وشرحه وحققه .

- التبيان لبديعة البيان ، لابن ناصر الدمشقي ، انتهى من تحقيقها السيد محيي الدين علي نجيب ، وقد اعتمد المحقق على نسخة محفوظة في المتحف البريطاني . والتبيان شرح لمنظومة في طبقات الحفاظ للمؤلف نفسه .

- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ، لمحب الدين احمد بن عبد الله بن محمد الطبري(ت ٦٩٤ هـ) حققه فريدريك باودن(بلجيكي) لنيل درجة الدكتوراه .

- إسفار كتاب الفصيح ، لابي سهل محمد بن علي الهروي(ت ٤٣٣ هـ) حققته ندى محمد كمال لنيل درجة الماجستير .

- ضياء الدين بن الاثير : دراسة في تراثة النقدي ، دراسة اعدها عرفة حلمي عباس لنيل درجة الدكتوراه باشراف الدكتور شوقي ضيف ، تهدف الدراسة الى الكشف عن الخصائص المميزة لنثر ابن الاثير من ناحية ، وكذلك عن نظريته النقدية في الكتابة

النثرية من ناحية اخرى .

ـ تحقيق ودراسة المقالات الثانية حتى السادسة في الهندسة المستوية في كتاب : في حل شكوك كتاب اقليدس في الاصول وشرح معانيه لابن الهيثم . رسالة دكتوراه في العلوم الاساسية للسيد فؤاد عويلة باشراف د . سامي شلهوب .

ـ قبيلة خولان بن عمرو ودورها في تاريخ العرب قبل الاسلام . رسالة دكتوراه للسيد شاكر مجيد كاظم باشراف الاستاذ الدكتور منذر عبد الكريم استاذ تاريخ العرب قبل الاسلام في كلية الاداب بجامعة البصرة .

ـ الرثي في العراق في العصر الاموي . رسالة ماجستير تقدمت بها مها الشعار إلى معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، اشرف على الرسالة د . محمود فيصل الرفاعي .

ـ علم الضوء عند ابن الهيثم . رسالة ماجستير في تاريخ العلوم الاساسية لبثينة جلخي وباشراف د . سامي شلهوب .

ـ السهيلي مفسراً ، رسالة جامعية أنجزها بنيونس الزاكي في وجدة ـ بالمغرب

ـ شرح التسهيل ، للشيخ خالد الازهري ، أنجز ،خيري عبد الراضي عبد اللطيف تحقيق ودراسة الجزء الاول من شرح التسهيل ، وقد اشرف على عمله الدكتور فايز زكي دياب . وهو مقدم الى كلية اللغة العربية بجامعة الازهر للحصول على درجة الدكتوراه في اللغويات .

ـ المشترك اللفظي في القرآن الكريم ـ دراسة دلالية في متن كتاب الفيروز ابادي بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . رسالة تقدم بها عبد الرحمن عزيز الى كلية التربية بجامعة الموصل لنيل درجة الماجستير باشراف ا . د . عبد الوهاب العدواني .

ـ رمزية الأنثى في الشعر الجاهلي . رسالة دكتوراه اعدها مصطفى حسن حداد وباشراف الدكتور محمود علي مكي . اتبع الباحث منهج النقد النماذجي او الاسطوري ، وقد درس تشكل رموز الانثى في النص الواحد وصلة هذا التشكل بنصوص اخرى في محاولة للوصول الى ثوابت بنائية نمطية تجتمع عليها نصوص الشعر العربي قبل الاسلام التي تشكل في مجموعها نصاً نموذجياً .

ـ قضايا معاصرة في نقد عبد القاهر الجرجاني . رسالة دكتوراه في النقد العربي القديم للسيد ناصيف محمد ناصيف باشراف الدكتور محمد زكي العشماوي في كلية الاداب بجامعة الاسكندرية .

ـ كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ، لتقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر المقريزي(ت ٨٤٥ هـ) حققه د . ايمن فؤاد سيد ، وصدر عن مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي ـ لندن .

ـ نزهة الجلساء في اشعار النساء ، لجلال الدين السيوطي(ت ٩١١ هـ) حققه محمود حكلا ومحمد حكلا . اعتمد المحققان مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق واستفادا من طبعة د . صلاح الدين المنجد الصادرة عام ١٩٥٨ . ومن طبعة عبد اللطيف عاشور . قدم الكتاب د . عبد الاله نبهان وصدر في ١٢٧ صفحة في مدينة حمص .

* * *

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة

